نوران خالد

فَتَاةٌ مِنَ الشرق

وقائع هروب العائلة الشركسية في مائة عام

رواية



إهـــداء

إلى كل إنسان اضطره ظلم وطمع وحماقة أخيه الإنسان إلى أن يترك بيته ويهجر وطنه، ويُرغَم على غربة لم يخترها، ولا يعلم متى ينحلُّ وثاقها.

الفصل الأول

رازالق (Razlog) – جنوب بلغاريا حاليًا – أكتوبر ١٩١٢

أعواد الذرة الطويلة يلتمع أخضرها تحت أشعة الشمس المنعكسة عليها في دفء ويهتز أعلاها مع النسمات الباردة التي تنساب بينها، فتتمايل أطرافها معًا في خفة، بينما سيقانها منتصبة في ثبات ما عدا بضع منها عند طرف الحقل. مع إمعان النظر تجد سيقانها تتحرك.. هناك حركة خفيفة تكاد لا تُرى! يمنة ويسرة دون أن يبدو ما هو بالضبط هذا الذي يحركها حتى ينزاح آخر عود، وتظهر من خلفه فجأة طفلتان تتقافزان في مرح مجتازتين المرج الصغير المغطى بالحشائش الذي يفصل حقل الذرة عن البحيرة. تبدأ كبيرتهما اللعبة، فتهتف مناديةً الأخرى باسمها بنبرة منغمة تتردد بين الجبال الخضراء المحيطة: «مِيري»، فتسرع الصغيرة بتقليدها منادية إياها بنفس النبرة المنغمة: «آيسل».. «ميري».. «آيسل»..

تتوقف «آيسل» عندما تصل عند حافة البحيرة، فتجلس وتنهمك فورًا في البحث بين الأحجار الصغيرة عن تلك

الملونة منها، وتجمعها بحرص في قبضتها، بينما تلقي بين الحين والآخر بأحد الأحجار السوداء في البحيرة، مستمتعةً برؤيتها وهي تشكّل دوائر صغيرة على صفحة الماء. تجلس «ميربابا» -أو «مِيري Miri - » كما ينادونها- بجانب آيسل، تختلس نظرات متمعنة نحوها، وتقلّد ما تفعله بالضبط. أحيانًا يتعجب البعض عندما يعرفون أن إحداهما هي ابنة خالة الأخرى! فعلى الرغم من تشابه ملامحهما إلا أنه للوهلة الأولى لا يمكن لأحد أن يتخيل أن «آيسل» ذات الثلاثة عشر عامًا بجسدها المستدير المتناسق وشعرها الأسود الطويل الكثيف الناعم وعينيها البنيتين الواسعتين تنتمي لنفس الأسرة التي تنتمي لها «ميري» النحيفة ذات التسع سنوات والجسد الضعيف والعينين الزرقاوين والشعر القصير باهت الصفرة.

تلتفت «مِيري» عندما تشعر بحركة خلفها. تمطُّ شفتيها في ضيق عندما تبصر خالتها «رقية» تقترب منهما في خطوات غاضبة. تناست ضيقها للحظات وهي تتأمل خالتها في إعجاب يتكرر كلما رأتها.. جميلة خالتها، هذا الثوب الأسود الفضفاض لم ينجح في إخفاء جمال جسدها، بل زاده فتنة، وهذا الوشاح الأسود الذي يخفي شعرها البني الذي تعرف «ميري» جماله جيدًا، هذا الوشاح يحدد وجهها الجذاب

وملامحها العابسة، فلا يزيدهم إلا سحرًا. ليس عجيبًا إذن أن وقع في غرامها، وأصر على الزواج منها هذا الرجل الغريب الذي تشعر «ميري» دائمًا في حضرته بالرهبة، وتعامله الأسرة كلها برسمية تختلط بشيء من الخوف وكثير من التجنب!

- ألم نحذركما من الابتعاد عن القرية هذه الأيام؟!

لا تتوقف «رقية» ولا تنتظر ردًا. تلقي بكلماتها الغاضبة وهي تمد يديها وتجذبهما في شدة أفزعت «آيسل» التي كانت مستغرقة فيما تفعل، ولم تشعر بأمها وهي تقترب فتباغتها الجذبة، وتُسقِط من يدها الصغيرة الأحجار الملونة التي جمعتها، كما تسقط أحجار «مِيري» من يدها. تلتفت «رقية» وهي تجرجر كل واحدة منهما في يد عائدة بهما نحو القرية في خطوات سريعة حازمة، بينما الطفلتان تتعثران خلفها، وتتبادلان نظرات حائرة ومرتبكة! هما أصغر من أن يفهما ما يحدث، لكنهما تشعران به جيدًا! هذا الخوف الذي يحيا معهم دائمًا تحوَّل في الأيام القليلة الماضية إلى ذعر يسري في عيون الكبار وعلى ملامحهم، وترقُّب جعل الجميع دائمًا على أهبة الاستعداد؛ لمواجهة شيء مفزع تعجز الصغيرتان عن فهم كنهه(1)! منذ أن تشكل وعيهما وهما محاطتان دائمًا بحرص زائد وممنوعات كثيرة تعزلهما داخل

القرية ومحيطها الضيق، بعيدًا حتى عن سكان المدينة والقرى القريبة، أو ربما حتى بسبب هؤلاء! حكايات قديمة تثقل النفوس بذكراها وبالفزع من احتمال تكرارها ونمط حياة خانق يلتزم به الجميع، وسط محيط من الكراهية تضيق حلقاته حولهم حتى بلغ الحناجر في الأيام الماضية، وألقى بقيوده الثقيلة على حياة الطفلتين ولعبهما وانطلاقهما دون أن يستطيعا فهم شيء مما يحدث حولهما!

عندما تشرفن على القرية تجدنها كعادة هذه الأيام خالية الطرقات. الكل مُحتَمٍ ومختبئ في البيوت الطينية الفقيرة البائسة، كأنها يمكن أن تحميهم من الطوفان الذي يقترب. تتوقف «رقية» أمام بيت أختها وأسرتها الصغيرة، والذي كان في الماضي بيت الأسرة الكبيرة كلها قبل انتقال «رقية» لبيت زوجها في وسط المدينة قريبًا من مبنى الحامية العثمانية، ورحيل الأربع عجائز واحدًا تلو الآخر على مدار الأحد عشر عامًا الماضية! تطلب من «ميربابا» أن تظل في المنزل بجانب أمها وأبيها وألا تغادره أبدًا، قبل أن تمضي مبتعدة تجرجر خلفها ابنتها «آيسل» بنفس الخطوة السريعة الثابتة مجتازة المتاريس العثمانية والجنود المستنفرين دون أن يجرؤ أيٌّ منهم على اعتراض طريقها! تبعتهما «ميري» بعينيها حتى اختفيتا قبل أن تلقي نظرة سريعة على دائرة

الأحجار المتراصة بعناية أمام المنزل، حول كومة حطب مشتعلة وقد استقر فوقها قِدر يمتلئ بالمياه ويتصاعد منه بخار خفيف، منذرًا باقتراب المياه من درجة الغليان. تلتفت «مِيري» وتدخل المنزل تبحث عن أمها التي استنتجت أنها وضعت القِدر على النار؛ استعدادًا للطهي قبل أن تدخل لتنجز مهمة ما حتى يغلي الماء.

تندهش عندما تجد المنزل هادئًا تمامًا على الرغم من أنها تعلم جيدًا أنه ليس خاليًا! على يمينها غرفتها الصغيرة حيث يغطُّ أخوها «حسن» ذو العامين في نوم عميق في فرشتهما التي يتشاركان النوم فيها على الأرض، وعلى يسارها نافذتان كبيرتان متعامدتان على بعضهما البعض، وتحتهما صندوقان كبيران يُستخدمان في التخزين ثم يغلقان، ويتم تغطيهما بغطاءين من الصوف الخشن؛ ليصيرا أريكتين للجلوس. بين باب البيت وإحدى الأريكتين منضدة هزيلة تتكدس فوقها وتحتها أدوات الطهي، ويستقر فوقها صحن يمتلئ بالبطاطس تدرك «ميري» أن أمها أعدَّته لتقوم بسلقه في القِدر الكبير بالخارج.

في مواجهة باب المنزل تقع غرفة أمها وأبيها، وتستند دائمًا على الجدار بجانب بابها الطاولة المنخفضة التي ينقلونها

لمنتصف الغرفة الكبيرة على الأرض بين الأريكتين ليأكلوا حولها. تلك الطاولة المستديرة ذات الثلاثة أرجل التي كانت جدتها تقول إن اسمها «أنة» بلغة الوطن! لا تعرف «مِيري» هذا الوطن الذي جاء منه ثلاثة من أجدادها الأربعة، والتي كانت جدتها لا تكفُّ عن الحديث عنه! لكنها كانت تحب حكايات جدتها وأغانيها التي كانت تغنيها لها ولـ«آيسل» و«حسن» وهي تمسح على رؤوسهم، وعيناها تنطقان بالحسرة حتى رحلت قبل عام تقريبًا!

تتسحب «ميربابا» على أطراف أصابعها نحو الباب الموارب؛ كي لا يشعر بها أحد، وعندما تقترب تنحني لتحبو محاولةً عدم إصدار أي صوت، حتى تلتصق بالجدار وتمد بصرها نحو الداخل في تردد، حيث يقع على ما يجذب عينيها، ويجعلها تراقب ما يحدث مأخوذة به! بينها وبين نافذة الغرفة يقف أبوها وأمها متعانقين عناقًا طويلًا بلا كلام! يلصق جبهته بجبهتها ويحيطها بذراع، بينما يضع يده الأخرى على بطنها المنتفخة بنطفتهما. منذ عدة أيام تأملتها إحدى عجائز القرية المخضرمات متفحصةً، قبل أن تعلن في ثقة أنها تحمل في رحمها جنينين أحدهما أضعف من الآخر!

تبعد جبهتها ووجهها الشاحبين قليلًا عن جبهته، وتفتح

عينيها البنيتين فتبدو فيهما دموع الفزع، وهي تهتف بصوت مبحوح:

- أنا خائفة يا «تيمور».. أخشى أن يحدث لنا ما حدث لأمي أو لأمك.. عمتي! أخشى أن يغرق أبناؤنا أو أن نتجمد!

ليست في جمال أختها الصغيرة «رقية»، لكنها تملك وجهًا رقيقًا لم يُنقِص الوشاح المربوط حول رأسها بعقدة من الأمام من جاذبيته. ربما ليس جميلًا بالقدر الكافي؛ بسبب ذقنها المدبب البارز! لكنها لم تشعر يومًا بالضيق من شكل ذقنها هذا، بل بالعكس كانت تحبه وتعتز به؛ لأن «تيمور» دائمًا ما أحبه!

يرفع «تيمور» يده من على بطنها، ويداعب بأنامله ذقنها بحبٍّ، قبل أن يقول محاولًا التظاهر بالاستخفاف والمزاح:

- أي تجمُّد يا «فاطمة»؟! لم تنزل ثلوج الشتاء بعدُ!

- يا «تيمور» أنا جادة! الخوف يكاد يقتلني!

- لا تقلقي يا حبيبتي.. الوضع الآن مختلف عما حدث

لآبائنا.. لدينا من يساعدنا، ونعلم أين سنذهب، وسنرحل مبكرًا قبل أن يحدث أي شيء.

لا يبدو عليها الاقتناع، لكنها لا تجد بدًّا من الاستسلام والتصديق؛ لأنها لا تملك غير ذلك!

عندما تخطو «فاطمة» خارج الغرفة تنكمش «مِيري»؛ حتى لا تراها أمها التي تلتقط صحن البطاطس، وتخرج به في خطوات يثقلها الهم والحمل. وعندما تعود «ميري» لتنظر داخل الغرفة مرة أخرى تجد «تيمور» جالسًا على الصندوق الموضوع كأريكة تحت نافذة الغرفة، وقد سقطت أشعة الشمس على وجهه، فأنارت عينيه العسليتين وشعر رأسه وشاربه ولحيته النابتة بلونهم البني الفاتح. يسند رأسه للخلف شاردًا نحو الجبال الخضراء المحيطة بالقرى، تاركًا خوفه يظهر جليًا في عينيه، ويرتع على ملامحه بعد أن بذل جُلَّ طاقته ليخفيه عن «فاطمة»، بعدما شعر بعجزه أمام عينيها الممتلئتين بالجزع!

ماذا تفعل يا «تيمور»؟! تعِدُها بما لا تملك! تطمئنها مما يكاد يهلكك فزعًا؟! الخوف يكاد يقتلك أنت أيضًا لكنك تخفيه عنها كما تخفي تلك الأخبار التي تصلك، وتبذل كل جهد تملكه

لتمنعها عن «فاطمة»! نذر الشؤم المتواترة عما يحدث على بعد مرمى حجر، ويقترب كسيل سيدمر كل ما في طريقه!

أنت لا تعرف الكثير، لكنك تعرف أنه بعد سنوات طويلة من الاضطرابات المتفرقة من سكان المناطق الأوروبية التي لا تزال تقع تحت الحكم العثماني كمنطقتك هذه، وجدت إستانبول نفسها تواجه إلى جانب الاضطرابات السياسية الداخلية حروبًا أخرى خارجية أضعفت موقفها أكثر. لم تفهم كل ما كان يقال حولك، لكن الكراهية التي عشت طوال حياتك تعاني من لذوعتها جعلتك تصدق أن دول البلقان المحيطة تحاول استغلال تلك الفرصة؛ لتحويل الاضطرابات المتفرقة إلى حرب حقيقية تزيح الحكم العثماني والوجود المسلم، خاصةً من منطقة مقدونيا، والتي كان يتنافس عليها بلغاريا وصربيا واليونان. وبينما كانت إستانبول تصرخ باستعدادها لإجراء إصلاحات طالما وعدت بها دون فائدة ودول أوروبا تتفق على رغبتها في بقاء الحالة الحاضرة كما هي أي بقاء الحكم العثماني في نفس المناطق، مع التوسع في تنفيذ حكم لامركزي؛ للحفاظ على توازن القوى في المنطقة، كان الوضع الحقيقي على الأرض لا يلقي بالًا لكل ذلك! الثورات متفاقمة يقوم بها السكان المسيحيون ويرد عليهم الجنود الأتراك بالمدافع، بينما في مناطق أخرى انقسم

الرعايا إلى مسلمين ومسيحيين، وتطاحنوا حتى الموت! أما الدول البلقانية فقد وصلك أخيرًا إتمام اتحادها فيما يُعرف بالتحالف البلقاني، ويضم دول صربيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود، والتي بدأت كلها تحشد جيوشها بنظام متقن وسرعة كلية، وترسلها إلى حدودها مع المناطق التركية، وتناوش قواتها حتى تيقن الجميع وأنت معهم أن الحرب ناشبة لا محالة. ومع ذلك، كاد الهلع أن يمزقك عندما انتشرت أخبار اندلاعها بالفعل في الثامن من هذا الشهر! كنت تستغل إجادتك للغة التركية تتلقف بها كل جديد يحدث من الجنود الذين أخذوا يكررون ما سمعوه عن كيف استدعى الجبل الأسود سفيره في الأستانة، وأعطى السفير التركي جواز سفره قبل أن يقوم الأمير بطرس ولي العهد بإطلاق المدفع الأول على حصن عثماني، فتبعته الدول البلقانية الأخرى (صربيا، واليونان، وبلغاريا) بفتح جبهاتها مع الدولة العثمانية، والتي لم تكن مستعدة لها أبدًا كما يجب، خاصة بعدما أسرعت الدول الأوروبية بالتخلي عن رغبتها في بقاء الحكم العثماني مع التوجه للامركزية، كما أسرعت تغير تصريحاتها، وتتراجع وتدعم الحرب الناشبة، حتى قامت الصحافة الغربية بتسمية حركة البلقان «جهادًا»، وقالت عن الحرب المقبلة «حرب الهلال ضد الصليب»، واستفزت المشاعر الأوروبية لطرد الهلال من أوروبا!

أما في ولاية(2) سالونيك، أهم الولايات العثمانية في مقدونيا، والتي تقع بها مدينتك هذه التي استوطنتها أسرة أمك منذ عقود قليلة، فقد كان انفجار القنابل المتتابع يصل أصداؤه إليكم! ومع ذلك، حاولت كثيرًا أن تمنع عن «فاطمة» طوال الأيام الماضية أخبار مناوشات الحدود، واضطهاد القوات البلغارية واليونانية للمسلمين من سكان المدن والقرى التي يسيطرون عليها، وكيف أنهم يقومون بتوزيع الأسلحة على بعض السكان المسيحيين؛ ليساعدوهم في عمليات التطهير العرقي والاضطهاد التي يقومون بها وأنه من نجا من ذلك لم يسلم من العصابات التي عمدت إلى إلقاء القنابل على السكك الحديدية، وقطع الطرق، والاعتداء، والسلب، والنهب، دون أن تكون القوات التركية قادرةً على ردعها أو حتى التصدي لها بعدما سحبت القيادة معظم قواتها، كما استيقظتم منذ يومين لتجدوها قد سحبت معظم جنود حامية مدينتكم ووجهتها نحو الجبهات الأكثر اشتعالًا، والعدو الأكثر خطورة أو قوات البلغار، تاركين إياكم بلا غطاء تقريبًا في مواجهة كل ذلك!

كيف تطمئنها إذن يا «تيمور»؟! كيف وأنت تعلم ما تفكر هي فيه؛ لأنه يدور في عقلك أنت أيضًا ويكاد يفتك به.

كلما تقع عيناه على بطنها المنتفخ يتردد في خلفية رأسه صوت أمه، وهي تحكي عن تلك المرأة الحامل التي بقروا بطنها وقتلوا زوجها، ومعه هذا العزيز الذي راح ضحية نبله عندما حاول الدفاع عنها!

أمه! نورسان! كانت امرأة استثنائية في صلابتها وعنادها اللذين لا يضاهيهما شيء سوى فيض حبها واحتوائها لهم كلهم! كيف كانت تجمع بين كل ذلك وتحمل البيت كله على كتفيها وفي قلبها، وتظل محافظة على ثباتها وحنوها حتى آخر يوم في حياتها! كلما نظر إلى «ميربابا» تذكرها، نفس أصفر الشعر الباهت ونفس أزرق السماء في العينين، نفس النظرات والالتفاتات، لا يعلم إن كانت ستكبر لتصير في نفس شخصية أمه أم لا، لكنه يعرف جيدًا أن كل شيء حتى الآن يقول إنها قطعة من جدتها، وإنها منذ ولادتها كانت الأقرب لها ولقلبها بعد أن حرمتها ظروف زواج «رقية» من أن تفرح فرحة مكتملة بولادة حفيدة أخيها، واضطرتها أن تقبل بكل ما فُرِض عليهم حتى اسم الطفلة الذي لم يختره أحد منهم، فأضحت فرحتها مضاعفةً عندما وُلِدت حفيدتها هي، ومنحتها الحياة تعويضًا أجمل في اللحظة التي حملتها بين يديها وألصقتها بصدرها، واختارت لها بكل حرية اسمًا من

أسماء الوطن الذي تركوه قسرًا! كم هو سعيد لأن أمه رحلت في سلام هي وأبوه وخاله وزوجة خاله، قبل أن يشهدوا مأساة أخرى! يكفي كل واحد منهم أن يعيش فاجعة واحدة، وأن يُنتزع من أرضه وحياته مرة واحدة، وأن يُرغَم على رحلة شقاء وألم واحدة! ما يعرفه يجعله شبه متيقن من أنهم مقبلون على ما يشبه هذا الذي حكته أمه، عما حدث لهم وبدأ منذ أكثر من خمسين عامًا في وطنهم الأصلي!

لا يستطيع «تيمور» أن يقاوم أكثر من ذلك، فيغمض عينيه، ويستسلم لذكرى صوت أمه وهي تحكي له ولهم تلك الحكاية القديمة.

القوقاز

١

قديمة هي الحكاية. لكنها ليست في قدم القوقاز(3) الحبيبة. ليست في قدم جبالها الشامخة وأوديتها الفردوسية. نحو أربعمائة كيلومتر مربع من اليابسة الممتدة في جموح بين زرقتين: زرقة بحر قزوين في الشرق وزرقة البحر الأسود في الغرب، مُشَكِّلة بذلك حدًّا فاصلًا ومعبرًا

عملاقًا بين آسيا وأوروبا.

في الأساطير القديمة.. كانت جبال القوقاز تمتلك أرواحًا حية تخوض بها الحروب، وتنتقل بين جنبات الأرض في حرية وانطلاق، حتى أصابها الكلل، فاستقرت في تلك الأرض. مجموعة من الشيوخ يقفون بجانب بعضهم البعض في شموخ.. الثلوج البيضاء فوق القمم هي شعرهم الأشيب والأخاديد العميقة على السفوح هي تجاعيد وجوههم المسنة. كلهم سواء ما عدا أعلاهم قمةً.. جبل البروز العظيم الذي أضفت عليه الأساطير جمالًا خاصًا عندما قرنته في المخيلات بشيخ يقف تحت عمامته البيضاء صامدًا أمام الشوق المعتمل بداخله نحو حبيبة جميلة يرقبها في وله، وتمنعه كبرياؤه عن الاقتراب منها.

في القوقاز أنهار كثيرة.. شرايين تجري بالحياة على أرض تعرف أهميتها حتى أنها تركت اثنين من تلك الأنهار يرسمان شبه حدودها الشمالية: نهر التيريك الذي يجري نحو الشرق، مارًا بشمال القوقاز كله حتى يصبّ في بحر قزوين، ونهر الكوبان الذي يمتد غربًا حتى يصبّ في بحر آزوف(4).

من حول التيريك والكوبان شمالًا وحتى شمال سفوح

هضبة أرمينيا جنوبًا تمتد القوقاز.. تلك الأرض التي تتجاور فيها الصحراوات الجافة ومتاهات الجرانيت وجبال الحجر الصوان مع غابات أشجار الزان العالية وأشجار الخروب والبيلسان وحقول البرسيم والأشجار المثمرة ومراعي زهور البابونج الفيحاء والمرتفعات الخضراء الخصيبة ترويها جداول تجري بين الصخور المغطاة بالعشب.. مياهها صافية رائقة بِكر لم تُمَسّ، وخريرها يدغدغ الأذن ويداعب الخيال.

قديمةٌ هي الحكاية. لكنها ليست في أصالة شعوب القوقاز. فتلك الأرض لم تمتلك تنوعًا هائلًا في التضاريس والمناخات فحسب، بل كانت أيضًا حاضنة في الماضي تنوعًا هائلًا من الطوائف والأجناس قلما يتكرر في التاريخ. قبائل متناثرة تفرِّقهم الأديان والأجناس والسمات، ويجمعهم طابعهم الولائي: ففي كل قبيلة وقرية لا يعلو على الولاء لها ولرئيسها وللجنس أو الطائفة سوى الولاء للدين، أما الدول والملوك والسلاطين المتعاقبة فلم تحظَ من أهالي القوقاز بأي شعور خاص بالانتماء على مر التاريخ.

لكن كل تلك الطوائف تصغر إذا ما قورنت بالسكان الأعرق لشمال القوقاز. أصحاب الحكايات والأساطير التي تغلف الأرض والجبال. الشعب الذي خلق سيرة من النظام

والتحضر في وقت كان الباقون فيه لا يزالون يعيشون بالفطرة والبدائية. شعب الأديغة أو من صاروا يُعرَفون بعد ذلك بالشراكسة.

اتفق الجميع على أن جنس الأديغة كانوا يعيشون في شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود منذ ثلاثة آلاف عام، قبل أن يبدأوا زحفهم ببطء نحو أرض القوقاز. في البداية، استقرت كل طوائف الأديغة في غرب القوقاز على شواطئ البحر الأسود وضفاف نهر الكوبان، قبل أن يبدأ جزء من قبائل طائفة القباردا بالتوغل داخل القوقاز، والاستقرار على ضفاف نهر التيريك على مسافات متباعدة نحو الشرق؛ حيث المصب في بحر قزوين، بينما بقي الجزء الآخر من القباردا قرب ضفاف الكوبان وشواطئ البحر الأسود مع باقي طوائف الأديغة مثل الشابسوغ والبزادوغ.

اعتنق الأديغة الإسلام، واستقروا في أودية القوقاز، حيث كانوا يعملون بالزراعة وتجارة الفراء وتربية الحيوانات والخيول، فقد كان رجال الأديغة فرسانًا مهرة ومحاربين لا يُشقُّ لهم غبار. ومع ذلك، لم يُعدَم شعب الأديغة حسًا جماليًا متميزًا، فالأديغة الحق يهتم بهندامه وأناقته، ويحرص على الاعتبارات الاجتماعية حرصًا شديدًا، كما أنهم تميزوا بنزعة

فنية متوقدة؛ فقد كانوا ينظمون الأشعار والأغاني بلغتهم المسماة باسمهم، والتي كانت واحدة بين كل الطوائف مع وجود فوارق في اللهجات، وكانوا أيضًا يعزفون الموسيقى، ويرقصون رقصاتهم الشركسية المبهجة والخاصة بهم. كما نظم الأديغة مجتمعاتهم إلى طبقات، ولكن لم تكن سلطة أي طبقة لتعلو فوق سلطة «الخابزة» أو دستور العادات والتقاليد القديمة الذي ينظم كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكانوا يلتزمون به التزامًا صارمًا كاد يبلغ حد التقديس. لذا فإننا لا نكذب عندما نقول إن شعب الأديغة شعب أصيل في حضارته.

قد لا تكون الحكاية متأصلة مثل أصالة أرض القوقاز وعراقة سكانها، لكن هذا لا يمنع أنها حكاية قديمة تعود لأيام إيفان الرابع(5) أو ربما قبله أيضًا، ولكننا سنبدأ من أيام بطرس الأكبر(6). وقف هذا الرجل في شرفة قصره بسانت بيترسبرج، ومدّ بصره نحو الجنوب، معلنًا رأيه التاريخي بأن تلك الإمبراطورية لن تكون بأمان إلا إذا امتدت السيطرة الروسية حتى براج! منذ ذلك الحين بدا طموح كل القادة والحكام الروس في السيطرة على أنحاء القوقاز متواضعًا جدًا إذا ما قورن بتلك المقولة.

وعلى مدار سنوات طوال جاهد الروس ليفرضوا سيطرتهم على القوقاز؛ ليربطوا إمبراطوريتهم بممتلكات الأمم المسيحية التي وضع بعضها نفسه تحت حماية القيصر الروسي، وبذلك تكون قبضتهم محكمةً على المنطقة بأكملها. استعان الروس في حربهم بشبكة جواسيس من الجورجيين والأرمن وجيش من المرتزقة القوزاق(7) تحت القيادات الروسية المسيطرة على خطط الحرب والاستراتيجية القائمة على منهج تدمير القرى القوقازية تدميرًا وحشيًا وإبادة أهلها أو طردهم، ثم إعادة تعميرها بأسر من كل الطوائف الموالية للعرش الروسي. سنوات تراوحت بين الحرب والإبادة والاضطهاد الديني لمسلمي القوقاز وصلت حد قتل الرجال والأطفال بوحشية، وأسر النساء وإهدائهن للضباط أو بيعهن، كما حدث للقبائل الشيشانية، وبين فترات قصيرة من اللين والمهادنة مثل عصر الإمبراطورة كاثرين الثانية(8) التي على الرغم من التصالحات والعلاقات الدبلوماسية التي أقامتها مع كثير من القبائل التي كان يتم أحيانًا اتهامها بالتخاذل، إلا أن القوقاز لم يسلم من توسعات خططها، وأدارها قائد الإمبراطورة الداهية «ألكسندر سوفوروف».

ولكن لم يكن لكل تلك السنوات والحكام من التعاقب دون

مواجهة مقاومة شرسة سواء من أمراء القبائل أو من بعض القادة المتميزين في تاريخ شعوب الأديغة والشيشان، هذا الشعب الذي سكن الجبال، وعُرِف بالمزاج الحر العنيد.

ولكن لم يكن أيهم مثل هذا القائد الذي عُرِف كأهم وأشهر من قاد حربًا ضارية ضد الروس في تاريخ المنطقة، كما عُرِف بشخصيته المفعمة بالتناقضات العصية على التصديق!

لكن ما لم يختلف عليه أحد هو أن الشيخ أو الإمام «شامل» ظل لأكثر من ثلاثين عامًا شوكة موجعة في ظهر الروس! قائد حربي داهية استطاع أن يحارب الروس بشراسة والتغلب عليهم في عدة مواقع، والنجاة من كل الفخاخ التي كانوا ينصبونها له، حتى تحول إلى أسطورة حقيقية في مخيلات كل سكان القوقاز. ولكن مع تراجع الإنجليز عن دعم القضية القوقازية أدرك الأتراك أنهم لن يستطيعوا استعادة سيطرتهم على المنطقة، فلجأ السلطان العثماني إلى التآمر مع الروس على أن يترك لهم أراضي القوقاز مقابل ترحيل سكانها إلى أوروبا العثمانية؛ للاستفادة من الرجال القادرين على الالتحاق بالجيش التركي؛ لمواجهة القلاقل التي كان يواجهها هناك نتيجة لسخط الأغلبية المسيحية على الحكم العثماني.

وفي الوقت الذي اشتدَّ فيه القمع الروسي للمظاهر الدينية مثل إجبار الأديغة على إلحاق أبنائهم بمدارس الإمبراطورية؛ ليتعلموا فيها مبادئ المسيحية، ودأب الخطباء الأتراك على إقناع القروبيين في الشرق بالارتحال إلى تركيا أو «بيت الإسلام»؛ ليكونوا أكثر قربًا من الدين السليم، بدلًا من الحياة بجانب الروس والطوائف الأخرى التي لا تتخذ من الإسلام دينًا، استطاع الروس إحكام الحصار حول الإمام «شامل» في ملجأه «غونيب» حتى اضطر إلى الاستسلام، فتم نقله إلى روسيا؛ حيث أكرمه القيصر كرمًا شديدا أثناء إقامته قبل أن يلبي طلبه بالذهاب إلى مكة، حيث قضى ما تبقى من عمره بجانب الكعبة حتى وفاته بعد أكثر من عشرة أعوام من هزيمته واستسلامه الذي تم عام ١٨٥٩.

٢

لكن قبل هذا التاريخ بعام واحد، في ليلة من ليالي شتاء عام ١٨٥٨ حيث يمتد الرداء الثلجي الأبيض على مساحات أوسع من القمم المغطاة طوال العام، وتكثف الطبقة الضبابية على الأحراش والجبال القوقازية، وبينما إحدى القرى القباردية القريبة من ضفاف نهر التيريك غارقة في ظلام وهدوء لا يقطعه سوى صوت خرير المياه المتدفقة في

مجرى النهر في تمهُّل، كان هناك فارسان يقومان بربط فرسيهما بجذع إحدى الأشجار في الحرش القريب من السور المحيط بالقرية. يعد أن أتما مهمتهما أسرع الفتى الأصغر يلفُّ ذراع الفارس الآخر حول رقبته من الخلف ويثبتها بيسراه، قبل أن يمد ذراعه اليمنى ويلفها حول وسطه؛ ليتمكن الآخر من الاتكاء عليه؛ لتعويض العرجة التي يعاني منها بسبب إصابة في ساقه اليمني. على الرغم من أن المتوكئ كان أكبر حجمًا من الفارس الآخر، إلا أن الفتى كان قوي البنيان وخفيف الحركة، بحيث استطاع أن يسنده بثبات حتى تسللا من فتحة مخفاة بين الأوتاد الخشبية البيضاء التي تُشكِّل سياجًا منيعًا حول القرية. كانت خطاهما بطيئة قلقة، لكنها واثقة من الطريق الذي عرفه الفارس المصاب عن ظهر قلب، والذي كان يتحامل على الألم والإعياء؛ ليرشد رفيقه بين طرقات القرية النائمة، حتى وصلا عند بيت مبني مثل باقي بيوت القرية من الحجر والخشب، فتقدما منه حيث مدَّ الفتى يده ودق على الباب دقتين خفيفتين، وهو يدعو الله في سره أن تكونا كافيتين ليستيقظ أهل المنزل دون أن يشعر بهما أحد في أي من البيوت القريبة! دقائق قليلة وانفتح الباب فتحة صغيرة أطل منها شعاع شعلة مصباح معلق على الحائط المواجه، قبل أن يحجبه وجه امرأة شقراء ذات عينين زرقاوين تخفي شعرها

الأصفر الشاحب تحت وشاح من الموسلين الأبيض. ما أن تبينت هوية الشخص المصاب وحالته حتى تحول الارتياب في عينيها إلى هلع، وهي تهتف فزعة: «عزمات!» هتف «عزمات» في إعياء باسمها كأنه لا يصدق أنه في بيته وأمام زوجته «ديسا!».

أسرعت «ديسا» تسند زوجها «عزمات» مع الفتى الآخر حتى أرقدته على أريكة مفروشة بفرو الخراف، وأسندت رأسه بالوسائد المحشوة بالريش، دون أن تكترث ببقع الدماء التي لوَّثت ثوبها الأبيض المزموم حول خصرها بحزام من الجلد الناعم. خلعت عنه البوركا(9) السوداء قبل أن تكتم صرختها عندما رأت سرواله المشقوق وساقه الملفوفة بقماش أبيض ملطخ بالبقع الحمراء! أخبرها الفتى بلهجة سريعة محاولًا طمأنتها أن «عزمات» أصيب بطلق ناري من بنادق قناصة الفوزاق أثناء هروبه بعد معركة صغيرة، وأن الرجال قد قاموا باللازم: أخرجوا الرصاصة، ووضعوا طحالب النباتات فوق الجرح، قبل أن يلفوه بالكتان، وما عليها الآن سوى تنظيف الجرح والاهتمام بغذائه وراحته حتى يتعافى. تركت «ديسا» الفتى بجانب «عزمات» المتأرجح في إعياء بين النوم واليقظة، وأخذت تتحرك في عصبية بين الحجرات؛ لتحضر المناشف والملابس النظيفة

والمياه، وكل ما يلزمها؛ لتمريض زوجها المصاب، بينما وقفت في أحد الأركان ابنتها ذات العشرة أعوام تراقب ما يحدث منكمشةً على نفسها في خوف! «كوللا» التي لم تأخذ شيئًا من أمها سوى بياض بشرتها، بينما كان شعرها الأسود الناعم وعيناها العسليتان إرثًا خالصًا من جداتها من طائفة القباردا. انتبهت «ديسا» فجأة إلى ابنتها.. أدركت أنها يجب أن تتمالك نفسها؛ حتى لا يتحول خوف الصغيرة إلى ذعر حقيقي، فرسمت ابتسامة باهتة على شفتيها، وهي تطلب منها في رفق أن تدخل الحجرة الأخرى، حيث ينام أخوها «حمزات» ذو الأربعة أعوام، وأن تظل بجانبه؛ حتى لا يفزع إن استيقظ، ووجد نفسه بمفرده، فأطاعتها «كوللا»، واختفت في الداخل، قبل أن تلقي نظرة أخيرة على أبيها، محاولةً طمأنة نفسها. بعد أن انتهت «ديسا» من تنظيف الجرح وتغيير الضمادة الملوثة والملابس المتسخة عادت بعض من الحياة تدب في وجه «عزمات» الذي ذهب في غفوة طويلة بعد أيام من السير المتواصل المحفوف بالخوف والترقب، بينما أخذت «ديسا» نفسًا عميقًا محاولةً تهدئة قلبها الذي أصابه الهلع بغتةً بعد أن قضت شهورًا طويلة تروضه ليعتاد هذا الصبر المنضبط الذي لا يعرفه أحد كما تعرفه نساء المحاربين. استأذن الفتى لينصرف؛ فأمامه طريق طويل ليسلكه حتى يعاود الانضمام لجيش الشيخ «شامل» الذي ما

تركه إلا متطوعًا ليساعد التحمادا(10) «عزمات» على الوصول إلى منزله بعدما رأت القيادة أن بقاءه في ميدان القتال بعد إصابته تلك غير مُجدٍ بل وسيضر بصحته. شكرته «ديسا» بعينين دامعتين، فأجابها مبعدًا عينيه عنها في خجل وهمّ بالتحرك قبل أن يوقفه صوت «عزمات» الذي هتف من خلف غفوته في لهجة يختلط فيها الأسي بالإعياء: «لا تنسوني يا بني.. ابعثوا لي بأخبار الإمام دائمًا». أومأ الفتى قبل أن يستدير خارجًا بخطى مسرعة محاولًا إخفاء عينيه الدامعتين. إنه يدرك الخسارة الفادحة التي أصابتهم بإصابة «عزمات»؛ فهذه الرصاصة تسببت في عرجة دائمة لا شفاء منها ولا عودة بعدها لساحات القتال! خسارة كبيرة لجيش الإمام؛ فهؤلاء الفرسان الشجعان والمقاتلون العنيدون مثل «عزمات» لا يتكررون كثيرًا، ويصعب سد الفجوة التي يتركونها.

بمرور الأيام تماثل جسد «عزمات» للشفاء، بينما كانت روحه تزداد سقمًا. منذ سنوات، لم يطق «عزمات» فكرة أن تكون قريته إحدى القرى الدبلوماسية المتصالحة مع الروس. كان يعلم أن هذا الحال هو ما تمليه مصلحة القرية، ولكن تلك المصلحة العامة تعارضت مع مصلحة نفسه الساخطة على المحتلين الدخلاء، والمتوقدة شوقًا لمواجهتهم وقتالهم

حتى يفروا هاربين من أرض القوقاز الحبيبة. لم يثر «عزمات» أي مشاكل، ولم يراجع الحكام فيما اتخذوه من قرارات، فقط امتطى فرسته واستلّ سيفًا وقاما(11) وودّع أهله قبل أن ينطلق لينضم إلى جيش الإمام «شامل»، لعله يجد بين رفقاء الميدان ما يطفئ تلك النار المستعرة بداخله. فكيف يمكن الآن بعد كل تلك السنوات أن يتقبل فكرة الغياب الدائم والنهائي عن ساحة المعركة، والجلوس هكذا في البيت مكرهًا على ممارسة حياة طبيعية، بينما فرسان القوزاق والروس يدهسون بسنابك(12) خيولهم جبال القوقاز وأوديتها؟

راقبت «ديسا» في أسي زوجها والحزن يحيله مع مرور الأيام إلى كتلة من الصمت. صدره العريض وبنيته القوية كما هما لم يتغيرا، ولكن هذه الحسرة التي احتلت عينيه العسليتين، وهذا الشيب الذي غزا شعره البني الفاتح ولحيته الكثيفة -على الرغم من أنه أتم بالكاد أربعين عامًا- كانا كافيين ليبدو كما لو أنه تخطى الخمسين أو الستين من العمر. لم ينجح أي شيء في التخفيف عنه؛ لا مواساة الأهل والأصدقاء، ولا صخب الطفلين حوله، ولا حتى حضنها الدافئ. لم يكن «عزمات» يومًا سخيًا في عواطفه، كان يتبع ما تقتضيه العادات بأن الرجل الأديغة الحق يجب أن يسيطر

على مشاعره، وأن يُقلَّ في إظهار ما يعتمل بداخله من حب وحنان نحو زوجته وأبنائه. لكن مجرد وجوده كان يشع في الماضي دفئًا عجيبًا حولهم اختفى وتحول إلى برودة لاذعة مصدرها كُرتا الثلج المستقرتان في مقلتيه، وهذه العرجة المقيتة التي حرص «عزمات» على الجلوس معظم الوقت؛ ليتجنب هذا الوخز الذي يصيب رئتيه كلما شعر بها هو أو لاحظها أحد غيره.

فجأة اتخذ «عزمات» قرارًا بدا للكثيرين كما لو كان دربًا من الجنون: سيرحل غربًا نحو القرية التي تنحدر منها أم «ديسا»! فـ«ديسا» شركسية لكنها ليست قباردية خالصة، فأمها وُلِدت وعاشت سنوات حياتها الأولى في قرية من قرى طائفة البزادوغ القريبة من سواحل البحر الأسود، قبل أن تتزوج من أبي «ديسا» القباردي، وترحل معه شرقًا للاستقرار على ضفاف نهر التيريك، لذلك ورثت «ديسا» الملامح البزادوغية الشقراء ذات الشعر الأصفر والعينين الزرقاوين.

على الرغم من الاستنكار الذي قوبل به هذا القرار، إلا أن «ديسا» كانت سعيدة ومتحمسة جدًا للرحيل؛ فهي لن تدخر جهدًا في المشي خلف أي أمل أو السير في أي طريق يمكن أن يعيد بعضًا من الروح إلى عيني «عزمات». فلتذهب إلى

أهل أمها الذين لا تعرف عنهم شيئًا سوى موقع قريتهم، وأسماء كانت ترددها أمها؛ فهي متأكدة من أنهم سيحتفون بهم، ويكرمون مثواهم. فلتذهب؛ ربما وجدت هناك ما فقدته هنا.

كان نهارًا صيفيًا حارًا، حيث يرتفع منسوب التيريك جارفًا زهرات السوسن المتساقطة في مجراه، ويعلو طنين النحل مع الريح الخفيفة التي تحرك أعواد القصب وأشجار الحور والصفصاف القريبة من حافة المياه، عندما انتهت الأسرة الصغيرة من حزم الأمتعة على عربة خشبية ذات لوح مسطح فوق عجلات كبيرة مربوطة إلى فرس أبيض. جلست «ديسا» بجانب الأمتعة، وبجانبها «كوللا»، وفي حجرها «حمزات»، بينما امتطى «عزمات» بصعوبة فرسته المخلصة التي عادت معه في اليوم المشؤوم، وظلت منتظرة في الحرش المجاور حتى أرسل أحدهم ليبحث عنها. انطلقت القافلة الصغيرة موليةً ظهرها للملوحين عند سياج القرية، محاولةً التمسك بخيط الأمل الذي عاد يداعب خيالهم بقوة، وهم يخطون أولى خطواتهم نحو الابتعاد عن الماضي والبدء من جديد. الطريق من الشرق للغرب يستغرق أسبوعين، لكن في ظل الاضطرابات السائدة كان يجب على «عزمات» أن يتخذ طرقًا ملتوية ليتجنب الاحتكاك بدوريات

القوزاق المستنفرة؛ بسبب المواجهات المستمرة مع الشيخ «شامل» في الشرق. مضوا صاعدين في الأودية نحو سلاسل الجبال المتعامدة عليها، ثم نفذوا بين الصخور، فكانوا كأنهم اجتازوا حصنًا منيعًا، وأصبحوا في قلب قلعة طبيعية مهيبة! اختفت الشمس وحلَّت مكانها طبقات من لون رمادي مقبض تكسو حوائط عالية من الصخر الأصم المحيط بالشعب العميقة الممتدة داخل الجبال، حيث يلف الصقيع كل شيء، ويتحول هواء التنفس إلى الأبيض الشاحب، ويتردد صدى صوت سنابك الخيل واحتكاك عجلات العربة بالأرض الحجرية فينفذ في القلوب! انكمشت «كوللا» مرتجفةً من البرد والخوف، وحاولت «ديسا» التشاغل عن توترها بملاعبة «حمزات» الصغير، بينما كان «عزمات» يمضي في المقدمة بخطى ثابتة غير مبالية؛ فقد كان كل ما يحيط به ويثير الفزع في نفوس الآخرين شيئًا معتادًا بالنسبة لمحارب جبلي مثله. انحرفوا في ممر صغير من الصخور الناتئة، ليجدوا أنفسهم فجأة أمام مرج أخضر أعاد بعضًا من الطمأنينة إليهم. اتسع المرج وتحول إلى مرتفعات ومنخفضات شاسعة من الأبسطة الخضراء، حيث ترتفع أشجار الزان العملاقة التي تبدو وكأن نهاياتها متشابكة مع أهداب السماء بجانب أشجار القضبان والحور والبلوط وأشجار الفواكه والأزهار المختلفة. بعد عبورهم نهر اللابا على جسر خشبي قديم

بدأت السهول تتخذ شكل مروج خضراء واسعة مفتوحة مشيرة إلى اقترابهم من أودية الشابسوغ والبزادوغ التي ظهرت واضحة أمامهم عندما وصلوا عند حافة مرتفع يطل على القرية البزادوغية من علٍ، ويفصله عنها حرش صغير. ترك «عزمات» ظهر فرسته، ووقف يتأمل مظاهر الحياة الممتدة أمامه في الحقول المزروعة وأعمدة الدخان المتصاعدة من مداخن البيوت الصغيرة المتناثرة، فأحس بشيء من الانشراح يصيب صدره، ويفتح رئتيه أمام ما بدا كبداية جديدة حقًا! التفت عندما أحس بيد «ديسا» تربت على كتفه، وهي تتأمل السهل الواسع مثله بقسمات يملؤها الاستبشار، قبل أن تنظر في عينيه مبتسمةً، ولاندهاشها بادلها «عزمات» الابتسام، وربت على يدها الموضوعة على كتفه قبل أن يطلب منها العودة إلى ركوب العربة، فأطاعته وقلبها يكاد يجنُّ من الفرحة بعدما ظهرت أخيرًا بعض من علامات الحياة في عيني زوجها! هبطوا المنحدر في تمهل، واجتازوا الحرش الصغير الذي حجب عنهم رؤية السهل لبعض الوقت، قبل أن يخرجوا إليه مرة أخرى ليتفاجئوا بأن سكان القرية كانوا قد لاحظوا وجودهم فوق التل، فبعثوا بمجموعة من الخيالة لتكون في استقبال الزوار عند أطراف الحرش قبل حدود القرية كما تقتضي الخابزة. لم يخف على «عزمات» أن الفرسان المستقبلين كان ينتابهم بعض

التوجس، سرعان ما انقشع عندما وجدوهم أسرة صغيرة مسالمة من الأديغة مثلهم، كما تهللت أساريرهم فرحًا عندما عددت «ديسا» أسماء أخوالها وأقارب أمها الذين كانوا يُعدون من «ورق» القرية أو طبقة الحكام الفعليين في الدوائر المختلفة داخل المجتمعات الشركسية، ويعلوها طبقتان: طبقة «البشي» التي يخرج منها زعماء القبائل والأمراء الكبار، ثم طبقة «اللقوه لاش» وهي طبقة الأمراء الصغار وأتباعهم. كما يأتي بعدها طبقتان: طبقة «الفقول» وهي طبقة الأهالي، وعادة ما يكون معظمهم من الفلاحين، وأخيرا طبقة «البشتيل» وهم الخدم.

اصطحبهم الخيالة إلى قلب القرية القديم الذي تم بناؤه على شكل دائري كأفضل وسيلة للدفاع ضد هجمات الروس والقوزاق، ولكن مع استقرار الحال في ظل الهدوء الذي يشمل المنطقة منذ فترة طويلة تشجع السكان، وخرجوا خارج حدود الدائرة، وبنوا بيوتًا جديدة متناثرة حولها بشكل أكثر عشوائية في باقي السهل. حظيت الأسرة بكرم وحفاوة طيّبا خواطرهم المنكسرة، وأعادا إليهم بعضًا من الراحة والثقة، حيث مُنِح «عزمات» حقلًا صغيرًا ليقوم بزراعته مع خادم عُين تحت إمرته، كما ساعده بعض من الرجال في بناء بيت صغير على أطراف هذا الحقل. كان البيت كبيوت الورق

النموذجية من الحجر والطين مسقوفًا بالخشب والقش، وبه غرفة كبيرة ذات موقد تحترق به الأخشاب، ويتصاعد دخانها من مدفأة مفتوحة في السقف، وبجانبها غرفة صغيرة للجلوس أو لنوم الرجال، بالإضافة إلى جناح لـ«ديسا» يزورها فيه «عزمات» كلما أحب، وجناح للأطفال، وجناح صغير منفصل للخادم. أمام البيت حديقة صغيرة تطل عليها شرفة ملحقة بغرفة الجلوس ويفصلها سور صغير عن بقية الحقل، بينما وقف خلف البيت مهجع صغير من أغصان الشجيرات والقش لتبيت به الفرسة والفرس الآن، وباقي الحيوانات في المستقبل.

هدأت الحياة وانتظمت بشكل مريح، وانشغل «عزمات» بزراعة حقله الصغير مع خادمه البشوش، أو الالتحاق بمجالس الرجال من وقت لآخر، وكانت «ديسا» تساعده في بعض الأحيان في حرث الأرض إن لم تكن منشغلة بالمنزل والأطفال وطهو الطعام والحياكة أو زيارة أقاربها والتعرف عليهم والانخراط مع النساء والفتيات اللاتي احتضنَّها هي و«كوللا» و«حمزات» الصغير بحب شديد. تلوَّنت الحياة بلون وردي رائق، وانسحبت الأيام الماضية إلى نقطة بعيدة في الذاكرة لا يعود إليها «عزمات» أو «ديسا» إلا قليلًا ونسيتها «كوللا» تمامًا في غمار حياتها الجديدة المفعمة باللعب

والاكتشافات المبهرة، بينما كان «حمزات» يحيا حياته بين أقارب والدته كأنه لم يعرف حياة أخري قبلها، فوعيه لم يبدأ في التشكل الحقيقي إلا بين سهول البزادوغ الفاتنة. ولكن لم يكن «حمزات» هو الوحيد في الأسرة الصغيرة الذي لم يفتح عينيه إلا على تلك الحياة الجديدة دون غيرها. فبعد وصولهم بعام واحد وضعت «ديسا» في البيت الجديد ابنتها الثالثة والأخيرة. «نورسان».

٣

بعد تسع سنوات - ١٨٦٧

عندما استيقظت في صباح هذا اليوم لم تستطع أن تسترجع وعيها سريعًا.. أزاحت الغطاء المصنوع من فرو الخراف لتفسح المجال أمام عينيها النصف مغمضتين.. التفتت بتلقائية نحو فراش أختها الكبيرة لتجده فارغًا، ولكن ما لبثت عيناها أن اندفعتا نحو الركن الأبعد، حيث التمع شعر «كوللا» الأسود الناعم مسترسلًا فوق ظهرها، بينما طالعها في المرآة المثبتة أمامها على الحائط الوجه الأبيض والعينان العسليتان المنهمكتان في تمشيط خصلة أمامية.

لاحت ابتسامة هادئة على شفتيها الصغيرتين بعدما ساعدها مشهد أختها على استعادة إدراكها كاملًا! فاليوم ليس يومًا عاديًا.. بالنسبة للجميع كان اليوم مميزًا؛ لأن القرية كلها ستجتمع للاحتفال بعودة أحد كبار أمرائها من الحج، أما بالنسبة لـ«كوللا»، فقد كانت تستقبل اليوم بقلب وجل يحدوه(14) الأمل في أمر طالما انتظرته، ولا يعلمه أحد في البيت سوى أختها الصغيرة «نورسان»!

انتبهت على صوت أمها تناديهما من الخارج، فأسرعت تنهض من فراشها؛ لتلبي النداء، وتعوض غياب أختها؛ فقد كانت مدركةً تماما أن «كوللا» لن تتخلى عن زينتها اليوم حتى وإن كان ذلك من أجل مساعدة أمهما.

كانت المصاريع الخشبية لنافذة الغرفة الكبيرة مفتوحة، وقد بدا من خلالها البستان الأخضر الممتد حتى أطرافه المتلامسة مع سفح تل صغير مكسو بحشائش تلمع بندى الصباح فبدا وكأنه منظر من حكاية أسطورية، وليس مجرد حقل يتعيشون من حصاده. وعلى الرغم من موجات البرودة المتدفقة من الخارج، إلا أن البيت كان يغمره الدفء المنبعث من الموقد المشتعل، والذي جلست «ديسا» بجانبه منهمكة في تحضير الإفطار، وقد بدا خلفها عبر الطاقة المربعة

«حمزات» ممتطيًا فرسًا أبيض يتبختر في تمهل مقصود، كأنه يعلم أن راكبه لا يعرف إلا القليل عن فنون الفروسية التي يتقنها صاحبه الأصلي.. «عزمات» هذا الذي كان يقف أمامه ملقيًا تعليماته في صرامة واعتداد لم يؤثر فيهما شيبه أو عرجته التي تتضاءل حتى تكاد تختفي تحت موجات شخصيته الطاغية، خاصة عندما يتقمص دور المعلم. كان الحزن قد عاد لينهش روحه؛ بسبب الأخبار السيئة المتواترة عليهم من كل أنحاء القوقاز بدايةً من هزيمة الشيخ «شامل» واستسلامه، والفظائع التي يرتكبها الروس والقوزاق مع القرى المقاومة ونهاية بما يفعله «العثمانلي» والروس في الشرق؛ ليدفعوا بالأديغة هناك إلى الفرار بحجة الحفاظ على الدين، إلا أن كل تلك الاضطرابات كان لها جانب لا بأس به، حيث إنه حال دون اتباع التقليد الشركسي الذي يقضي بإرسال الصبية؛ لتمضية بضع سنوات بعيدًا عن العائلة بين الشعاب الصخرية، وفي قلب الأحراش بمفردهم مع «الأتالق» أو المعلم والراعي والأب المتبني الذي يوفر للصبي الصغير تدريبًا صارمًا في الفروسية والصيد والقتال، بالإضافة إلى الإرشاد الروحي الذي يدفعه للتأمل في حكمة الحياة وعظمة من يدبرها، ولاستكشاف تلك الأغوار السحيقة(15) داخل نفسه، والتي تقوده في النهاية إلى بناء قوته الداخلية، وإدراك مدى ارتباطها بالطبيعة المتشابكة مع جذوره حتى

إذا بلغ الرابعة أو الخامسة عشر أصبح أقرب ما يكون إلى رجل ناضج مستقل وفارس متمرس ومقاتل لا ينفذ الخوف إلى قلبه وتهابه ميادين القتال.

هذا التقليد المتبع منذ سنوات طويلة لم يكن من الممكن الاستغناء عنه تمامًا، لذا لم يكن أمام «عزمات» أي خيار سوى أن ينصب نفسه «أتالقًا» لـ«حمزات» ذو الاثني عشر عامًا، وهو أمر ساعد على إلهائه عما يحيط به من هموم، وأعاد إلى روحه بعضًا من الانتعاش فلا شيء يمكن أن يسعده أكثر من إدراكه أن لا الشيب ولا العرج قادرين على محو فنون القتال والصيد والفروسية من عقله وقلبه، حتى وإن توقف عن ممارستهم، واكتفى بأن يكون معلمًا يحمل أسرارهم إلى رجله الصغير «حمزات».

ألقت «نورسان» نظرة خاطفة عليهما في الخارج قبل أن تسرع بإحضار الـ«أنة» أو الطاولة المستديرة المنخفضة المرتكزة على ثلاثة أرجل صغيرة، فوضعتها في منتصف الغرفة، وانهمكت في تحويل الإبريق الكبير الممتلئ بالحليب المملح والفناجين الخشبية الكبيرة، بالإضافة إلى مقلاة كبيرة ممتلئة بقطع الخبز الحار والجبن، وما أن انتهت حتى حضر باقي أفراد الأسرة، وجلسوا على الأرض حول الطاولة

يتناولون إفطارهم في هدوء. مضت تمضغ الطعام بينما عيناها تختلسان النظرات نحو أبيها.. هذا الوجه الصارم الذي يضفي على جلستهم جدية لا تتناسب مع موقف بسيط مثل تناول الإفطار في الصباح! كانت تعرف جيدًا العادات التي تمنع الآباء من الإغراق في الشاعرية ولكن هذا الوجه المتجهم، وهذا الصدر العريض يخفيان خلفهما أشياء كثيرة لم تعشها معهم ولا تعلم عنها شيئًا! حتى أختها وأخوها لا يعرفان عنها الكثير! وحدها أمها هي من تعرف وتفهم، فلا يمكن لامرأة أن تظل سنوات طويلة تستقبل كل هذه الجدية، وكل هذا التجهم من رجلها بنفس القدر من الحب والاحتواء، إلا إذا كانت تمتلك تفهُّمًا عميقًا لكل الصراعات والخيبات التي تتناحر بداخله حتى أنهكته، فأسرع يُظهِر عكس ما يُضمِر ليخفي ضعفًا تملَّك من قلبه الذي ما عرف يومًا شيئًا سوى القوة والكبرياء. انصرفت عن التفكير في أبيها، وتحولت نظراتها المختلسة نحو «كوللا».. إنها تعرف كل شيء عن هذا الذي يدور بداخل أختها.. بالطبع هي لم تتحدث معها في الأمر؛ فهي تعتبرها صغيرة جدًا، ولا يمكن لذات الثمان سنوات أن تفهم ما يدور في قلب ذات الثمانية عشر عامًا! ولكن «نورسان» كانت تفهم وتشعر بأختها.. تراقبها وتختلس السمع إلى أحاديثها مع باقي الفتيات الكبيرات، فيزداد يقينها فيما لاحظته وفهمته! كما أن

الاستعدادات التي بدأتها «كوللا» منذ أيام من أجل هذا الاحتفال لا يمكن أن تخفى عليها، كما لا يخفى عليها الآن التوتر الذي ينتابها وهي تحاول التظاهر بالطبيعية أثناء تناول طعام الإفطار، بينما قلبها يرجف بداخلها.

ما أن انتهى الإفطار حتى أسرعت الفتاتان لترتديا ما يليق بالاحتفال. ارتدت نورسان ثوبًا طفوليًا بسيطًا لونه أبيض ومزموم حول خصرها الصغير بحزام ذهبي يتناسب مع شعرها الأصفر الذي اكتفت بعقده في ضفيرة واحدة مسترسلة خلف ظهرها، فبدت كأنها فتاة بزادوغية مثالية، وكأن أجنة «ديسا» تتجاوب مع البشر المحيطين بأمهم أثناء فترة الحمل، فبينما خرجت «كوللا» وبعدها «حمزات» بشعور سوداء وعيون عسلية كأهل القرية القبارديّة التي وُلِدا فيها، خرجت «نورسان» بشعر أصفر شاحب وعينين زرقاوين تمامًا مثل أهل أمها الذين وُلِدت في كنفهم. مع «كوللا» لم يكن الأمر بهذه البساطة، فتلك الأنثى الناضجة كانت التقاليد تفرض عليها أن ترتدي ما يناسب الاحتفال، ويُظهر جمالها دون الإخلال بالاحتشام المناسب للدين وللعادات. لذا ارتدت «كوللا» ثوبًا شركسيًا مثاليًا من المخمل الأزرق المشغول بنقوش من خيوط ذهبية على منطقة الصدر ممتدةً نزولًا في المنتصف حتى أطرافه عند قدميها، ويفصلهن عند الخصر

حزام من نفس اللون الذهبي، بالإضافة إلى النقوش المتداخلة على أكمام الثوب؛ كُمَّان يغطيان الذراعين حتى الرسغين، وكُمَّان آخران ينسدلان من عند الكوعين فيصبحان أكثر وضوحًا وانفصالًا عن الكُمين العاديين إذا ضمت يدها أمامها أو رفعتهما بجانبها أو للأعلى. فوق رأسها وضعت قبعة أسطوانية صغيرة من نفس اللون، ومنقوشة بنفس النقوش الذهبية، وقد ثُبت في منتصفها خمار طويل من الحرير الأزرق يغطي شعرها الذي تعمدت أن تُظهر بعضًا من خصلاته الناعمة؛ فهي تعلم أن وسط كل تلك الشقراوات دائمًا ما يكون لشعرها الأسود وعينيها العسليتين المزنرتين بالكحل سحرًا خاصًا.

عندما وصلوا عند ساحة القرية كان الناس قد انتهوا من استقبال ركب «الحجي مراد» ومرافقيه، فسيقت الخيول إلى مهاجعها، وأدخلت الصناديق والأمتعة إلى البيت، حيث بقيت النساء تنهين تحضير الوليمة الكبيرة، واستقرت الفتيات فوق أبسطة مفروشة تحت مظلة كبيرة في جانب الساحة التي استقر الإمام أو الحاكم في صدرها مع الشيوخ من الأمراء والرجال الكبار في شادر كبير مفروش بالحواشي المريحة. أسرعت «ديسا» بالانضمام إلى النساء في الداخل، بينما جلست «كوللا»، وبجانبها «نورسان» مع الفتيات تحت

المظلة الكبيرة، وتقدم «عزمات» وبصحبته «حمزات»؛ لينضموا إلى الرجال في الشادر الكبير قريبًا من «الحجي مراد» الذي بدا متميزًا جدًا في ملابسه العربية البيضاء التي أحضرها معه من الأراضي المقدسة، بينما كان كل الشيوخ والرجال بجانبه يرتدون الزي الشركسي التقليدي: «التشيركيسكا» وهي سترة طويلة تُضَم وتُحكم حول الجسد بحزام جلدي يُغمد به السيف والقاما، عند منطقة الصدر على الناحيتين يمتد صفان من جيوب أسطوانية صغيرة ملتصقة ببعضها البعض، وفي بعض الأحيان يقمن النساء بتزيين التشيركيسكا عند الأكمام والحواشي بالتطاريز والمنمنمات الزاهية. تحتها يرتدي الرجال الـ«بيشميت» أو القمصان الطويلة والسراويل الواسعة، وفوقها أحذية ذات أعناق طويلة من الجلد الناعم. أما فوق الرؤوس فهو مكان الـ«باباخ» أو القبعة الأسطوانية القصيرة المصنوعة من جلد الحمل أو الصوف.

كان «الحجي مراد» يجلس في المنتصف قريبًا من الإمام في عباءة عربية بيضاء زاهية، وقد لفَّ جسده وملامحه المبتسمة هالة من الراحة تشع اطمئنانًا في قلوب كل من ينظر إليه. على يمينه استقر ابنه الصغير «أحمد» ذو الأربعة عشر عامًا.. فتى تبدو على ملامحه رجولة ناشئة تصارع

بزغب أسود خفيف فوق شفته العليا، وبجانب فوديه(16) لتطغى على ما تبقى من مرحلة الطفولة، وقد حاول هو بدوره إبراز تلك الرجولة بجلسته المستقيمة وملامحه المتجهمة. استقر «عزمات» بجانب «الحجي مراد» و«أحمد»، وبجانبه جلس «حمزات» يتلقى التحيات، ويترك لأبيه مهمة الرد عليها، والتي ما أن انتهت حتى عاد الرجال إلى حديثهم السابق حول الاجتماع الكبير الذي انعقد منذ أيام لقادة قبائل وعشائر أديغة غرب القوقاز، والذي لم ينتهِ نهايةً مبشرةً، حيث بدت أي محاولة للتفاهم مع المسكوفيين(17) غير مثمرة، خاصة بعدما ازدادت قوتهم في المنطقة بعد هزيمة «شامل»، وإخضاع بعض المناطق في الشرق، وتحرك قواتهم الكبيرة بحُرِّية عند منطقة الكوبان، كما بدت دعوات الحرب الشاملة غير مطمئنة، بعد الخلافات التي ظهرت جلية في المناقشات الحادة أثناء ساعات الاجتماعات الطويلة، والتي تبدو أي دعوة للاتحاد الشامل بعدها شيئًا لا يمكن تصديقه أو الارتكان إليه بسهولة. أثناء ذلك، كان «عزمات» يتحامل على نفسه حتى يستطيع متابعة الاستماع إليهم دون الانسحاب ضاربًا بآداب اللياقة عرض الحائط، ليس فقط لكونه رجل حرب لا يفهم ولا يحب تلك المسماة بالسياسة، ولكن أيضًا لأن هذا الحديث يثير بداخله حزنًا تستنزف محاولات السيطرة عليه جُلَّ طاقة روحه التي بلغت ذروة

الشيخوخة منذ خبر هزيمة الإمام «شامل».

لم ينقذه سوى صوت البوق مُعلنًا بدء عروض الفروسية التي يقدمها شباب القرية فوق خيولهم في الأرض الواسعة قريبًا من الساحة، والتي مُهِّدت خصيصًا لهذا الغرض. كانت الأفراس البيضاء والسوداء والبنية التي تم استيلادها في مزارع القرية صلبة التكوين ونافرة العضلات من كثرة التدريب، ومتحفزة للعرض الذي أدركت بفطرتها النقية مدي أهميته. فوقها استقر فرسان القرية في صلابة واعتداد.. تبرز صدورهم العريضة من تحت قمصانهم البيضاء والسوداء ويبرق في عيونهم التحدي والإقدام. توالت العروض المبهرة، حيث كان كل فارس يقدم أقصى ما يستطيعه من القفز بالحصان والإتيان بالحركات الخطرة من فوقه في ذروات الانطلاق كالوقوف فوق السرج أو التشبث به بيديه، بينما يؤرجح جسده بالكامل على الجانبين بانتظام، والكثير من الحركات الأخرى التي أجادها الفرسان بدقة أثارت الفخر في نفوس الشيوخ، واللهفة في عيون النساء، وخطفت قلوب الفتيات اللاتي تعلقت عيونهن بالأجساد الفتية، وافترَّت ثغورهن عن ابتسامات حالمة.

لم يكن الانبهار الذي انتاب «نورسان» أثناء متابعة العروض

ليصرفها عن التركيز مع «كوللا» التي كانت تفرك يديها الباردتين طوال الوقت، وكلما ظهر فارس جديد تشعر بقلبها يسقط في أحشائها، قبل أن تدرك أن ما تتطلع إليه لم يظهر بعدُ، فتهدأ أنفاسها المضطربة، وإن ظل التوتر مسيطرًا عليها حتى كاد يفتك بها. فجأة هلل الجميع إعلانًا بما انتابهم من سعادة عندما أدركوا أن الابن الأكبر لـ«الحجي مراد» هو من سيختم العرض. أخذت «نورسان» تنقل عينيها في توتر بين الساحة و«كوللا» التي قفز قلبها قفزة أوجعت صدرها، وانسحبت الدماء من أطرافها، وهي ترقب الفرس الأسود يدخل الساحة في خيلاء، تحت إمرة فارسه ذي الجسد العريض المتناسق تحت القميص والسروال الأسودين. ملامحه الحادة تميزها أنف مستقيم وعينان زرقاوان تمتلآن بالثقة والإصرار، ويتوجهم شعر بني فاتح يميل إلى الصفرة، وقد ثبت قدميه في المكانين المخصصين لهما تحت السرج، وأحكم قبضتيه القويتين حول اللجام. أحست «نورسان» أن «كوللا» تكاد تفقد السيطرة على صدرها الذي أخذ يعلو ويهبط بسرعة، وقد بدت مشتتة بين الفرحة الراقصة في عينيها والتوتر المنتشر في أوصالها، فساعات الانتظار والتوقع الطويلة لم تستطع أن تمنع لحظة ظهور «إينال» من مباغتة قلبها.

لاحظت «نورسان» الهمس الذي بدأ يسري بين الفتيات ونظراتهن الخبيثة، بينما لم تكن «كوللا» تعي شيئًا مما حولها، بعدما عادت الدماء المنسحبة لتندفع بشدة وتلون وجنتيها بوهج أحمر خفيف، وهي ترقب حركاته الرشيقة الواثقة فوق السرج، وهو يقوم بتقديم عرض فاق في إبهاره كل العروض السابقة، وقلبها يقفز بدقات متدافعة كلما أتى بحركة خطيرة أو متميزة.

«بارك الله لك فيه يا حجي مراد»، قالها «عزمات» مبتسمًا في إعجاب حقيقي بمهارات «إينال» فابتسم «الحجي مراد» ابتسامة وديعة، وهو يجيبه في امتنان ومودة: «وبارك الله لك في «حمزات».. نعم الأب ونعم الابن».. ابتسم «عزمات» ابتسامة خفيفة، محاولًا إخفاء الفرحة العارمة التي تطغى على قلبه كلما ذكر أحدهم مدى الشبه بينه وبين ابنه. فلا شيء يشغله الآن قدر اهتمامه بأن يصبح «حمزات» امتدادًا له في الفروسية والقتال.

انتهى العرض، ومُدت الأسمطة(18) الممتلئة بأطباق الطعام الشركسي الشهي: لحم خروف بالبهارات والتوابل، وعجينة باستا الذرة المغموسة في المرق، ومعجنات الأرز الغارقة في الصلصات، والمعجنات المحشوة باللحم والجبن

والبندق والجوز والفواكه المجففة، وسلطانيات ممتلئة بلبن الزبادي المخلوط بالبهارات، بالإضافة إلى الأطعمة المحلاة بالعسل. جلست النساء في ناحية، بينما جلس الرجال في الناحية الأخرى يقيمون الأنخاب الطويلة المسماة بـ«الخواخوة» قبل أن يتجرعوا كميات سخية من الباخسما أو الخمرة الشركسية الوطنية، موضوعة في كؤوس زجاجية تم تثبيتها داخل قوالب فضية جميلة.

بعد الطعام، أحضر أحدهم آلة أوكورديون قديمة، وبدأ يعزف عليها الأنغام الشركسية المتتابعة في سرعة محببة، اجتمع على إثرها الفتيان والفتيات في المنتصف مشكلين حلبة رقص شركسية لا يخلو منها أي احتفال بهيج! كان الفتيان قد عادوا ليرتدوا زيهم كاملًا من التشيركيسكا والباباخ والأحذية الطويلة، بعد انتهاء عروض الخيل، وعندما وقفوا في صف بجانب بعضهم البعض أسروا ألباب الفتيات الواقفات في الصف المواجه لهم استعدادًا للرقص! تصاعدت الموسيقى ومعها الخطوات.. دون أن يتلامسا أخذ الصفان يدوران حول بعضهما في خفة.. الفتيان يلفون في سرعة، بينما تتحرك أذرعهم في رشاقة جيئة وذهابًا بجانب صدورهم المفتولة في صلابة، والفتيات ترفعن أياديهن النحيلة، وتحركنها حولهن في رقة، بينما تدور معهن أكمامهن

المتدلية بجانب الكوع مشكّلةً حولهن موجات من أثير خاص يجذب الفتيان أكثر إلى مداراتهن، فيبدو وكأن الرقص سيستمر إلى ما لا نهاية!

لم تقم «كوللا» من مكانها، ولم تشترك في الرقص! طوال فترة تناولهم للطعام لم يلتفت «إينال» نحوها ولو بنظرة واحدة، واختفى تمامًا طوال فترة الرقص هادمًا كل الأحلام والآمال التي قضت هي ليالي طويلة تبني فيها فوق أعمدة مربوطة أحجارها بشرايين قلبها المتعلق به بشدة! ظلت «نورسان» جالسةً بجانبها تتابع الرقص بنصف تركيز، بينما النصف الآخر متعلق بأختها التي أخفضت عينيها الممتلئتين بخذلان قاتل، ودموع تكتمها بصعوبة شديدة. ببطء توقف الرقص، وإن لم تتوقف الموسيقى.. تراجع الراقصون والراقصات ليشكلوا دائرة حول حلبة فارغة، ذهلت «نورسان» عندما رأت من خلالها على الناحية الأخرى من الدائرة «إينال»! كيف ومتى ظهر؟ وأين كان طوال الفترة الماضية؟! لم تجد الوقت لتفكر وقد تسارعت دقات قلبها وهي تراه يرمق «كوللا» مبتسمًا نصف ابتسامة واثقة، وعيناه تقولان إنه أخيرًا سيقوم بتنفيذ ما يئستا منه! لما طال انتظاره لترفع «كوللا» رأسها دون فائدة أسرعت «نورسان» توكزها في ذراعها.. رفعت «كوللا» عينيها في

تراخٍ، ولكن سرعان ما انجذب نظرها نحوه، فاتسعت حدقتاها في ذهول، وقد هربت الدماء من وجهها، وابيضَّت بشرتها بشكل ملحوظ!

تقدم «إينال»، ووقف في منتصف الحلبة ثم أومأ لها، وانتظر أن تتبع التقاليد، فتومئ له وتنهض متقدمةً نحوه في احتشام؛ لتلبي دعوته في الرقص معها بمفردهما. ولكن أي من هذا لم يحدث، فقد ظلت «كوللا» متسمرة في جلستها، وعيناها مشدوهتان نحوه في عدم استيعاب لكل هذا الذي يدور حولها! ولما طال الانتظار، وبدأت الضحكات الخافتة تسري بين الجالسين والواقفين في الحلبة اتسعت ابتسامة «إينال»، وتقدم مجتازًا باقي الحلبة في خطوات واثقة حتى وقف مباشرة أمام «كوللا» و«نورسان» اللتين اشرأبتا بعنقيهما، وهما تحملقان نحو الأعلى في عدم تصديق! انحنى «إينال» وأمسك بيدي «كوللا» باسطًا ساعديه جاعلًا منهما مسندين لمعصميها، ثم رفعها حتى وقفت منتصبةً قبالته، ويداها الرقيقتان مختبئتان داخل كفيه وعيناها المشدوهتان مثبتتان بداخل عينيه الممتلئتين بجراءة مربكة، وهو يجذبها عائدًا بها بخفة نحو منتصف الحلبة، في سابقة لم تحدث في أي من المجتمعات الأديغية من قبل!

تعالت التهليلات، وعادت أنغام الأوكورديون لترتفع وتتسارع مرة أخرى بعدما ابتعد «إينال» عن «كوللا» بالقدر المناسب، وبدأ يحرك قدميه في سرعة، ويدور حولها محركًا ذراعيه في رشاقة، وقد اتسعت ابتسامته بعدما تخلى قليلًا عن الاعتداد الذي يحيط نفسه به دائمًا. عادت الدماء لتندفع مرة أخرى في شرايينها، وتضرجت وجنتاها بلون أحمر شديد، وتعالى وجيب قلبها، وقد بدأ عقلها يدرك كل هذا الذي يحدث، ويفوق قدرتها على الاستيعاب والتصديق! انتبهت إلى العيون المتطلعة نحوها منتظرةً منها أن تتجاوب مع «إينال» في رقصته، وأدركت أنها يجب أن تتحرك، وإلا سيزداد الحرج وهي لا ينقصها خجل فوق الخجل المسيطر على كل قطعة فيها الآن!

من جلستها التي ظلت عليها تابعت «نورسان» بابتسامة مبهورة أختها وقد بدأت أخيرًا تستيقظ من تجمدها، وتتحرك في خطوات مترددة نحو الأمام والخلف، وأطراف ثوبها الأزرق المطرز بالخيوط الذهبية يحف في خفة حول قدميها، ويدور معها ومع وشاحها الحريري الأزرق النازل من رأسها، ومع كميها المتدليين بجانب ذراعيها المرفوعين تحرك بهما أناملها نحو الأعلى والأسفل، وقد تسارعت خطواتها وحركاتها، واتسعت ابتسامتها، وأخذ صدرها يعلو ويهبط،

وهي تحاول إبعاد عينيها عن عيني «إينال» الذي حاصرها بنظراته وجسده وحركاته الرشيقة دون أن يحتاج لأن يلمسها أو يقترب منها أكثر من اللازم! أحست «نورسان» أن هناك موجات من البهجة تشع منهما وتطغى على كل ما ومن حولهما حتى تصل إليها، فتحتل قلبها وتصيبه برعشة غير مفهومة، وإن حفرت فيه ومضات ستظل تضيء بداخلها طويلًا!

في مجلسهما البعيد نسبيًا عن الحلبة.. مدَّ «الحجي مراد» يده مجتازًا «أحمد» الثابت في مجلسه المتجهم بما يفوق عمره الصغير، وربت مبتسمًا على فخذ «عزمات» الذي التفت نحوه وقد اتسعت ابتسامته بطريقة أدهشت «حمزات» الذي لم ير أبيه سعيدًا هكذا من قبل! تبادل الشيخان نظرات وابتسامات ذات معنى، مانحين مباركتهما لما بدا واضحًا جدًا ومفهومًا لهما وللجميع؛ فدعوة الشاب لفتاة لترقص معه رقصة «القافا» بمفردهما أمام الكبار هي الطريقة الشركسية المثلى ليعلن لأسرتها وللجميع اختياره لها لتكون عروسه!

٤

لم يكن ذلك بعد يوم الاحتفال بكثير.. مجرد عدة أيام تم

خلالها الاتفاق على إجراءات الخطوبة بين الأسرتين، ولم يكن هناك ما يمنع إينال من أن يخطو الخطوة التالية، ويقوم بزيارة «البسالوخ» الأولى التي يُظهِر فيها لعروسه احتراماته وإعجابه، ويتفقان على حياتهما المشتركة معًا. في هذا الصباح خرجت «نورسان» بصحبة «كوللا» وباقي الفتيات نحو المرتفعات العامرة بأشجار الفواكه لتقمن بجمع الثمرات الناضجة، وسط كثير من الضحكات والأحاديث اللاهية التي انقطعت فجأة قبل أن تأخذن الفتيات في الابتعاد عنهما في خفة أدهشت «نورسان»، ولكن سرعان ما زال اندهاشها عندما نظرت نحو «كوللا» التي تسمَّرت في مكانها محاولةً السيطرة على الرجفة التي اعترتها، بينما تضرجت وجنتاها بالدماء، وشخص بصرها نحو الأفق، حيث ظهرت كوكبة من فرسان القرية تقترب في سرعة فوق خيولها، وعلى رأسهم «إينال» الذي ما أن توقف حتى توقفوا كلهم على مسافة مناسبة، قبل أن يهبط تاركًا فرسه الأسود معهم؛ ليقترب منها في خطواته الواثقة حتى توقف أمام «كوللا» مباشرة! ابتسم ابتسامة خفيفة ومدَّ يده نحوها.. أخفضت عينيها بسرعة في خجل، فانزلق الوشاح الأبيض الذي كانت تغطي به رأسها.. أسرعت تعيده فوق شعرها قبل أن تمد يدها المرتبكة، وتضعها في يده؛ ليجذبها بخفة نحو صخرة قريبة، حيث جلسا تحت أشعة الشمس الرائقة، وبدآ همساتهما الأولى!

جلست «نورسان» بالقرب منهما؛ فالتقاليد تقضي بأن تكون مع الفتاة مرافقة أثناء تلك الزيارة. لم تكن قريبةً بالقدر الكافي لتسمع ما يقولانه، لكنها استطاعت أن تتابع عن كثب أشعة الشمس المنعكسة داخل عيني «كوللا» العسليتين المنخفضتين في خفر، وعلى أطراف شعرها الأسود اللامع، وبشرتها البيضاء المتوهجة باحمرار خفيف و«إينال» يجلس قريبًا منها هكذا، وعيناه معلقتان بشفتيها الورديتين الهامستين في حياء. بعد فترة، أصابها شيء من الملل، فمضت تتابع جوقة الفتيات المتظاهرات بالتشاغل في جني الثمار، بينما عيونهن تختلس النظرات نحو الجلسة الحميمة أو نحو مجموعة الفرسان المنتظرين بعيدًا. انتبهت «نورسان»؛ لوجودهم، فالتفتت تتطلع نحوهم في فضول. لماذا تركوا كلهم جيادهم، ووقفوا يتبادلون الأحاديث والضحكات بأريحية شديدة، ويختلسون النظرات نحو الفتيات، ووحده ظل «أحمد» فوق ظهر فرسه صامتًا بنفس الملامح المتجهمة؟! ليس مجرد تجهُّم.. إنه ضيق يشوبه شيء من السخط، كأنه غير مصدق أن «إينال» المثل الأعلى في الفروسية والقتال والشجاعة تخلى عن تحجُّره، ولان هكذا من أجل فتاة! غير مصدِّق أنه نزل من عليائه، وحضر بنفسه ليجلس جلسة كتلك، وكل أمله متعلق بأن ترفع هي

عينيها وتنظر في عينيه!

لم يطل اكتراثها طويلًا، ونسيت الأمر برمته خلال الأيام التالية حيث انشغلت مع باقي النساء والفتيات في التحضيرات للعُرس الذي تقرر إقامته بعد أسابيع قليلة من يوم زيارة «البسالوخ».

في هذا اليوم، وعلى الرغم من سوء الأحوال التي منعت مهنئي القرى المجاورة من الحضور كما تملي العادات، إلا أن الزفاف مضى كأقرب ما يمكن إلى زفاف شركسي تقليدي، حيث انتقلت الصناديق المحملة بالأقمشة والشراشف والسجاجيد ودثارات(19) الأطفال المُنتَظَرين إلى البيت الجديد الذي بناه «إينال» بالقرب من بيت أسرته؛ حتى لا يبتعد كثيرًا عن أبيه «الحجي مراد» وأخيه «أحمد» اللذين سيعيشان بمفردهما بعد زواج «إينال»، خاصة وأن الأم كانت قد رحلت منذ سنوات.

انشغل الشباب بإقامة عروض فروسية خفيفة على أطراف الساحة التي امتلأت بالشيوخ والنساء المنهمكات في تحضير الأطعمة السخية في سعادة، والفتيات اللاتي ارتدين أثوابًا من التخريم(20) الأبيض يبدو من تحتها بريق الفساتين

الحريرية ذات الألوان الزاهية، كل فستان في نفس لون الخمار المنسدل من القبعة المطرزة بخيوط ذهبية وفضية براقة، فتبدين وكأنهن باقة صغيرة من الورود، عندما يتحركن معًا في كل اتجاه وخلفهن الأطفال وبينهن «نورسان» ترتدي نفس ما يرتدينه، حيث صنعت لها «ديسا» تخريمًا أبيض صغيرًا وفستانًا من الحرير الأزرق المتناسب مع لون عينيها، بينما تركت شعرها الذهبي منسدلًا خلف ظهرها، وقد زينت مقدمته بطوق من الورود البيضاء الصغيرة.

عندما ظهرت «كوللا» كان الأبيض يغطيها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، فقد كانت هي الوحيدة التي ترتدي فستانًا من الحرير الأبيض تحت التخريم الأبيض، بينما انسدل وشاحًا لامعًا من نفس اللون من قبعة مطرزة بعملات فضية صغيرة تصدر هسهسات مبهجة كلما أحنت عينيها في خجل أو رفعتهما والفرحة ترقص في وضوح بداخلهما! ما أن أطلت محاطة بهالتها التي خطفت كل العيون، حتى ارتفعت الموسيقى خلف صوت فتاة أخذت تنشد «نحن قادمون بالعروس، نحن نحضر العروس إليك»، بينما كانت «كوللا» تتحرك في موكب الفتيات والنساء نحو أسرة «إينال» المنتظِرة في ساحة القرية.

لا يمكن أن تنسى «نورسان» أبدًا هذا اليوم! لا يمكن أن تنسى كيف تدفقت الباخسمة، وكيف امتلأ جانبا الساحة بالأطعمة اللذيذة، بينما تحول منتصفها إلى ساحة رقص واحتفال، وكيف عمَّت البهجة الصادقة أنحاء القرية كلها، واحتلت الوجوه الشابة المنهمكة في الرقص والوجوه المتغضنة(21) المراقبة لهم في سعادة وأمل ندر الشعور به في ظل الظروف الحالية، والتي على الرغم من سوداويتها إلا أن بصيصًا ضعيفًا من النور كان لا يزال يداعب النفوس التي مهما بلغ بها اليأس والخوف والتشاؤم لم تكن أبدًا لتتوقع ما سيحدث في نفس تلك الساحة بعد ثلاثة أشهر من انتقال «كوللا» إلى بيتها الجديد.

٥

لن تعرف «نورسان» أبدًا كيف بدأ الأمر! لا تذكر حتى ماذا فعلت في هذا اليوم منذ أن استيقظت، وحتى حدث ما حدث! كل ما تذكره هو تلك اللحظة التي شعرت فيها بالأرض تهتز تحت قدميها قبل أن تجد نفسها فجأة مع باقي أهل القرية كلهم مجتمعين في الساحة المحاطة بأعداد مثيرة للرعب من خيول وفرسان القوزاق على رأسهم قلة من

الروس!

الجنرال الروسي الذي يقود الحملة رجل ضخم ذو وجه أحمر منتفخ وعينين تحملان قسوةً وتكبرًا مطلقين! هبط عن سرج حصانه، وتقدَّم وسط العيون المحدقة به نحو منتصف الساحة في سترته ذات الأكمام السوداء والصديرية الحمراء، يزين جانبيها صفان من أزرار ذات لون ذهبي كلون الخيوط التي تزين الأساور تلمع كلها تحت ضوء الشمس التي بدت في تلك اللحظة وكأنها متواطئة مع الإمبراطورية الروسية بأكملها، ضد تلك البقعة الشركسية البائسة. توقَّف في المنتصف تمامًا أمام أمير القرية الذي استطاع أن يحافظ على هدوئه وثباته أمام مصير أفضل ما يمكن أن يقدِّمه له ولشعبه سيكون أكثر سوادًا من الأرض التي يقف عليها!

حديث خافت اختفى على إثره الجنرال الروسي مع باقي الكبراء داخل منزل الأمير، في جلسة مرَّت دقائقها ثقيلة كأنك تسمع صوت خطواتها وهي تدهس أعصابهم المضطربة! الأخبار المتواترة بكثافة عما يحدث في القرى القريبة حوّل الأيام الماضية إلى سلسلة من الكوابيس عما يمكن أن يحدث للقرية وأهلها. هؤلاء الروس ومرتزقوهم من القوزاق يتبعون سياسة ثابتة من التدمير والترويع في كل

القرى الشركسية؛ ليبيدوا سكانها أو يجبرونهم على الرحيل! يدمرون البيوت، ويحرقون الحقول، ويسرقون الماشية، ويمحون أي شيء يمكن أن يساعد على البقاء واستمرار الحياة! تتراوح مصاير القرى بين إبادة تامة لكل السكان أو لبعضهم أو إجبارهم على الرحيل، واستقدام سكان جدد لتلك المناطق! أسر كاملة من القوزاق وروسيا السلافية وفلاحون أوكرانيون والكثير من القوميات المسيحية المنتمية بشكل أو بآخر لروسيا يتم استيطانهم في نفس البيوت والقرى لتُزفَّ بعد ذلك الأنباء السعيدة إلى القصر الإمبراطوري بأن المنطقة بأسرها قد خضعت ودانت بالولاء المطلق للقيصر أرضًا وشعبًا وهويةً! تصل إليهم في القرية تلك الأخبار مغلفة بقصص مأساوية تثير الرعب، ويصبح انتظار الغد وما قد يأتي به أمرًا لا يطاق! وها قد أتى الغد برياح محملة برائحة شقاء محتم مهما اختلف شكله!

خرج الجنرال الروسي وعلى وجهه ابتسامة منتصرة، بينما خرج الباقون خلفه بوجوه مظلمة تحاول التظاهر بالتماسك خاصة عندما تقدم منهم مجموعة من شباب القرية الممتلئين بثورة ورغبة عارمة واستعداد تام للصمود والقتال مهما كانت النتائج! كان «إينال» هو من بدأ الحديث مع الأمير.. بدا غاضبًا ثائرًا، ولكن لم يستطع أيٌّ من أهل القرية سماع ما

يحمله حديثهما، حيث كانوا جميعهم يقفون بعيدًا عنهم. في تلك اللحظة، أحست «نورسان» بشيء خفي يدفعها لأن تترك موقفها بجانب أسرتها أمام منزلهم، وتتسلل بهدوء قريبًا من موقف الأمراء والمقاتلين؛ لتستمع إلى ما يقولونه! لا يمكن أن تنسى أبدًا هذا الحديث الذي كان آخر ما قيل على أرضهم قبل أن تبدأ مأساة الرحيل والتشتت!

كان «إينال» يصرخ غاضبًا في وجه الأمير الذي كان يتلقى ثورته بتفهُّم وهدوء، بينما يتابعهما «الحجي مراد» موزعًا بين حرجه من طريقة ابنه، وإشفاقه عليه وعلى القرية كلها من المصير الذي تقرر لهم:

- ماذا تقول يا تحمادا؟! نستسلم ثم نرحل؟! كيف صدّقت المسكوفيين وآمنت غدرهم؟! ألم تسمع عن بعض القرى التي ما أن استسلمت حتى قُتل كل أهلها؟!

- بلى سمعت عن بعض تلك القرى، وسمعت أيضًا عن كل القرى التي ما أن حاولت المقاومة حتى أبيدت عن بكرة أبيها.

- نقاوم ونموت بشرف أفضل من أن نترك أرضنا في ذل! لا

أصدق كيف اخترتم الإذعان والرحيل؟!

- لم نختر شيئًا! فُرض علينا كما فُرض على كل الأديغة! اسمع يا «إينال».. أنت لا تقف في مثل موقفي.. خلف ظهرك هناك عشرات من الشيوخ والنساء والأطفال ينتظرون أن أقرر لهم مصيرهم.. الموت حتى وإن كان بشرف فهو موت.. قرار كبير لا أستطيع أن آخذه بالنيابة عن أحد.. كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أتخذ لهم قرارًا بفرصة أخرى للحياة، حتى وإن كانت ذليلة.. أنا أستطيع أن أتحمَّل امرأة تأتيني شاكية شظف العيش وهي تحمل ابنها، ولكنني لا أستطيع أن أتحمل أن تأتيني نفس المرأة لتشكو لي ثكلًا أنا قررته لها دون أن تختاره هي! قُضي الأمر وسنرحل.

- نعم سنرحل، ولكن ليس جميعنا.

التفت الجميع نحو «عزمات» الذي كان قد هتف بتلك الجملة في هدوء وثبات لا يناسبانه في مواجهة كل ما يحدث! تساءل «إينال» في حيرة:

- ماذا تقصد يا تحمادا «عزمات»؟!

- هكذا جرى الاتفاق بالداخل يا «إينال».. يرحل الكل ويبقى عشرة رجال من أصحاب الحقول؛ لرعايتها.

- هكذا إذًا؟! يغتصبون أرضنا، ثم يستعبدوننا؛ لنزرع لهم، وللمغتصبين الجدد تلك الأرض! ويرحل الباقون قسرًا إلى ما يزعمون أنها أرض السلطان العثمانلي! ألم تكن هذه أيضًا أرضه وتخلى عنها وعنّا؟! ومن يضمن لنا أن تظل الأرض التي نحن ذاهبون إليها أرض السلطان، وأننا لن نواجه هذا المصير مرة أخرى؟!

- «إينال»!!

هتف بها «الحجي مراد» في حزم، فالتفت إليه «إينال»، وتمالك نفسه على مضض؛ ليستمع إليه في صمت واحترام:

- كفي يا «إينال»! تفاوضنا واتفقنا مع الجنرال، وانتهى الأمر! تأكد أننا أخذنا منهم أكثر ما يمكن أخذه، وليس علينا الآن سوى تنفيذ ما يأمرنا به أميرنا.. فليذهب كلٌّ منكم إلى أسرته، ويطلب منهم أن يجمعوا ما هو ضروري، فنحن لا نملك الكثير من الوقت.

لم يستطع أحد أن يعقّب على ما قاله «الحجي مراد» الذي طغى بهيبته ومكانته على كل شيء حتى الأمير الذي بدا في تلك اللحظة غير قادر على السيطرة على «إينال»، والثورة التي يقودها في رعونة قد تتسبب في ما لا يحمد عقباه!

ركضت «نورسان» عائدةً نحو المنزل؛ لتصل قبل «عزمات» الذي بدا متماسكًا وهادئًا بشكل مريب لا يتناسب مع تاريخ حنقه على القوزاق والروس! أخبر الجميع بالقرار النهائي، وطلب منهم جمع الضروريات فقط؛ استعدادًا للرحيل! أسرعت «كوللا» نحو منزلها؛ لتنفذ ما أُمِرَت به، وعيناها تتابعان «إينال» في قلق من ثورته المكتومة، وما قد يفعله في لحظة تهور، بينما انكفأت «ديسا» على فتح الصناديق وتفريغها من كل محتوياتها بمساعدة «نورسان»، تعبث بها وتقلبها في حيرة دون أن يكون لديها أدنى فكرة عن كيف يمكن أن تقرر ما هو ضروري وما هو ليس كذلك! كل ما هو في البيت ضروري.. كل قطعة في البيت تمثل جزءًا من حياتها! هل يمكن أن يقسموا الحياة إلى أجزاء، ثم يطلبوا منك فجأة أن تختار ما هو ضروري لتأخذه وتترك الأجزاء الأخرى؛ لتستكمل ما تبقى من الرحلة ببضع حياة؟!

بينما هي في حيرتها التفتت نحو «عزمات» الذي أدنى

«حمزات» منه، وأسند يديه الكبيرتين فوق كتفي ابنه النحيلتين في حميمية فاجأت «حمزات»، وتركته يتابع في قلق وارتياب ملامح أبيه وشفتيه وهو يتحدث في بطء وهدوء:

- اسمعني جيدًا يا «حمزات»! سترحلون جميعكم إلى أرض السلطان العثمانلي، بينما سأبقى أنا هنا؛ لأفعل الشيء الوحيد الذي أجيده.

انكمشت «نورسان» في ذعر وهي ترى أمها تشهق بعنف، وتقترب منه هاتفةً في فزع والدموع تنزلق من عينيها:

- ماذا تقول يا «عزمات»؟! ستتركنا نرحل وحدنا، وتبقى أنت هنا؟!

لم يلتفت «عزمات» نحو «ديسا».. كانت حواسه كلها موجهة نحو «حمزات».. طاقة استجمعها من جسده كله؛ ليقذفها في حِجْر ابنه فقط، ولا استعداد لديه لأن يضيعها مع أي شخص آخر!

- نعم سأبقى.. في الظاهر لأنفذ الاتفاق وأراعي الحقل من

أجل المسكوفيين ومرتزقيهم وسكانهم الجدد، ولكن في الحقيقة سأبقى لأقاتل حتى أموت فوق أرض لن تسعني غيرها!

صمت لحظة مستجمعًا قوته، ثم نظر مليًا في عيني «حمزات» الذي احمرّت وجنتاه من فرط الدماء التي كانت دقات قلبه العنيفة تدفعها نحو رأسه، وهو يرى ويسمع أباه لأول مرة في تلك الحالة، وصوت بكاء «ديسا» يملأ خلفية أذنيه!

- «حمزات» يا بني! لقد حرصت دائمًا على تعليمك فنون الفروسية والقتال.. أردتك أن تكون مثلي.. فارسًا ومحاربًا قوقازيًا لا مثيل له! كنت أظن طوال عمري أن ساحة البطولة الوحيدة هي ساحة المعركة مع الجيوش وضد الأعداء.. لطالما اعتبرت المثل الشركسي الذي كانت دائمًا تردده أمي بأن «البطل هو أول من يتحمل الأعباء» دربًا من التخاذل أو الهروب! ولكنني اكتشفت الآن أنه أنا من ظل طوال عمره هاربًا! حتى بقائي هنا ما هو إلا نوع من الهروب! قد يأتي عليك يوم تكرهني فيه يا «حمزات»، وتكره حديثي هذا، لكنني لا أكترث! فقد مضى وقت التغيير! أصبح هذا هو الشيء الوحيد الذي أجيده، وإن أتيت معكم ربما أصبح عبئًا

آخر يضاف على كاهلك! من الآن فصاعدًا ستصبح وحدك مع أمك وأختيك أمام مصير لا يقوى ضعفي على تخيله! كن بطلًا أمامه يا «حمزات»! كن البطل الذي لم أستطع أن أكنه! كن بطلًا ليس في ساحة القتال مع الجيوش وفي مواجهة الأعداء، ولكن كما قالت جدتك: بطلًا في الحياة مع أهلك، وفي مواجهة مسئولياتك!

في تلك اللحظة انهارت «ديسا» جالسة بجانب الحائط وهي تجهش في بكاء حاد! أنزل «عزمات» يديه من على كتفي «حمزات»، وتقدم في خطى متثاقلة بعرجته وضعفه الذي تركه يطفو على وجهه وفي عينيه لأول مرة منذ سنوات، قبل أن يلقي بجسده الضخم جالسًا بجانبها محتويًا إياها بين ذراعيه وهو يربت على كتفها في رفق، محاولًا كبت دموعه التي تعانده بضراوة!

كأنها لوحة مرسومة أمام عينيها تتابعها بذهول وعدم تصديق! لا يمكن أن يكون ما يحدث هذا حقيقيًا! هل حقًا سيرحلون ويتركون حقلهم وبيتهم وقريتهم؟! هل حقًا ستتخلى عن كل تلك التفاصيل الصغيرة التي تزين غرفتها، وتمتلئ بها صناديقها؟! هل حقًا سيتركهم أبوها يواجهون هذا المصير بمفردهم؟! يواجهون انكسارهم بمفردهم؟! لماذا؟

لأنه لا يقوى على ذلك! وأمها.. «ديسا».. هل يظن أن هذا الوداع الحميمي يمكن أن يعطيها القوة الكافية لتواجه ما هي مقدمة عليه من دونه؟! حتى في أعتى لحظات ضعفه وانكساره كانت محتمية خلفه ومتعلقة به! كيف يتركها هكذا معلقة في الهواء من دونه؟! ولكن يبدو أن الأمر حقيقي، وأن كل من حولها بدأوا يتعاملون معه حتى ولو على مضض، ولكنهم قادرون على التعامل بخلافها هي التي ظلت متسمرة مكانها تراقب أباها وهو يحاول تهدئة أمها، و«حمزات» وقد بدا وجهه قد كبر عشرين عامًا في لحظة واحدة! يحمل الأشياء ويضعها في صمت وحزم فوق العربة الخشبية المنتظرة بالخارج.. لا ينبس ببنت شفة، ولا يكترث لأي شخص، ولا ينظر لأي شيء سوى ما يفعله بقوة لا تعرف كيف استطاعت كلمات «عزمات» أن تمده بها! ستظل دائمًا عاجزة عن فهم كيف استطاع هذا الحديث أن يتحول إلى مصل نفذ من أنسجة «حمزات»، واستقر في عظامه، فصلّبها وأمدها بكل تلك القوة التي سيظل طوال عمره يتحمل بها كل شيء دون أن يمس ذلك قلبه الذي سيبقي حنونًا عليهن وعلى آخرين سيبعثهم الله إليه ليأخذهم تحت جناحه بشكل أو بآخر!

بدا المشهد في الساحة الخارجية باعثًا على الوحشة

ومقبضًا للقلب! العربات موزعة بشكل عشوائي، وقد تكوم فوقها القليل من الأغراض والأقل من الطعام والمياه.. الرجال سواء الباقون أو الراحلون يتحركون في توتر، محاولين التشاغل بالعمل عما وقر في قلوبهم من قهر، بينما جلست النساء فوق العربات تنتحبن في هدوء بجانب أطفالهن المنكمشين في ذعر! ما يكفي من الخيول لجرِّ العربات والقليل جدًا من المواشي التي يمكن أن تكون مصدرًا للألبان واللحوم، بينما ستبقى الخيول الأصيلة والمواشي الأخرى في انتظار السكان الجدد! مأساة متجسدة في الساحة التي تحيط بها دائرة من فرسان القوزاق والروس يتابعونها بعيون باردة ومتعالية!

وكأن الرحيل بمفرده لم يكن كافيًا ليأتي ما هو أعتى وأشد، حتى تذوق تلك القرية من كل ما كُتب على شعب الأديغة، وتضحي الفاجعة مكتملة الأركان!

كان الكل منشغلًا عندما اقترب فلاح مرتجف مع زوجته الحامل من جندي قوزاقي يرجوه في قلة حيلة أن يسمحوا لهما بالبقاء؛ لأن زوجته لن تتحمل مسير خمسة أيام حتى شاطئ البحر الأسود وهي في آخر شهور الحمل. «إذًا فلتتخفف من حملها!» هكذا أجاب الجندي القوزاقي في

استهزاء، وهو يستل سيفه ليحدث كل شيء في ثوانٍ! يبقر الجندي بطن المرأة المنتفخة، فتصرخ وقد انفجرت الدماء، وسالت مختلطة بأحشائها وأمعائها والجنين المتدليين منها وهي تتلوى من الألم، فيحاول زوجها الدفاع عنها عندما يطعنه الجندي بنفس السيف في بطنه، ليسقط بجانبها جثةً هامدةً في اللحظة التي ينطلق فيها «إينال» نحوهم؛ ليدافع عنهما أو لينتقم لهما، فيستقر خنجر جندي آخر في رقبته، فينتفخ وجهه وتجحظ عيناه وهو يسقط على الأرض ميتًا غارقًا في الدماء السائلة بغزارة، لتختلط بدماء المرأة وزوجها والتراب تحت جثث ثلاثتهم!

تعالت الصرخات وارتفعت بنادق القوزاق مستنفرة من كل اتجاه في وجوه الجميع، منذرةً بكارثة إن أتي أيٌّ منهم بحركة ضئيلة! أحست «نورسان» بسروالها يبتل تحت ثوبها، وبكل أوصالها ترتجف، وهي تري أمامها هذا المشهد المروع! ثلاث جثث يرقدن في بحيرة من الدماء.. أشياء غريبة مقززة تخرج من بطن تلك المرأة.. «إينال» الذي كان يلاعبها ويمزح معها بحب خلال الثلاثة أشهر الماضية تحول جسده إلى شيء أبيض باهت بعدما تدفقت منه كميات هائلة من هذا السائل الأحمر الذي أصبح يصبغ كل شيء تنظر إليه بعينيها الزائغتين! من بعيد يأتيها صوت «كوللا»، وهي تصرخ

بجنون باسم «إينال»، محاولةً التخلص من يدي «عزمات» الذي ألهمه الله أن يمسكها بقوة حتى لا تقترب فيصيبها ما أصاب زوجها، تمامًا كما فعل «الحجي مراد»، وكأن الله أرسل إليه إلهامًا مماثلًا أعمى قلبه وعينيه عما حدث لـ«إينال»؛ حتى لا يلتفت إلا للإمساك بـ«أحمد» بقوة؛ ليمنعه من أن ينطلق نحو أخيه، فيفقده هو الآخر!

في خطوات سريعة غاضبة تقدم الأمير من الجنرال الروسي وهو يهتف في حنق: «لم نتفق على هذا يا سيادة الجنرال! وعدتنا بأنه لن تراق قطرة دماء واحدة!». نظر نحوه الجنرال بعينين جامدتين وهو يهتف في برود قاسٍ وعنجهية:

- وأنت أيضًا وعدت أن أحدهم لن يحاول البقاء سوى من اخترنا نحن بقاءهم! وأرى أنكم قد أخذتم ما يكفي من الوقت، ولنرحل الآن!

- ماذا؟! تريدنا أن نرحل قبل أن ندفن موتانا؟!

اتسعت ابتسامة الجنرال الروسي وهو يهتف في تشفٍّ:

- لا تقلق أيها الأمير.. سنتولى نحن دفنهم.. فلا يمكن أبدًا أن يكون أول ما يراه السكان الجدد هو منظر دمائكم المنفر!

اعتدل الأمير في وقفته، ورفع رأسه وهو يقول في ثبات وثقة متحديًا الجنرال وقوته وشماتته الوضيعة:

- لن تستطيع أن تمحو دماءنا من تراب هذه الأرض يا سيادة الجنرال! إذا لم يرد سكانك الجدد أن يموتوا من الجوع، فعليهم أن يأكلوا طوال عمرهم طعامًا مرويًا بدمائنا المنفرة التي ستختلط بدمائهم ودماء أبنائهم؛ لتبقينا جزءًا من هذا المكان رغم أنف الجميع!

ذُهِل الجنرال من جرأة الأمير الذي التفت عائدًا ليأمر شعبه بالتحرك فورًا؛ تفاديًا لمزيد من الدماء، ومحاولًا بكل ما تبقى لديه من إرادة أن يتجاوز ما يعتبره الأديغة أفدح ما يمكن أن يلحق بهم من عار ألا وهو ألا يتلقى موتاهم مراسم الدفن اللائقة.

حمل «عزمات» «كوللا» بالعنوة، ووضعها فوق العربة بجانب «ديسا» التي تكومت في إعياء، ملتصقةً بالأمتعة قبل أن يحمل «نورسان» هي الأخرى، ويضعها بجانبهما دون أن

يكترث لملابسها المبللة وأوصالها المرتجفة، وهي تراقب «كوللا» المنهمكة في صك(22) وجهها، وتشعيث شعرها، مصدرةً صراخًا وعويلًا باسم «إينال» تتقطع له الأفئدة، بينما وقف «حمزات» بجانب الفرسة التي تجرُّ العربة، متجاهلًا ما يحدث خلفه؛ فالحفاظ على حياتهن الآن أهم لديه من بكائهن وخوفهن! خلفهم وقف «أحمد» ممسكًا بلجام فرسه الذي يحمل أمتعتهما في جمود مخيف، بينما وقف «الحجي مراد» ملتصقًا به وقد بدا على أهبة الاستعداد للتصدي لأي فعل أهوج يمكن أن يأتي به «أحمد» في أية لحظة!

تحركت الصفوف محاصرةً بفرسان القوزاق المكلفين باقتيادهم حتى شواطئ البحر الأسود.. تاركين خلفهم كل شيء.. الدار والسكن.. الأرض والسماء.. كل ما مضى من ذكريات وأفراح وأحزان.. حتى الأموات والأحياء.. انتزعوا منهم كل شيء، وانتزعوا أرواحهم من كل شيء! يمر الكل في طريق الخروج بجانب الوحيدين الذين أنقذهم الله من ذلِّ المصير القادم، وعلى الرغم من ذلك كان منظر جثثهم المتروكة في العراء غارقةً في دمائها وأحشاء المرأة المتدلية بجانب جنينها مهينًا ومقبضًا ومؤلمًا لهم، وهم يمرون بجانبهم كأنهم يمرون بجانب حيوانات نافقة!

تلتفت «نورسان» لتلقي نظرة أخيرة.. يتقلص قلبها وهي تجد كل حياتها الماضية تبتعد عنها.. تميز لأول مرة دموع أبيها المنهمرة بغزارة على وجنتيه، فيتقلص قلبها مرة أخرى عندما تدرك أنه ميت لا محالة.. لماذا استسلم سريعًا لقرار البقاء؟ لماذا لم يحاول الرحيل معهم؟ ليموتَ هنا؟ ما الفائدة من أن يتركهم ويموت هنا؟ هي لا تفهم! هم أكثر احتياجًا له من أي شخص أو شيء آخر! أمها غلبها الإعياء فجأة.. تكومت فوق العربة ممسكةً برأسها ومغمضة عينيها، وقد تخلت عنها كل قواها كأن هذا الحضن الذي حاول «عزمات» أن يحتويها به قد أصابها بالشيخوخة بدلًا من أن يطمئنها! «حمزات» يسير في جمود لا يحاول الالتفات أو حتى إلقاء نظرة واحدة عليهن! و«كوللا».. القريبة دائمًا.. ليست كذلك الآن! إنها لا تلتفت نحو «نورسان»، ولا تكترث لملابسها المبتلة! أتعبها العويل، فتركت وجهها مظلمًا وشعرها مشعثًا كما هما، واستغرقت في نحيب خافت فصلها عن كل ما حولها حتى عن «نورسان» التي ظلت ما تبقّى حتى هبوط الظلام تراقبها بقلب متخبط بين احتياجها لها وإشفاقها عليها!

لا تعلم متى غفت، لكنها استيقظت فزعةً مع أول خيوط شمس اليوم التالي.. تلفتت حولها لتستعيد إدراكها.. لم تشعر

أثناء الليل بـ«الحجي مراد»، وهو يصعد ليجلس بجانبهم من فرط الإعياء! يبدو أنهم لم يتوقفوا عن المسير طوال الليل، ولكن كيف هذا؟! إن استطاع «الحجي مراد» أن يجد مكانًا ليستريح فوقه فهناك شيوخ وعجائز كثيرون لا يوجد لديهم حتى ما يتكئون عليه! كيف يسيرون منذ البارحة دون أن يتركوهم ليستريحوا ولو قليلًا؟ هل يريدون التخلص منهم بتلك السرعة، حتى إنهم لا يطيقون ساعة واحدة من الراحة، أم إنهم يخططون لقتل نصف السائرين قبل الوصول؛ ليتخففوا من هؤلاء الذين لا فائدة تُرتجى منهم؟!

أصاب قلبها شيء من الراحة عندما وجدت «كوللا» قد توقفت عن البكاء، ولكن عادت الخيبة تحتلها عندما أدركت أنها أصبحت أكثر ابتعادًا عنها، وقد تمددت محملقةً في السماء بعينين لامعتين مخيفتين، وبنفس الهيئة المزرية! أخذت «نورسان» تراقبها في قلة حيلة! أين أنتِ يا «كوللا»؟ ومتى ستعودين كما كنتِ؟ إنها أصغر من أن تدرك كل شيء، لكنها تشعر وتفهم عمق الفاجعة التي تعرضت لها أختها! هي أول وأكثر من عرف كيف كانت «كوللا» تعشق «إينال»، وبعد زواجهما اكتشفت أيضًا كم كان هو متيمًا بها، وبكل تفاصيلها الصغيرة! كم هو مدمرًا إذًا بعد كل هذا الحب أن يقتلوه أمام عينيها بتلك الوحشية بعد ثلاثة أشهر فقط من اليوم الذي

جمعهما الله فيه! بعد أن ظنت أن الحلم قد تحقق كم هو عاتٍ أن يباغتوها وينتزعوا منها رجلها قبل أن يرتوي ظمأها إليه! إنها تشعر بها جيدًا، ولكنها أيضا تشعر وكأن تيهًا عظيمًا قد تملك منها! أشياء كثيرة لا تفهمها.. أشياء كثيرة أكبر منها.. ولا تجد أحدًا حولها لينتشلها من هذا الظلام الذي تشعر به يحيطها ويعتصرها بعنف! لا أحد يساعدها لتفهم كل هذا الذي يحدث أو حتى يطمئنها! في خضمِّ احتياجها هذا وجدت عينيها تتعلقان بمن تعودت دائمًا أنها الأقرب لها، لكنها وجدتها ضائعة في عالم آخر! تيه آخر يغيبها ولا يسع «نورسان» سوى أن تنتظرها لتعود منه!

انتبه الجميع فجأة عندما امتلأ الهواء برائحة حريق خانقة، وبدت أمامهم من بعيد أعمدة من دخان أسود كثيف لم يميزوا كنهه، حتى أصبحوا أمامه مباشرة. اتسعت الأحداق في ذعر عندما أدرك الجميع أنهم أمام قرية شركسية مبادة! القرية التي تقع على مسافة مسير يوم واحد من قريتهم أصبحت كومًا من الحطام والجثث! البيوت متفحمة والنار لا تزال مشتعلة ببعض جوانبها، وقد اختلط في كل مكان القش والخشب المحترق بالجثث نصف المتفحمة أو تلك التي بُقِرت بطونها أو طارت أطرافها أو انفصلت رؤوسها عن أجسامها، حتى الحيوانات صغيرة الحجم كالدجاج دهستها

سنابك الخيول، فاختلط ريشها بلحمها وعظامها نصف المنغرزة في الأرض! رائحة الموت تُحلِّق فوق كل شيء، وتطبق على الأرواح! أصابهم الذهول بشلل تام لم يفيقوا منه إلا على صوت بكاء الْتَوَت نحوه الأعناق بدهشة فاقت دهشتهم مما رأوه! حدقت «نورسان» مع الباقين كلهم مأخوذة من شكل «الحجي مراد» وهو يبكي بحرقة! هذا الشيخ الطاعن في السن والهيبة يبكي في قهر بكاء لم يبكه عندما خرج من داره وقريته! إنه حتى لم يذرف دمعة واحدة عندما قتلوا ابنه الكبير بوحشية أمام عينيه! ولكن يبدو أننا لا ندرك عمق مأساتنا إلا عندما نراها متجسدة في غيرنا.. حينها فقط ندرك مدى الظلم الذي أصابنا عندما نرى الصورة الكاملة للمعاناة واضحة أمام أعيننا في حياة غريب عنا! لكن لم يكن هذا فقط ما يُبكي «الحجي مراد»، بل كان أيضًا يَبكي أمة كانت من أشجع وأنبل الأمم وأكثرها استقامة وتحضرًا لم تهزمها المؤامرات الخارجية قدر ما هزمتها الغيرة والمنافسة والاختلاف فيما بينهم، حتى غلب الانقسام الشجاعة وغلبهم الذل والقهر قبل أن يغلبهم الغرباء! سرت العدوى في الكل، فبكت النساء ومعهن الأطفال، وبينما بكى بعض الرجال قهرًا تماسك البعض الآخر، خاصةً من هم في مرحلة الرجولة المبكرة الذين وجدوا أنفسهم فجأة يتحملون مسؤوليات ينهار أصحابها الأصليون واحدًا تلو الآخر! بدت

القافلة وكأنها مسيرة حزينة في موكب جنائزي بعدما أتى منظر القرية المحترقة على ما تبقى بداخلهم من روح، بينما استمر فرسان القوزاق في إحكام الحصار حولهم، دافعين إياهم لاستكمال المسير في جمود وبرود كأن شيئًا لم يكن أو حتى كأنهم مسرورون؛ لأنهم بذلك عرفوا ما ينتظرهم من مصير مظلم إن حاولوا مخالفة الأوامر أو التلكُّؤ عن الوصول سريعًا إلى حيث سيتخلصون منهم!

استمر المسير خمسة أيام وخمس ليالٍ تتخللهم سويعات راحة ضئيلة جدًا! الحزن مسيطر والإرهاق فوق حد الاحتمال ومستبد بالجميع.. القليل من الخبز الجاف والمياه هما الغذاء الرئيسي للحفاظ على الحد الأدنى من الحياة.. من يسقط يُترك ولا يُسمح لأحد بالتوقف لمعرفة ما جرى له! الشيوخ والعجائز الذين لم يمدهم حظهم بعربة أو ظهر ليركبوا عليه سقط أغلبهم ميتًا ومتروكًا وسط الطريق دون أن يُدفنوا أو حتى يتم التأكد من أن ما أصابهم كان الموت وليس الإغماء فقط! يتعالى بكاء الأطفال من الحرارة في النهار والبرودة في الليل، ومن الجوع ومشقة السير المتواصل! «نورسان» تراقب كل ذلك من فوق عربتها التي لم يتغير حالها مع تعاقب شروق الشمس وغروبها.. «ديسا» ترقد في إعياء بجانب «الحجي مراد» الذي بدت معاناة الفقد

والهزيمة واضحة على ملامحه المتغضنة وشعره الأشيب.. «حمزات» في الأمام و«أحمد» في الخلف محافظان على ثباتهما.. و«كوللا» كما هي! غارقة في صمتها المميت وتحديقها التائه نحو السماء، كأنها لا تشعر بأي شيء مما يدور حولها! يحجبها الظلام، فتنتظر «نورسان» انقشاعه على أمل أن يكون قد تغير بها شيء خلاله لتشرق بعد ذلك شمس مخيبة للآمال.. كاشفة عن «كوللا»، ولم يصبها أي تغيير!

عندما يئست «نورسان» من أن يحدث أي شيء جديد، وظنَّت أن هذا الوضع أبديٌّ لن ينتهي حتى يتساقط الجميع ميتًا على جانبي الطريق، لاح في الأفق ما يبشِّر بقرب نهاية المأساة التي تجري على أرض الوطن، وينذر بالمآسي القادمة التي ستأخذ موضعها واحدة تلو الأخرى فوق أراضٍ غريبة موحشة، ووسط أمواج هذا الذي لم تستطع «نورسان» رغم كل شيء أن تخفي انبهارها، وهي تراه لأول مرة: البحر الأسود.

٦

ميناء أنابا (روسيا حاليًا) – الساحل الشرقي للبحر الأسود

يقولون إن الوضع هنا أفضل من ميناء سوتشي[23] حيث تُرِك مئات من الشراكسة حتى ماتوا على الرمال من الجوع والشمس والمرض وتصاعدت رائحة العفونة من جثثهم نصف المتحجرة! ولكن من يدري لعل نفس المصير ينتظرهم هنا! فميناء أنابا ليس إلا مرفأ ضحلًا جلس أمامه على الرمال مئات من الشراكسة المهجرين قسرًا من كل أنحاء القوقاز الغربي في هيئات بائسة وملابس متسخة ممزقة، وشعور مشعثة، وخسارة كبيرة في أرواح فقدوها قبل الرحيل أو أثناءه! اختلط البشر بالأمتعة البائسة والحيوانات التي لم تنفق في الطريق، وتصاعدت رائحة الروث[24] والعفونة مختلطة برائحة المأساة الإنسانية التي ستبدو واضحة جلية لأي شخص يقف فوق أي مرتفع قريب ليرى بعينيه مشهدًا يُهان فيه الإنسان، وتُقهر الجوارح والقلوب في غلظة عصية على التصديق!

تنتشر الأخبار بينهم كالريح عن هؤلاء الذين رحلوا قبلهم وماتوا في البحر، أو هؤلاء الذين لم يأخذوهم إلى إستانبول كما وعدوهم، ولكن ألقوا بهم في موانئ أخرى مجهولة، حيث مات الكثيرون من جراء أوبئة كالجدري والتيفوس! كان هذا الخبر الأخير هو أكثر ما أصاب «حمزات» بالذعر،

فقد كان مدركًا تمامًا أن «ديسا» و«الحجي مراد» هما الأكثر عرضة للموت بعدما رأى بعينيه معظم من هم في أعمارهم وهم يلقون حتفهم من أتفه الأسباب، فما بالك بأوبئة كتلك التي يتحدثون عنها! أسرع «حمزات» يضعهما وبجانبهما «كوللا» المتجمدة كما هي في أحد الأركان، وجلس أمامهم، وبجانبه «أحمد» و«نورسان» كحائط صدّ بشري، باذلًا محاولات بائسة؛ لحمايتهم مما لن يقووا على مواجهته!

بدا «حمزات» متيقظًا وقادرًا على التصرف في سرعة، ومتوليًا زمام الأمور، أكثر من «أحمد» الذي يكبره بعامين، والذي كان يتحرك ويجلس في جمود بعينين وملامح لا تعكس أي ضعف أو انكسار أو أي إحساس آخر سوى سخط مختبئ خلف صمته المخيف، بينما كانت «نورسان» تقوم بتنفيذ ما يمليه عليها «حمزات» في استسلام تام.. هي غير قادرة على فهم أو إدراك أي شيء، فما بالك التصرف أو اتخاذ أية قرارات! لذا بدا السير بطاعة عمياء خلف ما يقوله «حمزات» أمرًا مريحًا وسهلًا، ولا يحتاج لكثير من التفكير! يكفي ما يبذله عقلها الصغير من مجهود، وهي تراقب كل هذا الذي يحدث حولها، ولا تجد اسمًا يمكن أن يصفه!

انتبه الجميع عندما لاحت في الأفق أربع سفن ضخام

تقترب في بطء مخيف، حتى رسون قريبًا من المرفأ كأنهن وحوش عملاقة تستعد لابتلاع فرائسهن اللاتي تراقبهن في ذعر! نهض رجل تبدو عليه آثار البؤس الشديد، وأخذ يركض بشكل عشوائي في كل اتجاه صارخًا في هلع: «جاءكم الموت أيها الأديغة! جاءكم الموت وهذه هي توابيتكم!»، ولكن سرعان ما قام جندي قوزاقي بالسيطرة على الموقف بأن أطلق نحوه رصاصة من بندقيته فأرداه قتيلًا، ولكن لم يكن ذلك قبل أن يسري القلق والتوتر بين الجمع الشركسي الذي فوجئ بالجنود يضيقون عليهم الحصار، وهم يضربون بكرابيجهم في الهواء صارخين فيهم بأمر هو أبعد ما يكون عن المنطق ألا وهو بأن يحملوا كل شيء، ويخوضوا المياه ليصلوا إلى السفن، ويركبوها بسرعة! سيطر الذهول على الجميع، ولكن بدا بالفعل أن هذه هي الطريقة الوحيدة للرحيل، وأن القاعدة التي ستسود هي أن من يصل إلى السفن أولًا يرحل أولًا وينجو!

بدأت الصفوف الأمامية في التقدم وخوض المياه الضحلة.. مئات من الرجال والنساء يحملون أطفالًا أو متاعًا أو يسندون شيوخًا وعجائز ويصارعون بهم المياه وبعضهم البعض، بينما أخذت الصفوف الخلفية ترقب المشهد في عدم تصديق، وقد تساقط بعضهم على الرمال يحملون منها

حفنات ويهيلونها فوق رؤوسهم، وقد بلغوا ذروة اليأس وهم يرون إهانتهم المقبلة أمام عيونهم!

أسرع «حمزات» يحمل «ديسا»، بينما حمل «أحمد» أباه بعدما ساعدا «كوللا» و«نورسان» على النهوض، ودفعاهما لخوض المياه أمامهما، حيث وجدت «نورسان» نفسها فجأة تخوض البحر، وقد وصلت المياه إلى نصف جسدها، وسط زحام من بشر ذوي هيئات بائسة، وقد استبدَّ بهم الهلع وهم يندفعون في سرعة جارِّين خلفهم أمتعتهم وحيواناتهم المذعورة، وعلى أكتافهم أطفالهم الباكون في خوف! يركض الناس في جنون، وقد تراجعت صفاتهم الإنسانية أمام غريزة البقاء والنجاة، فصار بعضهم يطأ من يسير أمامه إن تباطأ قليلًا؛ ليستكمل طريقه فوق رأسه الغاطسة في المياه، وجسده الذي يصارع تحتها في عنف!

وفي اللحظة التي حاولت فيها «نورسان» طمأنة نفسها بأن «كوللا» بالتأكيد سوف تفعل شيئًا لتنقذها وتحتويها، فوجئت بـ«حمزات» وهو يهتف نحوها أثناء تخبطه حاملًا «ديسا»: «نورسان.. اعتني بكوللا»! اتسعت حدقتاها في ذهول، وقد أحست كأنه قام بسكب دلو مملوء بالماء المثلجة فوق رأسها! التفتت نحو يسارها، لتجد «كوللا» قد خرجت من حالة

الجمود ودخلت في حالة هلع شديدة، وهي تصرخ في ذعر محاولةً في يأس تجنُّب كل الأجساد المقتربة منها، حتى كادت تُدهس تحت الأقدام مثل آخرين! أفاقت «نورسان» من ذهولها، وتحول الثلج إلى دماء فائرة تندفع في عروقها وهي تدفع «كوللا» من خصرها بعنف بين الأجساد الملتصقة بهما خلف «حمزات» و«أحمد»، والمياه ترتفع حتى بلغت ذقنها، وبدأت الأرض تبتعد عن قدميها! توقفت عن دفع «كوللا»، واكتفت بالإمساك بطرف ثوبها، وهي تضرب بيديها الموج بعنف، محاولةً التشبث بالحياة، بينما ظلت «كوللا» مأخوذة بهلعها لا تلتفت لـ«نورسان»، ولا تحاول مساعدتها، على الرغم من أن قدميها كانتا لا تزالان منغرستين في الأرض! ارتفع الموج وغمر رأس «نورسان» التي أغمضت عينيها وهي تشعر بالمياه تدخل فمها وأنفها، وقد باغتتها ملوحتها التي لم تكن فتاة في مثل عمرها ترى البحر لأول مرة لتتوقعها أبدًا! حاولت المقاومة، ولكن المياه والأجساد المتكالبة من كل ناحية كانت أقوى من قدراتها الواهنة! كادت أن تستسلم، وتفلت طرف ثوب «كوللا» من يدها عندما أحست فجأة بذراعين قويتين تضمانها وتلصقانها بـ«كوللا» قبل أن تحملهما وترفعهما نحو الأعلى، حيث وقف فوق إحدى السفن رجل قوي البنية يتسلم من الرجل الآخر بالأسفل ما يستطيع أن يرفعه له من أشخاص وأمتعة وحتى

حيوانات!

ألقى الرجل بهما فوق سطح السفينة، فأسرعت «نورسان» تبتعد زاحفةً وهي تسعل بعنف باصقة المياه المتجمعة في حلقها قبل أن يسقط فوقها آخرون ممن يرفعهم الرجل، ويلقيهم خلفه في عشوائية، ثم نهضت محاولةً الحفاظ على توازنها وهي تبحث بعينين مجنونتين عن «حمزات»، في الوقت الذي ظلت فيه «كوللا» جالسةً على الأرض وهي تصرخ في هلع، حتى التفتت نحوها «نورسان» صارخةً في عنف، محاولةً رفع صوتها فوق الضجة التي تحيط بها من كل ناحية: «كَفى! كُفِّي عن الصراخ!» توقفت «كوللا» وقد تملكها الرعب من صراخ «نورسان» وتعبيراتها الغاضبة، بينما التفتت «نورسان»؛ لتستكمل بحثها غير مبالية حتى وقعت عيناها على «حمزات» الذي أقبل نحوها مسرعًا، فجذبها هي و«كوللا» نحو أحد الأركان، حيث تكومت «ديسا» وبجانبها «الحجي مراد»، وظل «أحمد» واقفًا بجانبهما، وهو يراقب «حمزات» في توتر حتى عاد دافعًا أمامه «نورسان»، وحاملًا «كوللا» فوق كتفه، حتى أنزلها بجانب أمها! أسرعت «نورسان» تنكمش في ملابسها المبللة بجانب جدار السفينة التي بدت ملامحها واضحةً بقمرة قيادة صغيرة متمركزة في النصف الأمامي من باقي هيكلها ذي القعر المنبسط، حيث

تكوم حولها العشرات محشورين وملتصقين ببعضهم البعض وسط العفونة والمياه الآسنة وصراخ البحارة الأتراك يطير من فوق رؤوسهم وهم يرفعون المراسي وينشرون الأشرعة بادئين عملية الإبحار قبل أن يصعد الجميع على متن السفن التي تمسَّك بجوانبها المتبقون من تلك المأساة التي جرت في الدقائق الماضية! من استطاع التسلق بسرعة وصل إلى سطح السفينة ونجا، ومن لم يستطع سقط في البحر وغرق أمام عيني «نورسان» التي كانت ترقب كل ذلك من فوق الحافة!

انطلقت السفن تمخر العباب(25) مبتعدةً في سرعة عن اليابسة حتى اختفت تمامًا، ولم يعد هناك أي شيء سوى الامتداد الأزرق من كل ناحية؛ لتبدأ رحلة طويلة من عذاب مُذهِب للعقول من فظاعته! أيام كثيرة وهي محشورة وسط العشرات تحت نار الشمس الحارقة في النهار والبرد القارص في الليل.. أصبحت الرائحة المنبعثة من الناس ومن السفينة نفسها لا تطاق قبل أن تعتادها ويعتادها الجميع، منصرفين عنها نحو ما بدا أكثر عتوًا وضراوة، حيث بدأ الناس يتساقطون ميتين من الجوع والعطش والشمس والأمراض! كل يوم تنشب مشاجرات مع طاقم السفينة التركي الذي يرغمهم على إلقاء الجثث في البحر بسرعة قبل أن تنتشر

الأوبئة وتفتك بالجميع ما عدا هذا الرجل الذي استبد به الجنون، ودفعه لإلقاء نفسه من فوق السفينة ليغرق أمام عيون الجميع عندما استيقظ ذات يوم ليكتشف أن السفينة التي كانت تسير خلفهم وعلى متنها كل أفراد أسرته غرقت في الليل دون أن يشعروا بها، ولم يتبقَّ منها سوى بضعة ألواح خشبية يتلاعب بها الموج بعيدًا. ظلت «نورسان» ملتصقةً بجدار السفينة ومحتمية به.. لا تفعل شيئًا سوى مساعدة «حمزات» و«أحمد» في الاعتناء بـ«الحجي مراد» و«ديسا»، وقد بدا ضعفهما مخيفًا في مواجهة الظروف الشاقة، و«كوللا» التي عادت لتنكمش مرة أخرى محدقةً في صمت بعينين زائغتين في كل ما حولها كأنها لا ترى منه شيئًا! «حمزات» كما هو متيقظ ومسيطر على الموقف، و«أحمد» ينفذ ما يطلبه منه في جمود دون مناقشة، كأنه اتخذ قرارًا بأن يتوقف عن التفكير؛ حتى لا يستوعب ما يحدث حوله فيصاب بالجنون، أو يأتي بفعل أحمق يقضي عليه وعلى أبيه من بعده! وبطبيعة الحال لم يكن هناك مجال أو رغبة في تبادل أية أحاديث ما عدا القليل جدًا يكون فيه دائمًا «حمزات» طرفًا والطرف الآخر «أحمد» أو «نورسان» على حدة!

تمرُّ الأيام متشابهةً في عذابها، وطويلة طويلة كأن لا نهاية

لها! كسرات من الخبز الجاف هي كل طعامها الذي اعتادته، حتى كأنها نسيت كل الأطعمة الأخرى. لم يكن الطعام يمثل لها مشكلة كبرى! فبعد كل ما مرَّ بها أصبحت تشعر وكأن الأيام الماضية قد اعتصرت جسدها، وامتصته حتى لم يعد به مكان يمكن أن تخزن فيه أي طعام! مشكلتها الحقيقية كانت في المياه.. العطش.. هذا الجفاف الذي ينهش حلقها طوال الوقت، وأصبح لزامًا عليها أن تتحمله تحت الشمس الحارقة، وأن تحاول نسيانه في الليل لتستطيع أن تنام. أحيانًا كانت تحنق على «حمزات»؛ لأنه لا يسمح لكل واحد منهم بأكثر من رشفتين في اليوم، ولكنها كانت تعلم أنه مُصيب فيما يفعل.. المياه الحلوة قليلة جدًا، والطريق لا أحد يعلم كم سيطول، وهل سيكفيه ما تبقَّى معهم من المياه أم سيموتون بعد أن يصيبهم الهذيان؛ بسبب الظمأ الشديد!

إنها تكره هذا الشيء.. هذا البحر.. هذه الزرقة القاسية التي تحاصرها من كل ناحية كأنها تنكيها(26) وتؤكد لها مخاوفها بأن وجود أرض على الضفة الأخرى ليس إلا كذبة أوهموهم بها؛ ليدفعوهم لركوب تلك التوابيت كما قال الرجل الذي أصابته لوثة ما أن رآهم؛ حتى يموتوا فيها واحدًا إثر الآخر، ويتخلصوا منهم تمامًا! هل هذه مخاوف أم هذيان الحمى؟! هل أصابتها حمى من الشمس؟! منذ أن بدأ الرحيل

والأطفال الأصغر منها يصابون بحمى قتلت بعضهم، فهل أصابتها هي الأخرى؟! ولِمَ لا؟! هل نسوا أنها طفلة هي الأخرى؟! حتى «حمزات» الذي يتدلى من فوق السفينة؛ ليغترف من مياه البحر الباردة في دلو وجده مربوطًا بحبل، ويلقيها فوق رأسها؛ لتفيق وتنخفض حرارتها.. حتى «حمزات» هذا ليس كبيرًا بما يكفي ليتحمل كل ذلك وحده! على الرغم من أن الرجال في القوقاز يكبرون مبكرًا جدًا، ولكن ما يحدث أكبر منه ومنها ومنهم كلهم! كانت قد بدأت تفيق قليلًا عندما تنامَى إلى سمعها رجل يتحدث مع آخرين.. كان صوته قادمًا من بعيد كأنه منبعث من عمق أحلامها، ولكنه كان ممتلئًا بالثقة مما يقول: «أعرف هذا الطريق جيدًا! طالما أبحرت من هنا! لسنا ذاهبين إلى إستانبول كما قالوا لنا! مضت إستانبول ومضى طريقها!»، شعرت بالناس حولها وقد أصابتهم الحيرة والتخبط! بالطبع لا أحد منهم استطاع أن يدرك بعد أن «العثمانلي» لم ولن يأتوا بهم أبدًا إلى ديارهم، وأن أقرب من سبقوهم إلى إستانبول تم تسكينهم حولها فقط، بينما سيق الباقي إلى موانئ ثم قرى أخري عثمانية أيضًا، لكنها بعيدة عن المركز السلطاني، ومتاخمة(27) لكل من تعتبرهم السلطة عدوًا خارجيًا أو داخليا! قليل ساقتهم أقدارهم نحو الشام، بينما تم إلقاء الأغلبية في موانئ مثل طربزون وسمسن جنوب البحر الأسود أو غربه على الناحية

الأخرى، تمامًا كما يفعلون معهم الآن دون أن يشعروا بذلك!

في يوم لا تعرف بالضبط كم عدد الأيام الذي سبقته في هذا الجحيم، استيقظت «نورسان» على صرخات الفرح والتهليل! تحاملت ورفعت رأسها الواهنة لترى أطراف اليابسة تلوح أمام عينيها! دبَّت عدوى النشاط في الجميع.. يرتبون أمتعتهم، ويستعدون للهبوط أخيرًا فوق أرض صلبة، بدلًا من هذا التيه الذي أصاب أرواحهم بالعطب(28). طال الانتظار قليلًا فالأرض ليست قريبة كما ظنوا.. هَمَّ بعضهم بالهبوط في استعجال، ولكن حذَّرهم أحد البحارة أن من فعل ذلك قبلهم أساء التقدير، ومات غريقًا قبل أن يدرك اليابسة! بعد فترة مرت كأنها أطول من كل ما مضى توقفت السفن على مقربة من الشاطئ، وأخذ البحارة الأتراك يدفعون بهم في غلظة؛ ليهبطوا في المياه الضحلة مسرعين، ويمشوا ما تبقى فيها حتى يبلغوا الرمال! أسرع «حمزات» و«أحمد» ينظمان الهبوط بشكل أفضل مما حدث على شواطئ القوقاز قدر استطاعتهما، فهبط «أحمد» في المياه مسرعًا، ووقف «حمزات» فوق السطح يناوله وسط الزحام «ديسا»، و«الحجي مراد»، و«كوللا»، و«نورسان»، والأمتعة واحدًا تلو الآخر، فيركض مسرعًا ليضعه فوق الرمال، قبل أن يعود مرة أخرى ليتناول التالي! كانت «نورسان» هي آخر ما

وضعه «أحمد» فوق الشاطئ بجانب الأمتعة القليلة، و«ديسا» و«الحجي مراد» الممددين في إعياء، و«كوللا» المحملقة في كل ما حولها في ذهول، وقد عاد الذعر يكسو وجهها مرة أخرى وهي تري كل هؤلاء البشر يتحركون ويصرخون في فوضى ألهبت أعصابها المضطربة، قبل أن يعود ليتعاون مع «حمزات» في مساعدة الباقين، بينما يقوم البحارة بفرد الأشرعة مرة أخرى، والانسحاب في سرعة، تاركين إياهم دون أن يوجهوا لهم كلمة واحدة عما يجب أن يفعلوه أو حتى ينتظروه!

تمددت «نورسان» على الرمال متجاهلةً قذارتها وملابسها المبتلة، والضوضاء والزحام البائس حولها.. تجاهلت كل شيء سوى هذا الاطمئنان الذي سرى في شرايينها وهي تقبض بيديها على حفنتين من الرمال الذي ترقد فوقه! رغم أنها لا تعرف هذه الأرض.. ولا تعرف ما سيحدث لهم فوقها! لا تعرف حتى أين هي بالضبط على وجه البسيطة، ولا يوجد لديها أدنى تصوُّر عن هذا المجهول الذي ينتظرهم هنا، إلا أنها على الأقل نجت من أيام الخوف المتواصل والعذاب المستمر.. نجت من هذا الوحش المخيف الذي أصبحت تمقته بكل قلبها وجوارحها.. نجت من البحر.

٧

ساحل مدينة فارنا - بلغاريا

ستعرف «نورسان» لاحقًا أن الأرض التي تقع على الناحية الأخرى تمامًا من تلك الزرقة البغيضة، والتي ألقوهم فوقها تسمى بلغاريا، أما الآن فقد انشغل الجميع بالانضمام لمخيم قريب كان قد أقامته إحدى المجموعات التي سبقتهم إلى هنا. مجموعة من الأكواخ المتهالكة المصنوعة من الألواح الخشبية المتناثرة على الشاطئ المهجور.. قاموا بترميمها وحشر أنفسهم بداخلها، متجاهلين السؤال المنطقي: «أين ذهب من صنعوها، وسكنوها قبلهم؟!»، ستظهر إجابة هذا السؤال، ولكن بعد ثلاثة أيام حاول خلالها الأديغة استعادة الحد الأدنى من الحياة الآدمية التي فقدوها طوال رحلتهم المضنية(29). ذبحوا بعضًا من الحيوانات التي استطاعت الوصول معهم حية، وجلبوا المياه العذبة من بئر مهجورة اكتشفوا وجودها وسط الأحراش القريبة. أشبِعَت الاحتياجات الأساسية، وكاد الناس أن يبدأوا في التفكير فيما هو أسمى من ذلك: وضعهم الحالي ومستقبلهم المجهول عندما بدأ اليوم الرابع بظهور كوكبة من الخيالة الأتراك يرتدون الطرابيش العثمانلية ذات اللون الأحمر الساطع،

وعلى رأسهم باشا لا يختلف في شيء عن الجنرال الروسي المتعجرف الذي كان آخر من رأوا قبل أن يتركوا قريتهم القوقازية الحبيبة.

تركت «نورسان» «ديسا» و«كوللا» بمفردهما في الكوخ، لتقف وسط المتحلقين حول الفرسان الأتراك، وهي تتأمل ملابسهم الملونة بانبهار، بينما وقف بجانبها «حمزات» يترقب ما سيحدث بنظرة محايدة على عكس «أحمد» الذي بدا السخط واضحًا في عينيه، وهو يحاول تمالُك نفسه؛ حتى لا يشعر «الحجي مراد» المستند عليه بموجات الغضب التي بدأت تشتد بداخله بعد فترة سكون طويلة.

رمقهم الباشا باشمئزاز قبل أن يهتف في تعالٍ: «أمنكم من يفهم التركية؟» فتقدم بعض الكبراء الذين يتقنونها؛ ليقوموا بالترجمة، بينما ظل «أحمد» على ثباته مُخفيًا معرفته للغة التي كان قد تعلمها على يد الأتالق أثناء فترة إعداده ليكون رجلًا وفارسًا قوقازيًا متميزًا! بدأ الباشا حديثه بأبعد شيء كان يمكن أن يخطر على بال أيٍّ من هؤلاء الذين تتعلق عيونهم البائسة به كآخر أمل في حياة كالحياة!

«نعلم أنكم مسلمون، فهل تحرصون على إقامة الخمس

صلوات في مواعيدها؟»، هبط الوجوم كطير أسود ثقيل على الرؤوس ذات العيون المبحلقة في ذهول كان «أحمد» أسرع من تخلص منه، فهتف في حدة بتركية سليمة صدمت الجنود الذين لم ينتظروا أن يرد عليهم أحد سوى من أعلن منذ البداية معرفته بلسانهم:

- صلاة؟! هل أفقدتمونا ديارنا، وعبرتم بنا البحر؛ لتسألونا عن الصلاة؟! الناس يموتون من الجوع والكمد، وأنتم تسألون عن الصلاة!!

زمجر الباشا في غضب، وقد فاجأته هذه المعارضة التي لم تعتد نفسه على مواجهتها من قبل:

- كيف تتجرأ على جنود السلطان يا فتى؟!

- سلطان! أنا لا أعرف شيئًا عن سلطانكم هذا سوى أنه سمح للمعتدين بأن يجرونا من أرضنا جرًا، ويلقون بنا في التهلكة! ثم يبعث بكم بعد ذلك لتسألونا عن صلواتنا؟! الصلاة شأن الله، ومعاشنا شأنه هو، فإن لم يستطع أن يتولى شؤونه كما ينبغي يجدر به أن يصمت، بدلًا من أن يحاول إخفاء ذلك بأن يدّعي تولي ما لا شأن له به!

ضغط «الحجي مراد» على ذراع «أحمد» بشدة؛ ليصمت، بينما اقترب الباشا بفرسه، صارخًا والشرر يتطاير من عينيه:

- اخرس يا وقح!

ولكن قبل أن يسترسل الباشا أو يجيبه «أحمد» مندفعًا متجاهلًا الرعب الذي أصاب أباه المرتجف بجانبه، أسرع أحد الكبراء ليقف أمام «أحمد» هاتفًا في لهجة مهادنة، وإن لم تخلُ من الحسم:

- من فضلك يا باشا.. دعْ هذا الفتى، وتحدث مع الكبراء؛ فنحن ننتظر ما جئت لتبلغنا إياه.

تمالك الباشا نفسه وهو يرمق «أحمد» في توعُّد قبل أن يبعد عينيه عنه، ويتحرك بفرسه أمام الجميع في خيلاء، قائلًا بلهجة تقريرية متعالية:

- لقد جئنا لنخبركم بأنه سيتم الآن تقسيمكم وتوزيعكم على قراكم الجديدة، كما حدث مع كل من سبقوكم.. كل مجموعة من الأسر ستعيش في قرية بلغارية، وسط أهلها من رعايا السلطان خليفة رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه

عليه.

بسرعة شديدة هبط بعض الجنود عن خيولهم، وفتحوا دفاتر يقيدون بها الأسماء والعائلات، بينما تباينت ردود الفعل بين آمل ويائس ومتشكك، حتى بدأت خيوط أخرى للمؤامرة الكبيرة تتضح من جديد، عندما أدرك الشراكسة أن الجنود كانوا يقومون بفصل الفتيان والرجال القادرين على الخدمة العسكرية عن الباقين، وإجبارهم على الوقوف في صف بعيد عن الأسر التي أُمِرَت بجمع حاجاتها بسرعة؛ لتبدأ رحيلًا آخر داخل العمق البلغاري، إلى حيث سيتم تسكينهم! هكذا إذًا؟! لم يسمح السلطان بإلقائهم في التهلكة فقط لينفذ اتفاقًا سياديًا أبرمه مع المسكوفيين، ولكن أيضا لأنه يحتاج لدماء جديدة لجيشه! دماء الجنود الشراكسة الذين سيتم إجبارهم على التخلي عن عائلاتهم؛ ليواجه نساؤها وأطفالها وشيوخها مجهولًا مخيفًا بمفردهم!

بالكاد كانت نورسان تفهم ما يحدث من الترجمات التي تناقلها الناس فيما بينهم، خاصةً هذا الحديث الذي دار بين أحمد والباشا والذي لم يكن ذا أهمية كبيرة بالنسبة لها مثل هذا الخبر الأخير، والذي بسببه تملك الرعب من قلبها عندما خطر ببالها أنه يمكن أن يتم تجنيد حمزات، فيضطر للرحيل

تاركًا إياها وحيدة مع «ديسا» و«الحجي مراد» و«كوللا»! ولكن الله كان أرحم من أن يحمّلها فوق ضعفها ضعفًا آخر دون أن يترك لها ما تستند عليه. لم يتم تجنيد «حمزات»؛ لأنه كان أصغر وأضعف من أن يكون مقاتلًا جاهزًا لخوض المعارك مباشرةً، على عكس «أحمد» الذي تم تجنيده على الفور، فأسرع يسجل «الحجي مراد» مع عائلة «حمزات» حتى يتم ترحيله وتسكينه معهم في نفس القرية التي استطاع بصعوبة أن يعرف اسمها حتى يُطمئن أباه بأنه سيعود إليهم، بينما كان «أحمد» يوقن بداخله أنه لن يعود، ولن يرى أيًا منهم مرة أخرى! سيموت فوق أرض غريبة مدافعًا عن غرباء!

اصطفّت العائلات في مجموعات حسب القرى التي ستذهب إليها، حيث وجدت «نورسان» نفسها فجأة تقف في صفٍّ يشبه هذا الذي خرجت معه من قريتها حتى شاطئ البحر الأسود.. انقبض قلبها عندما تذكرت تلك الرحلة البغيضة، وهي على مشارف تكرارها مرة أخرى، ولكن دون حتى أن يكون «أحمد» معهم ليحمل «الحجي مراد» الذي غلبت هزيمته هيبته، فانخرط في البكاء كمدًا على فقدانه الثاني! لكنها فوجئت بـ«حمزات»، وكأنه لا يشعر بأي من المآسي التي تجري من حوله، وقد انشغل عنها بالتخطيط

للمسيرة القادمة في دقة وحزم حاملًا معظم الأمتعة ودافعًا بالباقي لـ«نورسان»؛ لتحمله هي بعد أن أولاها مهمة إسناد «ديسا»؛ لأنه سيتولى إسناد «الحجي مراد»، بينما سيتشاركان معًا في متابعة «كوللا» السائرة كالهائمة في تيه عظيم، على الرغم من أنها تسير على بُعد خطوة واحدة منهم!

تحركت المجموعة محاطةً بالجنود الأتراك في سير أقل مشقة من المسيرة الماضية، تخلله العبور بين ضفتي نهر(30) بقوارب متهالكة ذكّرت «نورسان» بالتوابيت التي اجتازت بهم تلك الزرقة البغيضة التي تفصل أرضهم عن تلك الأرض الجديدة، ولكنها سرعان ما نسيتها عندما اصطفوا مرة أخرى؛ ليستأنفوا السير الذي لم ينتهِ إلا في اليوم الخامس عندما لاحت أمامهم جبال رابضة خلف مجموعة من المنازل المتلاصقة، وسط مساحات خضراء شاسعة من أحراش وحقول بدت مألوفة للقلب والعين؛ للشبه الذي يجمعها بمروج البزادوغ في القوقاز، والتي رغم أنها في تلك اللحظة بدت بعيدة جدًا، إلا أنها كانت أول ما استحضرته المخيلات عندما ظهرت أمام الأعين البائسة تلك المدينة التي تم إخبارهم بأنها ستكون سكنهم الجديد.

٨

رازالق (Razlog)- جنوب بلغاريا حاليًا - ١٨٦٧

ستعرف «نورسان» بعد سنوات طويلة كم كانوا أكثر حظًا من شراكسة آخرين تم اقتيادهم فور وصولهم لمراكب أخرى غرق بعضها، وهي تجتاز بهم نهر الدانوب، حتى تم تسكينهم في قرى ومدن شمال بلغاريا، حيث لقوا أسوأ معاملة من السكان الأصليين الحانقين على الحكم العثماني والمتضررين من جراء إجبارهم على استقبال كل هؤلاء النازحين، واقتسام حبوبهم وأراضيهم الزراعية معهم، قبل أن يواجهوا في النهاية فظائع لا تقلُّ وحشيةً عما حدث لهم أثناء ترحيلهم من القوقاز! فظائع ستعرفها «نورسان»، وسترى نتائجها بعينيها، بل وستحيا مع آثارها، ولكن بعد ما يقرب من عِقد كامل! أما الآن فقد تعلقت الأعين كلها بـ«داوود أفندي» ضابط الهجرة الذي يمثل السلطان، ويتولى أمر تسكين المهاجرين الجدد في تلك المدينة الصغيرة مع سكانها البلغار ذوي الأغلبية المسيحية، والواقعة بولاية سالونيك العثمانية.

أمر «داوود أفندي» بإحضار رجال من السكان الأصليين؛

ليقوموا ببناء قرية صغيرة على الأطراف، قوامها مجموعة من البيوت الصغيرة المتلاصقة؛ ليسكن الشراكسة بجانب بعضهم البعض، قبل أن يقوم باقتطاع جزء من مخزون الحبوب، وتوزيعها عليهم؛ ليقتاتوا منه حتى يقوموا بزراعة الحقول التي قام بإعادة تقسيمها بين الملاك الأصليين والوافدين الجدد! بالمقارنة لقرى ومدن أخرى، أخذت تلك المجموعة الشركسية ما يكفيها لأن تحيا حياة معقولة لا تضطرهم لأن ينهبوا أو يسرقوا السكان الأصليين أو الموظفين الأتراك، كما قيل لهم أنه حدث في الشمال، كما أنهم كانوا أكثر حظًا، حيث إن سكان تلك الولاية لم يكونوا بمثل شراسة وعنجهية سكان الشمال، كما ستعرف «نورسان» بعد ذلك، لكن هذا لم يمنع الحنق من أن ينتشر بينهم، دافعًا إياهم لمعاملة سكان القرية الشركسية بجفاء لن يختفي تمامًا، مثله مثل اللغة التي ستشكل عائقًا لفترة طويلة، قبل أن يبدأ الشراكسة في اعتياد اللسان الجديد واستخدامه بشيء من الإجادة.

وقف «حمزات» فوق تل قريب يتأمل الحقل الصغير الذي تم تخصيصه لهم ليعيشوا من حصاده، وكأنه يرى سنوات الشقاء الممتدة أمامه من اللحظة التي غادر فيها «داوود أفندي» بعد أن تركهم تحت ولاية القائمقام أو القائد العثماني

المحلي، بينما كانت «نورسان» تراقبه من بعيد وهي تقف أمام باب البيت الجديد! زفرت وقد تزاحمت التساؤلات القاسية بداخلها. هل حقًا سيستطيع هذا الرجل الصغير الذي لم يقبلوا به في التجنيد أن يحملهم ويحمل همومهم المضنية؟! هل يستطيع أن يواصل ما بدأه منذ أن رحلوا عن القوقاز بعد هذا الذي سمعه من أبيهم؟! أبوها! في تلك اللحظة بدا «عزمات» بعيدًا جدًا كأنه جدٌّ مات منذ خمسين عامًا، ولا يبقى في المخيلات إلا ذكرى باهتة عن أيامه الأخيرة! هل هذا بسبب ما أصاب قلبها بعد تخليه السريع عنهم، أم بسبب ما حدث لهم بعد ذلك، وأفقدها الاهتمام بأشياء كثيرة؟! أم كلاهما معًا؟! لم تجد متسعًا من الوقت لتجيب؛ فقد تبخرت تلك التساؤلات ليحل محلها سؤال جديد وهي تلتفت وتخطو داخل المنزل ببطء، متأملةً حوائطه الباهتة في حسرة! أين هذا البيت الطيني البائس من منزلهم الكبير بالقوقاز؟! كيف تحولت الحياة فجأةً إلى غرفتين إحداهما صغيرة بالداخل يرقد على أرضها «الحجي مراد» و«ديسا»، وقد هزمهما الوهن الشديد بعد رحلة العذاب التي تفوق قدرة احتمال عمريهما الطويلين، وحجرة أوسع قليلًا بالخارج تلك التي تقف فيها الآن كالضائعة في الوسط تمامًا بين الباب المفتوح والنافذة المواجهة له، والتي تكومت «كوللا» بجانبها على الأرض الخالية إلا مما تبقى من أمتعتهم

البالية، وقد شخصت ببصرها نحو الأفق، غارقةً خلف ستائر كثيفة من الصمت والشرود تحجبها عن كل ما حولها!

تقدَّمت «نورسان» في خطوات مترددة قبل أن تجلس في مواجهة «كوللا» متأملةً إياها بنظرات مستعطفة كأنها ترجوها أن تفيق.. أن تعود.. يجب أن تعودي الآن يا «كوللا»! أعرف أن ما حدث لـ«إينال» كان أعتى مما يمكن أن يتحمله قلبك الضعيف بحبه، ولكننا الآن في أشد حاجتنا إليكِ! أنا في أشد حاجتي إليكِ! لم أملك سواكِ يا «كوللا» طوال حياتي! كنتِ دائمًا الأقرب إليّ! أحتاج لأن أستند عليكِ! أحتاجكِ فعودي أرجوكِ!

أفيقت عندما تحركت «كوللا» فجأة، ونظرت نحوها، وقد اتسعت ابتسامتها في سعادة قفز قلب «نورسان» بسببها! هل استجيبت الدعوات، وستفيق «كوللا» أخيرًا وتعود كما كانت «نورسان» تتمني منذ لحظات؟! ولكن سرعان ما تراجعت موجات السعادة مصطدمةً بحائط من الاستنكار وهي ترى «كوللا» ترفع بصرها نحو الأعلى، وقد تحولت سعادتها إلى دهشة شديدة، قبل أن تمد يديها وتعلقهما أمامها في الهواء، وتنهض متجهة نحو منتصف الغرفة شاخصةً ببصرها نحو نقطة في الفراغ أمامها، كأن سحرًا ما يسيطر عليها، ويجذبها

دون إرادتها، قبل أن تتوقف وتبدأ في الرقص! ترفع يديها إلى جانبها وإلى الأعلى، وهي تدور وتتحرك في خفة من بقعة إلى أخرى كأنها تراقص رجلًا أمامها!

اتسعت حدقتا «نورسان» وهي تراقبها في ذهول، وقد تركت العنان لدموعها الجارية في يأس قاصم بعدما فهمت أن «كوللا» تعيد رقصة القافا التي رقصتها مع «إينال» يوم عودة «الحجي مراد» من الأراضي المقدسة، بنفس الحركات والنظرات والإيماءات، وقد صور لها عقلها المريض هلاوس لا وجود لها! عندئذ فقط أدركت «نورسان» أن «كوللا» رحلت مع كل ما ومن رحل! تلك التي تراها أمامها ليست إلا جسدًا لا روح فيه! لا فائدة من الانتظار ولا داعي للأمل، فـ«كوللا» لن تعود!

نهضت وركضت مسرعةً نحو الخارج.. لم يوقفها سوى «حمزات» الذي اصطدمت به أمام الباب، فأمسك بها وقد تملكه الذعر من شكلها وهي تنتفض بالبكاء، ظانًّا أن مكروهًا قد حدث لأمهما أو لـ«الحجي مراد»، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه عندما رأى ما تفعله «كوللا» بالداخل، وأدرك ما يحدث لـ«نورسان»، فأسرع يحتضنها في حنان أدهشها! لم يكن «حمزات» أبدًا قريبًا منها أو حنونًا عليها! كان يحاول دائمًا أن

يكون رجلًا شركسيًا مثاليًا لا يُظهر أي عاطفة، ولا يتخذ حبُّه لنسائه أي شكل سوى الحماية والرعاية والدفء الناتج من وجوده حولهن فقط! هل حقًا كان ما قاله أبوهما مؤثرًا إلى هذا الحد؟! هل استطاع في بضع دقائق أن يقلب كل ما كان يحاول أن يزرعه بداخل ابنه رأسًا على عقب؛ ليعتنق عكسه تمامًا، ليس بقلبه فقط، ولكن أيضًا بجوارحه؟!

أخرجها من بين ذراعيه، ونظر في عينيها وهو يقول مبتسمًا:

- أنا في حاجة إليكِ يا «نورسان»! لن أقدر على حمل هموم هذا البيت بمفردي!

مسحت دموعها وهي تقول في يأس:

- ولكننا صغيران يا «حمزات»!

رفع حاجبيه متصنعًا دهشة خلطها بشيء من المداعبة، وهو يقول:

- هل حقًا تظنين أن هذه عَقَبَة؟! لقد اجتزنا ما عجز معظم

الكبار عن تحمُّله!

قالها وهو يرمق «كوللا» المنهمكة في الرقص بالداخل، وفي عينيه نظرة ذات معنى أراده أن ينفذ في عروق «نورسان»، ويجري بها مجري الدم، قبل أن يستطرد في لهجة حانية:

- اجتزناه، وما زلنا نملك بعضنا البعض! صدقيني يا «نورسان» إن أخذ الله منكِ شيئًا، فهذا يعني أنك بالتأكيد لا تحتاجين إلى الارتكان إليه مهما بدا لكِ عكس ذلك! أما عني فأنا أعرف أني لا أحتاج إلا إليكِ أنتِ فقط لأواصل!

ابتسمت وآثار الدموع لا تزال باقية داخل مقلتيها، فاحتضنها «حمزات» مرة أخرى، قبل أن يتركها؛ ليحضر ما يحتاجونه من المياه، بينما انهمكت «نورسان» في جمع الأخشاب وإشعال النار اللازمة لتسخينها؛ ليستخدمها «حمزات» في تحميم «الحجي مراد»، بينما تولت هي تحميم أمها و«كوللا»، بعد أن قضوا أسابيع طويلة دون أن تلمس المياه النظيفة أجسامهم!

كأنها تخوض آخر معاركها مع الطفلة التي بداخلها، وهي

تفرك جسد «كوللا»، وتسكب المياه عليه، بينما تلك المرأة الناضجة مستسلمة لها تمامًا! أصابعها تعمل في آلية، وعقلها يجري بجنون، محاولًا اللحاق بسنوات لا وقت لأن تجتازها بطبيعية، كما كان يمكن لها أن تفعل في حياتهم القديمة! يجب أن تجتاز كل ما تضعه أفكارها أمامها من عقبات! يجب أن تنسى كل ما مضى حتى نفسها القديمة يجب أن تنساها، وتسرع في بناء واحدة أخرى قادرة ليس فقط على التعايش مع تلك الحياة الجديدة، ولكن أيضًا قادرة على محاربتها ومواجهتها والتغلب عليها دون أن تنتظر أحدًا ليساعدها في ذلك! حتى «حمزات» لا يجب أن ترتكن إليه، وإنما يجب أن تتحد معه! يجب أن يتداخلا كما يتداخل شعرها في ضفيرة واحدة قوية لا تستند إحدى خصلاتها على الأخرى، وإنما تتعشق معها حتى يصبحا كيانًا واحدًا لا يحتاج لأي عون آخر!

ارتاحت لهذا التفكير وهي تنتهي من تحميم «كوللا» وتمشيط شعرها، أو ربما كان هو الحل الوحيد أمامها! لا وقت لمزيد من الحيرة؛ فالأيام القادمة تحتاجها قوية ومتيقظة دون أن تشغل نفسها بالمسميات أكثر من ذلك! سكن جزء ما بداخلها، وهي تأخذ ما تبقى من المياه، وتختبئ به خلف البيت، حيث التمع ضوء القمر فوق الحقول الواسعة

الخالية أمامها والجبال البعيدة المعتمة والأحراش المتصلة بالغابة المحيطة بعدما خلد الجميع إلى النوم! خلعت ملابسها، وجلست مستندة على الحائط، بعدما خذلتها قدماها في الوقوف أكثر من ذلك حتى ولو من أجل الاستحمام!

جعلت تسكب المياه على جسدها ورأسها، وهي تشعر بانزياح كل ما تكوَّم فوق جلدها من تراب وعرق مع الدفقات المتتابعة! كأنها تغتسل من نفسها القديمة، وتستعد لاستقبال تلك الجديدة التي ستغلق عليها أسوارًا حديدية بداخلها؛ حتى لا تفر وتتركها في العراء بمفردها أمام قسوة الحياة القادمة! ستنجح في ذلك! ستثبت الأيام أن جسدها وعقلها ونفسها اتحدوا في تلك الليلة مع هذه الفكرة الجديدة، حتى إنه ولسنوات طويلة قادمة لن يظهر من «نورسان» سواها! ولكنها أيضًا ستظلُّ في نقطة سوداء بعيدة بداخلها تجهل أن ما نجح في غسل الجسد والعقل والنفس وقف عاجزًا أمام ما تراكم فوق الروح!

الفصل الثاني

عودة إلى أكتوبر ١٩١٢ - رازالق - جنوب بلغاريا حاليًا

تلتصق «ميربابا» بالحائط المجاور لباب غرفتها مسترقةً النظر نحو الجلسة المنعقدة في الخارج. خلفها يجلس «حسن» فوق فرشتهما الصوفية، مستغرقًا في حيواناته الخشبية الصغيرة التي أحضرتها له خالته «رقية»، وأمامها تجلس أمها على الأريكة الجانبية، ويجلس أبوها على الأريكة المواجهة لباب غرفتها وبجانبه، بينهما يجلس هذا الرجل الغريب الذي تراه «مِيري» لأول مرة! يدور بين ثلاثتهم حديث خافت تحاول أذنها أن تلتقط منه أي شيء، فلا يصلها إلا شذرات متقطعة لا تروي سوى شيئًا يسيرًا من فضولها!

تلتفت نحو النافذة المجاورة لها عندما تشعر بحركة غريبة، قبل أن يهدأ روعها قليلًا عندما ترى «آيسل» واقفةً على أطراف أصابعها تشير لها حتى تقترب بسرعة. تحبو «مِيري» على أربع حتى تجلس ملتصقة بالنافذة، وتدلي برأسها من على الحافة لتكون قريبةً من وجه «آيسل» المتطلع نحوها في توتر.

- ماذا حدث يا «آيسل»؟! كيف تركتك خالتي «رقية» تأتين وحدِك؟!

تجيبها «آيسل» بأنفاس مبهورة وكلمات تخرج سريعة متقطعة:

- خرجت دون علمها.. «مِيري».. أنا خائفة!

- لماذا؟!

- أمي تقول إننا سنرحل! أخشى أننا سنذهب إلى أبي أو إنه سيأتي ويصطحبنا معه أنا وأمي فقط، ونفترق عنكم!

- لا تخافي يا «آيسل».. سترحلان معنا.. سنرحل جميعنا مع هذا الرجل الذي يجلس مع أبي وأمي في الداخل.

- هل أنتِ متأكدة؟!

- نعم.. سمعتهم يقولون ذلك.

تتنفس «آيسل» الصعداء قبل أن تقول في اطمئنان:

- الحمد لله.. يجب أن أعود الآن قبل أن تكتشف أمي غيابي.

لا تنتظر ردًا، وتسرع راكضةً بخطوات متعثرة نحو منتصف المدينة، و«مِيري» تتابعها بعينين قلقتين سرعان ما تخفضهما، وهي تنكمش مختبئة عندما يباغتها خروج أبيها مع هذا الرجل الغريب، ووقوفهما أمام نافذتها! الآن يمكن أن تتأمل هذا الرجل عن قرب. يشبه أهلها كثيرًا! جسده الصلب المتناسق وشاربه ولحيته البنيان وعيناه العسليتان ينطقان بنسبه لنفس الأصول القوقازية، رغم أن بياض بشرته قد اختفى قليلًا تحت طبقة اسمرار خفيفة من جراء الترحال المتواصل تحت شموس الشرق والغرب.

«عمر الريحاني».. من أديغة طائفة الشابسوغ بالقوقاز، وتتشابه حكايته مع حكايتهم. تعرض أبواه في صغرهما مع أجداده لنفس المأساة التي تعرضت لها «نورسان» و«حمزات».. أحرقت قريتهم وتم تهجيرهم قسريًا خارج القوقاز خلال فترة النكبة الشركسية. تم توطين أسرته كما حدث مع أم وخال «تيمور» في بلغاريا، ولكن في الشمال،

حيث عانوا من اضطرابات واضطهادات اضطرت الشراكسة للهروب مرة أخرى. وبينما عانى معظم هؤلاء من مصاير مأساوية، كان أهل «عمر» ضمن قلة رست سفنها على سواحل عكا، واستقروا في قرية الريحانية بفلسطين، والتي ضمَّت كثيرًا من الشراكسة. وُلِد «عمر» هناك، والتحق في سن صغيرة بالعمل مع تاجر من السكان الأصليين، ومضى يرتحل معه بين جنبات الشام، ويجوب معه متاهات أوروبا العثمانية، حتى أضحى خبيرًا بها أكثر من أهلها أنفسهم! ومنذ أن وطأت قدماه أرضها حرص على البحث عن أحفاد أهله الشراكسة في كل قرية أو مدينة يمر بها. يتواصل معهم، ويوطِّد علاقته بهم، معروفًا بينهم باسم «الريحاني» كما كان يناديه ربُّ عمله؛ نسبةً إلى القرية التي أتى منها. لم يكن هناك شيء عنده يضاهي السكينة التي يشعر بها عندما يختلط ببني وطنه، ويندمج مع شركائه في إرث النكبة الثقيل، كأنه يحاول بذلك أن يُطمئن قلبه بأن الحكايات القديمة ليست محض خيال(31)، وأن هذا الوطن القديم كان موجودًا بالفعل، وأن الأصل العريق حقيقة، وأن الجذور قوية ومتشابكة مع الأهل وأصحاب الأرض المفقودة. وما أن بدأت أدخنة الحرب الوشيكة تعلو منذرةً في الأفق حتى أسرع يتصل بمن يعرف منهم، ويحثهم على الرحيل، قبل أن يطولهم الخراب القادم، ويستغل معرفته بالطرق؛ ليساعدهم

على الوصول إلى الموانئ والمرافئ الآمنة نسبيًا، حيث يمكن أن يتدبروا أمر هروبهم.

لم تكن «ميري» بالطبع تعرف كل ذلك عن «الريحاني»، وهي مأخوذة بتأمل هيئته وهو يقف أمامها في ملابس تشبه تلك التي يرتديها أبوها والفلاحون من سكان القرية والقرى المجاورة، حيث كان يرتدي سروالًا ينتهي تحت ركبتيه بمسافة قصيرة من ساقيه، ويغطي باقيهما قماشتان بيضاوان كجوربين ملصقين بشريطين أسودين ملفوفين بشكل دائري نحو الأسفل، حتى تلتصقا بالحذاء القماشي، وفوق كل ذلك قميص ذو صديرية محكمة الإغلاق حول جذعه، وبينهما وشاح مخطط ملفوف كحزام حول وسطه بعناية. كان «عمر» يحب أن يرتدي ملابس أهل البلقان من الفلاحين؛ حتى تسهل حركته بينهم، وتزداد ألفتهم له. الشيء الوحيد المختلف الذي لم يتخلّ عنه هو غطاء رأسه؛ حيث إنه لم يستطع أن يرتدي العمامة كثيرة الطبقات كتلك التي يرتديها أحيانًا أبوها «تيمور» مستخدمًا وشاحًا مخططًا في لفِّها. لذلك ظلّ «الريحاني» متمسكًا بهذا الذي يشبه الطربوش الأحمر الذي كانت «مِيري» ترى الجنود الأتراك يرتدونه فوق رؤوسهم، لكنه كان يلفُّ حوله وشاحًا في شكل عمامة بيضاء، كالتي يرتدون مثلها في وطنه الثاني، ولكنها

بالطبع لم تكن مألوفة في مدينتهم هذه، وخاصة لـ«ميري» التي ظلّت تحدق به في ذهول، بينما يتجاذب مع أبيها أطراف حديث قلق هامس دون أن يلتفتوا لوجودها بجانبهم.

- هناك شيء مهم أريد أن أبلغك إياه يا «تيمور»، لكنني لم أستطع أن أقوله أمام السيدة «فاطمة»؛ حتى لا يزداد ذعرها أكثر من ذلك!

يزحف الخوف على وجه «تيمور»، لكنه يتمالك نفسه وهو يتساءل في ثبات:

- قل يا «عمر» ما تريد.. هل سقطت سالونيكة؟

- لا.. لم يسقط ميناء سالونيكة.. على الأقل حتى الآن.. المشكلة ليست فيه.. المشكلة في الطريق إليه!

- لا أفهم ماذا تقصد!

- العصابات البلغارية يا «تيمور».. الكوميتاجي.. قويت شوكتهم، وأصبحوا ينتشرون في ولاية سالونيك، ويغيرون

بوحشية على كل من يحسبونهم رعايا الأتراك، ومنتمين لدينهم خاصة على الطرق.. كثيرٌ ممن فروا من قراهم لم يصلوا إلى المدن الساحلية والموانئ بسببهم!

يزدرد «تيمور» ريقه، محاولًا السيطرة على الرعب الذي ينتابه، والحفاظ على هدوئه أمام «عمر»:

- إذن الرحيل خطر.

- والبقاء أخطر!

يستكمل «الريحاني» وهو ينظر نظرة ذات معنى، في إشارة لما فعلته أسرة «تيمور» في الماضي:

- هذه المرة مختلفة يا «تيمور»! الاختباء في الجبال حتى تهدأ الأوضاع والعودة مرة أخرى لن يجدي. هذه الحرب ناشبة لا محالة، ولن تنتهي إلا بعد أن ينتهي وجود الأتراك، وكل من يجده هؤلاء منتميًا لهم على هذه الأرض. النار التي اشتعلت ستنتشر أسرع مما تتخيل، ولن يطفئها سوى دماء غزيرة.. دماؤنا يا «تيمور».. ومن سيسرع بالهرب هو من يمكن أن يأمل في فرصة للنجاة.

يبتسم «تيمور» ابتسامة صفراء قائلًا:

- البقاء هلاك والرحيل هلاك.. لكن هلاك البقاء مؤكد، وهلاك الرحيل محتمل! لا أملك خيارًا آخر يا «ريحاني».. سنرحل معك، وليكن ما يكون.

يجيبه «الريحاني» وقد بدا عليه شيء من الحرج:

- اعذرني يا «تيمور».. كان يجب أن أوضح لك كل شيء؛ حتى تتخذ قرارك على بيِّنة.

يبتسم «تيمور» وهو يقول في امتنان:

- أعرف يا «ريحاني».. ليس بيدك شيء أكثر مما تفعله، وهو عين المروءة وأعظم أشكالها.

يذهب «الريحاني»، ويعود «تيمور» ليستكمل حزم الأغراض القليلة، متظاهرًا بالطبيعية. كأن «عمر» لم يقل له شيئًا مختلفًا عما قيل بين ثلاثتهم منذ قليل، بينما تظل «فاطمة» جالسة مكانها تخفي دموع خوفها، متظاهرةً هي أيضًا بالتجاهل. كأنها لا تريد أن تسأله عما تعمَّد أن يقوله

«الريحاني» بعيدًا عن أذنيها.

مسكين يا «تيمور»! يظن أنه يعلم كل ما يدور بداخلها، وأنه قادر على احتوائه! يظن أنه يستطيع طمأنتها، متخيلًا أن كل ما يخيفها هو أن يحدث لهم ما حدث لأمه وخاله من قبل! يظن أن ما حكته لهما أمه أو عمّتها «نورسان» هو الشيء الوحيد الذي يملؤها ذعرًا هكذا! لا يعلم شيئًا عن هذا الوحش الآخر الرابض في ركن مظلم بداخلها يزأر زئيرًا خافتًا طوال الوقت، ناشرًا الرعب في أوصالها، وهي عاجزة عن أن تُسكته مهما حاولت أن تسيطر عليه! وكيف له أن يعرف، وهو لم يكن موجودًا في هذا اليوم البعيد. كان المرض قد اشتدّ على أمها، وأدرك الجميع قرب رحيلها عندما نادتها هي و«رقية»؛ لتتحدث معهما! ذهبتا وهما تخفيان دهشتهما! منذ صغرهما عرفا أمهما شخصية صامتة هادئة منطوية حتى عن أقرب الناس لها، حتى عن ابنتيها، بشكل كان أحيانًا كثيرة يثير ضيقهما وسخطهما وإحساسهما بشيء من اليتم، رغم كل ما كان يبذله أبوهما ليعوضهما. طالما تعجبت «فاطمة» من قدرة أبيها «حمزات» على أن يتفهَّم انطواء أمها الزائد! لم يكن فقط متفهمًا، بل كان أيضًا محتويًا ومقدرًا ومتفانيًا؛ لتعويض تقصيرها مع كل المحيطين! لم تفهم أبدًا كيف يمكن لرجل أن يفعل كل ذلك دون أن يتأثر

حبه أو يقل تفهمه أو مجهوده قيد أنملة طوال كل تلك السنوات! لم تفهم «فاطمة» إلا عندما أتى هذا اليوم. عندما أجلستها أمها هي و«رقية»، وحكت لهما كل ما ظل الباقون لا يعرفون عنه سوى قشور إلا «حمزات» الذي كان يعرفه كله! الوجه الآخر للحكاية القديمة تكرر مع أمها بعد عشر سنوات مشابهًا لما حدث مع أبيها وعمتها، حتى ساقتها يد القدر، وأوصلتها أخيرًا إلى مستقر آمن وأسرة جديدة عندهما! ما أن أنهت أمها حكايتها حتى أسرعت كل واحدة منهما بالانزواء بعيدًا عن عيني الأخرى؛ لتنخرطا في بكاء حار؛ قهرًا على أمهما وندمًا على ما كان ينتابهما أحيانًا من شعور بالسخط نحوها، وتعاطفًا مع أبيهما الذي حمل هذا الهم وحده دون أن يفصح عنه لأي أحد منهم كلهم! لا عجب إذن أنك لا تعرف يا «تيمور»، وأنه لا يمكن أن يخطر ببالك أبدًا هذا الذي يدور في عقل «فاطمة» الآن وهي تغمض عينيها، وتستسلم لقسوة ذاكرتها التي لا تتوقف عن إعادة هذا الوجه الآخر للحكاية أمام عينيها دون هوادة!

شمال بلغاريا – ١٨٧٧

١

أليس شيئًا ساخرًا أن المرة الأخيرة التي ترى فيها أخيها تكون بتلك الطريقة العبثية؟!

كل عيشتها عبث، لكنها لا تدرك ذلك؛ لأنها لم ترَ غيرها. منذ أن وُلِدت من أحد عشر عامًا، وهي تعيش في قرية بلغارية صغيرة كمئات القرى الواقعة عند سفوح الجبال ووسط الأحراش. قرى صغيرة تحيطها الحظائر والأراضي الزراعية، ويسكنها خليط من السكان ذوي الأصول والانتماءات الدينية المختلفة. فهناك المزارعون البلغار المسيحيون أو الراياه، وهو أيضًا ما كان يطلق على قراهم «الرايات»، وهناك البلغار المسلمون المسمَّوْن بـ«البوماك»، وهناك بالطبع الأتراك الموجودون منذ عقود طويلة، والشراكسة المرحّلون إلى تلك الأرض منذ سنوات قليلة.

شاء حظها أن تولد في أسرة من البوماك، في وقت كان فيه الاضطهاد لمسلمي تلك البقعة على أشدّه! منذ أن تشكّل وعيها والمتاعب هي سُنَّة حياتهم.. لا أحد يطيق وجودهم، وازداد الأمر سوءًا بما فُرِض على الجميع من اقتسام للمعيشة والرزق مع هؤلاء الشراكسة الذين تلازم مجيئهم مع سطوع نجم شاب من مزارعي «الراياه» في قريتهم.. «يوفان» ذو البنية القوية والشعر والشارب البنيين الناعمين..

يجيد شيئًا من فنون القتال يدعمه شراسته وخشونة طبعه وعيناه الحجريتان الممتلئتان كرهًا نحو الحكام المسلمين ومواطنيهم الذين يقتسمون معه رزقه.

كوّن «يوفان» عصابةً من شباب المزارعين المشابهين له؛ ليعملوا تحت إمرته في مضايقة المزارعين البوماك والأتراك والتحرش بهم وبنسائهم وسرقة بيوتهم أو تخريبها، حتى اضطُر أبوها إلى النزوح بالأسرة كلها مع باقي أسر البوماك والأتراك؛ للعيش على أطراف القرية مع الوافدين الجدد من الشراكسة. قاموا ببناء بيوت لا تقارَن ببيوتهم الأصلية، من حيث المتانة والنظافة، ولكنها كانت على أي حال بيوت بلغارية نموذجية ذات مخازن علوية معلقة، ونوافذ بمصاريع وشرفات خشبية، تؤدي الغرف الرئيسية بالداخل إلى الابتعاد عن تلك الشرفات واحدةً بعد الأخرى دون ممرات داخلية. مجموعة من البيوت البلغارية والتركية والشركسية وحظائر ضيقة حقيرة للماعز والدجاج، ومساحات أصغر من الأرض يزرعونها بالذرة والخضراوات، ويواجهون بها صلف العيش وقلة الرزق.

قلّت مضايقات «يوفان» وعصابته منذ ابتعادهم عن وسط القرية نحو أطرافها، وإن لم تكفّ تمامًا، حتى استيقظوا يومًا

على خبر رحيله هو وبعض من رفاقه عن القرية! قابل بعضهم الخبر بالراحة والاطمئنان، بينما ارتاب البعض الآخر؛ خوفًا من انضمامه لتلك الجماعات الثائرة أو العصابات البلغارية التي لا تتوقف الحكايات عن أعمالهم الوحشية ضد الأتراك والبوماك والشراكسة، حيث يقومون بقتلهم أو طردهم من قراهم وإجبارهم على الرحيل. وقد تبين أن هؤلاء المرتابين كانوا على حق!

في صباح ذلك اليوم، وحينما كانت تجلس فوق سطح منزلهم تتلهى بمتابعة أخيها ذي الخمسة عشر عامًا وأصدقائه وهم منهمكون في لهوهم فوق تل قريب تفاجأت بهم، وقد توقفوا فجأة شاخصين بأبصارهم نحو شيء أسفل التل من الجهة الأخرى التي لا تستطيع أن تراها من موقعها! بدا عليهم الاضطراب والهلع! صرخوا في بعضهم البعض بكلمات لم تسمعها! كان واضحًا من حركات أجسادهم أنهم اختلفوا فيما بينهم لدقيقة قبل أن يعودوا ليتفقوا مرة أخرى.. يتفقون على الركض نحو الجهة الأخرى بعيدًا عن القرية؛ حتى اختفوا تمامًا، وهي تتابعهم في ذهول وعدم فهم في اللحظة التي ظهر فيها فوق التل ما جعلها تفهم كل شيء!

ولكن.. أليس شيئًا ساخرًا أن المرة الأخيرة التي ترى فيها

أخاها تكون بتلك الطريقة العبثية؟!

٢

- «إيفا».. «إيفا»..

هرعت تركض فوق الدرج نحو الأسفل على صوت صراخ أمها التي كانت مذعورةً تصرخ باسم ابنتها وزوجها وابنها الذي لم تكن تعلم أنه ركض ونجا بطريقة عبثية لم يرها أحد سوى «إيفا» التي حاولت أن تفتح فمها لتخبرها بها، ولكنها فوجئت بلسانها يتوقف وصوتها ينحبس في حلقها، ويخفت بجانب صوت قلبها الذي يعلو صوت دقاته بجنون!

كان الشراكسة هم أول من فهموا ما يحدث؛ لأنهم رأوا مثله تمامًا منذ أكثر من عشرة أعوام! قيادات روسية لفرقة من الجنود القوزاق، ولكن تلك المرة زاد عليهم مجموعة من المزارعين البلغار الثائرين على الحكم العثماني وعلى القوميات غير البلغارية التي تعيش في بلغاريا معهم؛ بسبب هذا الحكم، ولم تكن تلك المجموعة سوى «يوفان» وعصابته، وقد زاد عليهم نفر قليل من راياه بلغار لا يعرفونهم!

وقفت القيادة الروسية تتابع جنود القوزاق وهم يحكمون الطوق حول القرية؛ لمنع فرار أي من الأتراك أو البوماك أو الشراكسة ريثما يقوم «يوفان» وعصابته البلغارية بإخراجهم بالقوة وتجميعهم في بقعة واحدة بجانب الحظائر، تحت أعين باقي سكان القرية من الراياه البلغار المسيحيين المتابعين لما يحدث في صمت راضٍ أو سلبي أو ساخط، ولكنه عاجز عن الوقوف أمام تلك القوة الغاشمة.

اقتحم اثنان من البلغار البيت فجأة.. أمسك أحدهما بذراع أمها، والآخر بشعرها، وأخذا يجذبانها بقوة نحو الخارج وهي تحاول المقاومة والصراخ بعنف، حتى اضطرا إلى جرِّها وخلفها «إيفا» التي تشبثت بها، وقد زاغت عيناها في رعب ظل يلجم لسانها ويمنعها حتى عن الصراخ مثل أمها! ألقوا بهما وسط باقي من جمعوهم بجانب الحظائر، حيث وقفت النساء يصرخن وينتحبن في خوف انتقل إلى أطفالهن الباكين في ذعر، بينما وقف الرجال ومعهم أبوها يعانون قلة الحيلة!

مرَّ «يوفان» على هذا الجمع بعينين ممتلئتين بالشماتة، قبل أن يشير إلى رجاله الذين أسرعوا يدفعون الرجال نحو الحظائر. ظلت عينا «إيفا» معلقتين بأبيها، وهو يبتعد مرغمًا

حتى اختفى مع الباقين داخل إحدى الحظائر، بينما تم دفعها هي وأمها مع باقي النساء والأطفال نحو بيتين قريبين كان أحدهما من حسن الحظ هو بيتها، حيث أمسكت أمها بيدها بقوة، وهي تدفع باليد الأخرى باقي النساء والأطفال المتزاحمين في ذعر، حتى بدا كأنه جمع ممن فقدن عقولهن، ولكن أمها كانت منصرفة عن كل ذلك نحو شيء واحد.. النافذة الصغيرة المطلة على الطريق الخلفي للقرية؛ فهي مصدر النجاة الوحيد! وبينما كان رجال «يوفان» يقومون بتكديس الحظائر والبيتين بالقش، ويهيلونه على المذعورين بالداخل كانت هي تحاول فتح مزلاج النافذة بجنون! بدأ المزلاج يتحرك قليلًا عندما علا الصراخ خلفها بشدة.. التفت «إيفا» لترى الرجال وهم يضرمون النيران في القش، فتمتد ألسنته مسرعةً لتلتهم كل من بالداخل! ازداد جنون أمها وهي تضرب المزلاج، وتدفعه بعنف وقد ازداد تعرقها، وامتلأ المكان حولها بالدخان وصراخ النساء والرجال بالحظائر المجاورة، والذين قد أمسكت فيهم النيران! انفتح المزلاج، فأسرعت تفتح النافذة قبل أن ترفع «إيفا» وتلقيها بالخارج وتقفز خلفها. حملتها مسرعةً، وبدأت تركض مبتعدة، وقد انضم إليها بعض النساء والأطفال الذين استطاعوا الخروج خلفها أو الهروب من البيت الآخر، بينما بدا أنه لم ينجُ أي واحد من الرجال الذين التهمتهم النيران ومعهم أبوها!

أحكمت «إيفا» ذراعيها حول رقبة أمها الراكضة مع من فررن، وعيناها ترقبان خلفهن ما ستعيش حياتها كلها غير قادرة على نسيانه أو تجاوزه! النيران ترتفع نحو السماء مختلطةً بدخان أسود كثيف وصراخ ورائحة اللحم المحترق، بينما وقف الجميع يرقبون ما يحدث، وكأنه شيء طبيعي! وكأن من بالداخل ليسوا من بني آدم مثلهم! كانت تسمع صوت لهاث أمها، وتشعر بجسدها الساخن المرتعش من الركض عندما رأت «يوفان» يرفع بندقيته ويوجهها نحوهن قبل أن يقترب منه جندي قوزاقي، ويمسك بالماسورة، ويدفع الفوهة نحو السماء، حيث ضاعت الطلقة بعيدًا عنهن! نظر نحوه «يوفان» في غضب واستنكار لم يكترث لهما الجندي الذي رفع صوته صارخًا نحو الراكضات ببلغارية ركيكة:

- اهربن أيتها العاهرات، وأخبرن كل قرية تقابلْنها بما رأيتموه هنا، وحذروهم من نفس المصير إن لم يخرجوا سريعًا من بلغاريا، ويتركوها للبلغار الحقيقيين.

٣

لا تعرف «إيفا» كم مضى من الوقت قبل أن يتوقفوا عن الركض. كان قد مضى ما يكفي ليبتعدوا عن القرية، ويشعروا بشيء من الأمان. ارتموا في إعياء، مختبئين في حرش صغير، وبينما استغرق الأطفال في النوم مباشرة من الإرهاق والبكاء جلست النساء يحاولن التقاط أنفاسهن، واستيعاب هذا الذي حدث لهن! ظلت «إيفا» متشبثةً بذراع أمها.. احتضنته بشدة وهي ترتجف، وترقب وجه أمها التي أسندت رأسها نحو الخلف على جذع شجرة، وقد أغمضت عينيها في إعياء، وانسالت دموعها الصامتة على الحال التي وصلت إليه، وعلى زوجها وابنها الذي ظنَّت أنه قد مات محترقًا مثل أبيه في إحدى الحظائر، ولن تعرف أبدًا الطريقة التي فرَّ بها؛ لأن «إيفا» ستظلُّ عاجزةً عن الكلام كأنها لم تعرف كيف تتحدث يومًا!

ظلت «إيفا» تتابع بعينين صامتتين انضمام مجموعات أخرى من الرجال والنساء الفارين من قرى قريبة أبيدت بطرق أخرى لا تقلُّ وحشيةً عما حدث لقريتهم.. ظلت تتابع أرتالًا من البائسين المنخرطين في بكاء مقهور، محاولين لملمة أنفسهم، وتجاوز ما حدث لهم! تجمَّع الرجال وتناقشوا وعملوا على تقسيم الناس إلى مجموعات من النساء والرجال، ودفعهم نحو استعادة قدرتهم على الوقوف

والمسير.. يجب مواصلة المسير.. هكذا سمعتهم «إيفا» يقولون.. يجب أن يحاولوا الوصول إلى أقرب مدينة كبيرة يكون بها حامية عثمانية، أو على الأقل تكون لا تزال تحت سيطرة الأتراك.. هذا هو الأمل الوحيد المتبقي لديهم! نهضت أمها بصعوبة، وأمسكت بها لتسير بجانبها؛ فهي لا تقدر على حملها مرة أخرى! وقفتا حيث أوقفهما الرجال الذين تولوا مسؤولية تقسيمهم في مجموعات بدأت تسير متتابعة نحو المجهول! أمُّها تجرُّ قدميها في إعياء.. متشبثةً بها دون أن تلتفت نحوها أو تحاول التحدث معها، كأنها كانت تدرك أن «إيفا» قد فقدت قدرتها على النطق، ولم ترد أن تواجه تلك الحقيقة، وتزيد همومها همًّا آخر!

الطريق طويل ومتعب! ساروا لأيام في طرق ضيقة تصعد وتهبط عند سفوح الجبال وبين الأحراش ذات الأشجار الشوكية، محاولين الابتعاد قدر الإمكان عن الطرق الرئيسية؛ ليتحاشوا مقابلة أي من الجماعات البلغارية الثائرة! أنهكتهم الطرق الوعرة والخوف المتملك منهم والجوع والعطش لأيام طويلة دون الوصول لأي شيء! حتى المزارع القريبة من القرى كانوا يخشون الاقتراب منها، على الرغم مما يثقل أشجارها من ثمار كان يمكن أن تقيم أودهم(32)! أين توجد أقرب مدينة كبيرة يمكن الاحتماء بها؟! لماذا لا تعثر فرق

الاستطلاع التي كانت تسبقهم في حذر باحثةً عن أي فرقة من فرق «الضابطية» -أو شرطة القرى التركية- على أي شيء؟! ألا يوجد على تلك الأرض من ينقذهم مما هم فيه! انتعش الأمل قليلًا عندما عادت إحدى فرق الاستطلاع في يوم تبشرهم بالعثور على خط السكة الحديدية! يمكن السير بجانبه حتى يصلوا إلى أقرب مدينة بها محطة للقطارات! هكذا سمعتهم «إيفا» يقولون قبل أن يصلوا عند خطين متوازيين من الحديد يسيران في طريق لا نهاية له أمام عينيها، ولا تعرف كيف يمكن لقطعتي الحديد هاتين أن تنقذهم مما هم فيه! ولكنها سارت بجانبهما مثل الباقين؛ فلا يوجد مجال لأي شيء آخر يمكن أن تفعله سوى أن تنساق خلف خط السكة الحديد هذا كما تنساق أمها المنهكة وقد أثقلها اليأس والعجز، أو هذا ما كان يظهر أمام عيني «إيفا» دون أن تدرك أن أمها لا تزال تملك شيئًا من القوة والأمل سيكونان السبب في إنقاذها هي وحدها!

هذا الطريق الحديدي طويل، ولا يقود إلى شيء، والأحوال حوله تزداد سوءًا! تعالت التنهيدات اليائسة عندما بدأت الثلوج تتساقط والبرودة تزداد دون أن يجدوا ما يمكن أن يواجهوا به هذا الصقيع! كل هؤلاء فرُّوا دون أن يأخذوا معهم شيئًا! لا يملكون سوى ما يلبسونه، والذي لم يكن كافيًا

أبدًا لحماية أجسادهم اليابسة من الثلج! أحست «إيفا» بأطرافها تتورّم، وبأنفاسها تتباطأ! هل أصبح الهواء ثقيلًا من البرد أم هي من فقدت قدرتها على التنفس؟! يبدو أن الأمر سيئ مع الجميع؛ فهم يتساقطون حولها بالتدريج، مما أصاب أمها بالذعر، خاصة وهي ترى الأطفال يصابون بالتجمّد قبل الباقين، فأسرعت ترفع رداءها وتُدخِل «إيفا» من تحته، وتحملها بين جسدها وردائها؛ لتحميها من البرد، وتهبها دفء جسدها كله! دفنت «إيفا» رأسها في رقبة أمها، محاولةً تجنُّب رؤية كل ما يحدث حولها والهروب من وجه أمها الذي أصبح شاحبًا هزيلًا، وقد ابيضَّ جفناها وشفتاها، وبدا أنها تستسلم للنهاية، على الرغم مما تبذله من أجل حماية ابنتها!

أحست «إيفا» بأمها وهي تتوقف، وبأنفاسها وهي تتباطأ، فأحكمت إغماض عينيها، ودفنت رأسها أكثر في رقبتها، واحتضنتها متشبثةً بالجسد الذي لم يلبث أن سقط مرتطمًا بالأرض بجانب عشرات الجثث التي تساقطت قبلها من البرد والإنهاك! تحاملت لتحرِّك ذراعيها المتجمدين، وتحيط بهما «إيفا» كآخر محاولة لبثِّ بعض الدفء في جسدها، قبل أن تغمض عينيها للأبد! رفضت «إيفا» أن تفهم ما يحدث! رفض عقلها إدراك حقيقة أن أمها ترحل، فالتصقت بجسدها أكثر، وأغمضت عينيها محاولةً إقناع نفسها بأنه قد حان وقت

غفوة قصيرة في حضن أمها، حيث رائحتها المميزة تملأ أنفها، على الرغم من انسداده! انسالت دموعها، بينما يزداد ضغط ذراعيها حول الجسد الساكن، رافضةً ما حل به من سكون! «غفوة قصيرة يا أمي، وقد يرحمني الله وتطول مثل غفوتك تلك».

٤

ما الذي أتي به إلى هذه البقعة الموبوءة من العالم؟!

يمضي القطار في طريقه ببطء مخترقًا غلالة رقيقة من الضباب الأبيض تشي بالصقيع الذي يلف المكان بالخارج، وقد بدأت الثلوج في التساقط، وثقُل الهواء المحمل أساسًا برائحة الحرب والقتل والدمار؛ ليصبح جاثمًا على أنفاسه بشكل لا يطاق! يستند على الحائط الحديدي على يسار لوحة القيادة الرئيسية بما يثقلها من أنابيب متداخلة وأذرع صغيرة تحيط بذراع القيادة الرئيسي الكبير، ويعلوهم جميعًا جهاز مؤشر دائري ثم طاقتين زجاجيتين ضيقتين بالكاد تكشفان الطريق أمامه. مضى يتابع في ملل الجسد الأسطواني العملاق للجرار الذي يسبق مقصورة القيادة تلك في اختراق الغلالة الضبابية، وقد ارتفعت في مقدمته

مدخنة تنفث عوادم الفحم الذي يحترق بالفرن المضطرم(33) داخل الأسطوانة العملاقة. بجانبه يتحرك في آلية هذا المراهق البلغاري الشاحب الذي فرضوه عليه؛ ليعمل معه في قيادة هذا القطار على الأراضي البلغارية المشتعلة كمساعد له، ووقادًا يحمل بجاروفه الفحم من مخزنه بالعربة المربوطة بمؤخرة قاطرة القيادة بكميات معينة على فترات محددة؛ ليضعه في فرن الجرار من خلال فتحة دائرية صغيرة يشع منها الدفء تحت لوحة القيادة. أما باقي عربات الركاب أو نقل البضائع فقد فصلوها عن عربة الجرار بمقصورة القيادة وعربة مخزن الفحم اللتين تركوهما له؛ ليمرَّ بهما بين قرى ومدن بائسة، ومعه هذا المراهق المذعور دائمًا؛ ليزيده فوق اكتئابه ضيقًا وضجرًا، حتى وجهتهما الأخيرة، حيث سيتم تركيب عربات نقل ركاب جديدة لمقدمة هذا القطار!

دائمًا ما يدفعه عمله كسائق للقطارات إلى أن يترك بلده ألمانيا؛ ليعمل في خطوط سكك حديدية مختلفة، ويجوب أوروبا كلها في عربات قيادة كتلك التي يتابع الأشجار المتجمدة من خلف زجاجها الآن.. زار بلدانًا ومدنًا كثيرة.. تعامل مع كل أنواع البشر، ورأى وسمع ما لم يتح لغيره أن يطّلع عليه.. فهم كثيرًا عن طبيعة الحرب الدائرة هنا، ولكن

ما رآه منذ أن استقلَّ هذا القطار متوغلًا به في الأراضي البلغارية فاق كل ما رآه وسمعه من قبل! فاق حتى قدرته على الاحتمال! انتبه على صوت مجموعة من الراياه، وهم يسيرون بجانب الخط الحديدي هاتفين في حماس: «بلغاريا للبلغار» بشكل متكرر أثار حنقه الذي يحاول السيطرة عليه، ودَفَع بكل الأفكار المخزنة بداخله لتستيقظ في تتابع عجز عن إيقافه، فاستسلم له مسترجعًا كل ما يعرفه عن تلك الحرب التي بدأت أسبابها في التكون مع بزوغ شمس القرن التاسع عشر، حين تداخلت عوامل كثيرة أدت إلى هذا الجنون الحالي!

لا يعرف بالضبط لماذا بدأ تفكير البلغار في قوميتهم المستقلة؟! هل بسبب قدر من الانتعاش الاقتصادي، أم بسبب تأثرهم بالفكر السياسي الأوروبي؟ أم بسبب سوء الحكم العثماني؟ أم بسبب كل هذه الأسباب مجتمعة؟! ما يعرفه مما سمعه في أسفاره ورحلاته أن حركة القومية البلغارية بدأت بمحاولات الاستقلال الديني عن بطريركية إستانبول، وتأسيس كنيسة محلية للملة البلغارية، ومع إحراز بعض الانتصارات الصغيرة، بدأ التفكير في وضع سياسي منفصل لبلغاريا كلها عن الدولة العثمانية، في نفس الوقت الذي فشلت فيه انتفاضات متفرقة قام بها الفلاحون البلغار

ضد نظام الضرائب، وبدا واضحًا أن التخلص من الحكم العثماني لن يتم إلا بثورة شاملة! فتكوّنت لجان ثورية اتحدت كلها تحت ما عُرِف باسم «اللجنة المركزية للثورة البلغارية»، والتي أخفقت في عدة محاولات ثورية تم كشفها وسحقها، حتى اندلع منذ عام تقريبًا عصيان مسلح في البوسنة والهرسك، دعمته كل من صربيا والجبل الأسود (مونتنجرو) فأسرع الثوار لاستغلال انشغال الدولة العثمانية، والقيام بثورة جديدة محت بنجاحها إخفاقات الأعوام الماضية!

بدأ الأمر بما تم إشاعة أخباره في أوروبا تحت اسم «الأهوال البلغارية»، حيث تعرض بعض البلغار المسيحيين للقتل على يد الأتراك، ولم يكن ذلك في حقيقة الأمر سوى انتقام لما حدث قبلها من قتل عشوائي قام به البلغار ضد نحو ألف قروي مسلم تحت قيادة الزعيم الثوري «جورج بنكوفسكي»! بدأت أعمال العنف البلغارية ضد الأتراك والمسلمين المقيمين ببلغاريا بشكل عام؛ ليكتمل اشتعال المنطقة كلها في وجه الدولة العثمانية، وتحت أنظار الدول الكبرى التي حاولت كلها الوصول إلى تسويات ترضي شعوب البلقان، وتحمي مصالحها التي تقتضي منع انبعاث دولة عثمانية قوية في أوروبا، وفي نفس الوقت عدم قيام دول

مسيحية قوية بالبلقان، لذلك قامت روسيا باقتراح إصلاحات جديدة عن طريق تقسيم المنطقة إلى دويلات صغيرة متمتعة بالحكم الذاتي! رفضت الدولة العثمانية هذه الإصلاحات، وعاندت ظنًّا منها أن إنجلترا سوف تحميها من عصبة الأباطرة الثلاثة «روسيا وألمانيا والنمسا»، دون أن تتوقع أن الحكومة البريطانية سوف تخذلها تحت الضغط الشعبي الإنجليزي المتأثر بشائعات الأهوال البلغارية!

لذلك لم تجد روسيا بُدًّا من إعلان الحرب على الدولة العثمانية، وبدأ الجنون الفعلي يجتاح بلغاريا! الحرب تدور على ثلاثة مستويات! مستوى نظامي تمثله القيادة الروسية والفرق القوزاقية من ناحية والقوات العثمانية من ناحية أخرى! وقوات متطوعة تمثلها فرق الكوميتاس وهم الثوار البلغار أو العصاة كما يطلق عليهم العثمانيون، ويقابلهم فرق الباشي بوزوق أو القوات غير النظامية التي دفعت بها الدولة العثمانية إلى بلغاريا؛ لتدعم ضعف موقفها؛ نتيجة لانشغال الكثير من قواتها في حروب أخرى! وأخيرًا العصابات التي استغلّت الموقف لتقوم بالنهب والسلب والسرقة مثل عصابات الهايدوت البلغارية من ناحية، وبعض الأتراك والشراكسة المسلحين من الناحية الأخرى! وسط كل ذلك كان المدنيون العُزَّل هم الخاسرون الوحيدون! لم يكن من

السهل معرفة من قام بقتل أو نهب من؟! الجنون هو سيد الموقف!

لقد رأى هو كل ذلك من قاطرته المنطلقة بلا توقُّف! رأى المدنيين المقتولين والمشردين من كل طائفة ودين! ولكن لم يفُته بالطبع أن الغلبة كانت للجانب الروسي البلغاري؛ فهي لم تكن من البداية سوى ثورة بلغارية؛ للتخلص من الحكم العثماني، عن طريق قتل وترويع وطرد كل المسلمين من فوق هذه الأرض سواء كانوا أتراكًا أو شراكسة أو حتى بلغارا!

لقد رأى هو كل ذلك! رأى أرتالًا من اللاجئين الفارّين في الطرق، المنتقلين من مدينة إلى مدينة؛ بحثًا عن الحاميات العثمانية، المتجمدين بجانب محطات القطارات الصغيرة، والمتسلقين للقطارات محاولين الهروب، أو الرافضين مغادرة أماكنهم في العربات والقطارات حتى ولو لضروريات الطبيعة؛ خوفًا من استيلاء أحد على تلك الأماكن! رأى مشقةً وقسوةً فاقت تصوره واحتماله الإنساني، حتى أصبح سؤال: «ما الذي أتى بي إلى هنا؟!» يتكرر في رأسه ويعذبه بشكل لا يطاق! لا يمكن أن يكون قد أتى به الله إلى هنا؛ ليرى كل ذلك ثم لا يقوم بشيء سوى قيادة القطارات من مكان إلى آخر! هذا لا يُعقل! هذا هو العذاب بعينه خاصةً إذا ظلت كل تلك

المشاهد تؤلمه في نومه ويقظته بعد أن يترك تلك الأرض الموبوءة، ويعود إلى وطنه دون أن يجد قشة واحدة يتعلق بها في وجه طوفان الذكريات المؤلمة التي ستجتاحه!

انتبه عندما توقّف المساعد عن نقل الفحم، ومدّ يديه نحو لوحة القيادة؛ ليقوم بتهدئة السرعة قليلًا، وهما يقتربان من مجموعة من الجثث الملقاة! لم يكن المنظر جديدًا عليه فقد اعتاد رؤية أكوام الجثث المتجمدة على جانبي الطريق، ولكن ما قرره بداخله في أقل من دقيقة واحدة كان هو الجديد! تفاجأ مساعده بيد تزيحه عن لوحة القيادة، قبل أن يبدأ في تقليل السرعة بشكل ملحوظ؛ استعدادًا للتوقف!

- سيد «مولر»، أنت تعرف أنه لا يمكننا التوقف قبل الوصول إلى وجهتنا الأخيرة! سيد «مولر»، أرجوك!

كان المراهق البلغاري يهتف في ذعر والقطار يقترب من التوقف، و«مولر» لا يكلف نفسه عناء الرد عليه أو حتى النظر نحوه! قراره كان أقوى من القانون والتعليمات، كان أقوى من ضجره من هذا المساعد الرعديد، كان حتى أقوى من خوفه! يجب أن يجد ما يتشبث به أمام تأنيب ضميره في المستقبل! يجب أن يعلم إجابة هذا السؤال! «ما الذي أتى بي

إلى هنا؟!»، وإن لم يجد تلك الإجابة، فيجب أن يصنعها بنفسه!

٥

قفز «مولر» من باب القاطرة بعد أن أمر مساعده حازمًا بألا يتوقف عن تزويد الفرن بالفحم، ولكن بكميات أقل حتى لا تخفت حرارته، ثم بدأ يقترب من الجثث المبعثرة أمامه، مقاومًا الصقيع والهواء الشديد الذي استقبله، حتى كاد أن يستسلم ويعود أدراجه؛ ليحتمي من هذا البرد المميت! لكن ما لبث أن انقشعت لحظة الضعف تلك فأحكم إغلاق المعطف حول جسده، وهو يسرع من خطواته لينهي مهمة لا يعرف لها أولًا من آخر تحت أنظار مساعد بلغاري مرتعد ومتلفِّت حوله في ذعر!

وجد نفسه يجوس(34) بين عشرات من الفلاحين الفقراء المتجمدين! يدقُّ قلبه بعنف وهو يحاول كبت دموعه، وقد ثقلت أنفاسه لا يعلم من جراء البرد أم من العذاب المتمثل أمام عينيه! بدا البحث عن أحياء وسط كل هذا الموت الملقى على الأرض والمعلق في الهواء ليس إلا لوثة جنون! بدأ يشعر بحماقته! من هو حتى يستطيع أن يفعل شيئًا أمام

إعصار مدمر كهذا؟! هل كان مساعده الجبان أكثر حكمة منه؟! زفر في يأس، واستدار ليعود إلى القاطرة عندما التقطت أذناه فجأة صوت بكاء خافت! عاد مسرعًا يتبع أذنيه كمن أصابه مسٌ في عقله! إنه لا يحلم ولا يتخيَّل! هناك صوت لا يستطيع تحديد مصدره، ولكنه موجود! تطأ قدماه الرؤوس والوجوه والأجساد، فيتجاهل هذا الشعور اللزج الذي ينتشر في شرايينه، وقد سيطرت عليه رغبته في الوصول إلى هذا الصوت، وكأنه يملك مفتاح النهاية لتلك الحرب! توقف فجأة عندما علا الصوت فجأة عند جثة امرأة ملقاة، وقد انتفخ رداؤها فوقها بشكل مريب! تملَّك الذعر من قلبه وهو يتخيل أشياء مرعبة وغير منطقية! المرأة تبدو ميتة لا شك في ذلك! ولكن ذراعيها ملتفان حول شيء أو كائن مختبئ تحت ردائها، وهو لا يستطيع أن يقوم بتخمين ما يمكن أن يجده هناك، ووسط كل هذا الجنون لا يوجد حدود لخياله المنهك!

تشجَّع قليلًا، ومدَّ يدًا مرتعدة، وبدأ يرفع الرداء ببطء! هدأت فرائصه عندما اتضحت قدمان صغيرتان، وبدأ اطمئنانه يعود شيئًا فشيئًا كلما ارتفع الرداء تحت يده، حتى بدت «إيفا» كلها ملقاة فوق جسد أمها العاري بنصف وعي، ودموع منحدرة فوق وجهها الملتصق بعنق أمها الميتة! شهق

«مولر» بعنف! إنها حية! الوحيدة التي استطاعت أن تتمسك بأهداب الحياة حتى الآن! ويبدو أنها استطاعت فقط بفضل ما فعلته أمها! كتم دموعه المتجمعة في حلقه، وأسرع يحمل الطفلة الهزيلة ويدسها بين ملابسه ومعطفه، مقتديًا بأمها وهو يركض مسرعًا حتى وصل عند القاطرة! رفعها حتى يلتقطها مساعده الذي تسمَّر مكانه، وهو يهتف بصوت مبحوح:

- سيد «مولر»، أنت تعلم أنه غير مسموح لنا باصطحاب أحد!

- ارفعها الآن على مسؤوليتي!

- سيد «مولر»، هذا مخالف للقانون!

كان صوته المراهق مستفزًا بالنسبة لـ«مولر»، الذي كان متعبًا من البرد والركض، وهو يحمل الطفلة، ومن كل المشاعر التي ضربته في الفترة القصيرة الماضية، فوجد نفسه يصرخ في عنف:

- ارفعها يا جبان، وإلا ألقيت بك وسط الثلج، وتركتك

تتجمّد مع هؤلاء!

شحب وجه المساعد المرتعد، فأسرع يحمل الفتاة، ويبتعد بها خطوتين؛ ليفسح المجال لـ«مولر» الذي تسلق الدرج، وأسرع يُعمل يديه في لوحة القيادة، آمرًا مساعده بتزويد جرعات الفحم بنبرة عنيفة دفعته إلى أن يضع «إيفا» في أحد الأركان في ذعر، قبل أن يشرع في تنفيذ ما أُمِر به بسرعة وخوف. بدأت القاطرة تعود للتحرك ببطء مبتعدةً في طريقها، وما أن عادت لتثبت عند سرعتها الأصلية حتى ترك «مولر» لوحة القيادة؛ لمراقبة المساعد، وأسرع ينحني على «إيفا» في لهفة؛ ليغطيها بمعطفه، وبكل ما عثرت عليه يداه من دثارات صوفية، وهو يفرك أطرافها ليعيد الدفء إليها ويحيها من جديد! ظلت عيناه معلقتين بوجهها في ترقُّب وخوف، حتى بدأ تنفسها يعلو مرة أخرى وجسدها يهدأ وترتفع حرارته!

فتحت «إيفا» عينيها لتجد عينين خضراوين تتأملانها بشغف، قبل أن يبتسم صاحبهما متنفسًا الصعداء في سعادة وكأنه أب أنقذ ابنته من موت محقق! لا يهم من تكون تلك الفتاة الصغيرة بالنسبة له! المهم أنه يعلم الآن لماذا أرسله الله إلى تلك البقعة الموبوءة من العالم!

٦

رأت «إيفا» كثيرًا، أكثر مما تتحمَّل روحها الصغيرة، رأت ما ستعجز طوال عمرها عن نسيانه أو حتى التأقلم معه وهو مُخزَّن في ذاكرتها التي تشبثت به وأصبح يحتلها، أصبح جزءًا ثقيلًا يشدها دائمًا نحو أعماق بهيمة(35) داخل روحها مهما حاولت أن تتخلص منه لتتنفس بحرية! منذ أن استردَّت وعيها في هذا الصندوق المعدني الذي يسير بلا توقف فوق خطَّي الحديد الذي ماتت أمها بجانبهما وهي متكومة داخل طبقات من الأغطية الصوفية في ركن يطل على فتحة صغيرة تتفرج منها على العالم الخارجي. رأت آلاف ينامون في شوارع المدن في حالة لا توصف من البؤس والقذر والمرض، وآلاف وصلوا المدن يكاد الإنهاك أن يقتلهم بعد أن ساروا لساعات طويلة؛ للحصول على حصة هزيلة من الطعام تتصدق بها الحكومة، وقد مات الذين لم يستطيعوا أن يصلوا مثلهم من جراء الجوع أو البرد بعد أن نُهِبت وأحرقت قراهم بكل ما فيها بوحشية من ينتهج سياسة إبادة ثابتة ولا يخوض حربًا متكافئة. زاغت عيناها من الصدمة عندما رأت في إحدى المدن مجموعة نساء وفتيات جاثمات معًا وعاريات كما ولدتهن أمهاتهن، بعد أن سقطت

الخرق البالية عن أجسادهن كلية!(36) كيف يمكن بعد أن رأت كل ذلك أن تستعيد ثقتها في عالم فقد كل إنسانيته، وأصبح مرعبًا وموحشًا ومخيفًا حتى إنها تمنَّت ألا يتوقف هذا القطار أبدًا! هؤلاء الهائمون على وجوههم في الجبال والأحراش ليسوا أكثر بؤسًا من المتكومين في المدن، وعلى أرصفة المحطات المختلفة في انتظار طويل ممض(37) عادة لا ينتهي إلا إلى نهايات أكثر مأساوية مما يحدث لهم الآن!

وعندما تلتفت وتنظر أمامها تجد مراهقًا هزيلًا لا ينظر نحوها أبدًا، وكأنه لا يشعر بوجودها، مع أنه يتحدث لغتها بطلاقة، عكس هذا الرجل الآخر ذي العينين الخضراوين! هذا الذي حملها إلى هنا، ودثَّرها بتلك الأغطية الصوفية، ولا يكفُّ عن تزويدها بالطعام وتأملها بحنان كأنها كنزه الصغير! كأنها هي التي أنقذت حياته وليس العكس! حاول أن يتحدث معها ببلغاريته الركيكة، فهمته، لكنها لم تستطع أن تجيبه! حاولت أن تفتح فمها وتحرك لسانها، لكنها عجزت، عجزت عن التخلص من هذا الذي ظل يكتم صوتها دون هوادة منذ أن رأت أخاها وهو يهرب!

تستمر القاطرة في طريقها، وتواصل هي مشاهدتها التي

على الرغم من قسوتها تلهيها عن ذكرى أمها، لا تعلم إلى أين يأخذها هذا الصندوق الحديدي، وسائقه الذي أصبح يمثل مصدر الأمان الوحيد بالنسبة لها!

٧

يختفي جسدها الصغير داخل غطاء صوفي رمادي خشن تضم أطرافه أمام صدرها بيدها الصغيرة، بينما اختفت يدها الأخرى داخل قبضة «مولر» الذي أمسك بها بقوة، وهو يخترق الحشود المزدحمة في شوارع مدينة صغيرة من تلك المدن التي احتلتها القوات العثمانية، وتحولت إلى حامية عسكرية تحيط بها المتاريس، وتمتلئ شوارعها باللاجئين الفارين من كل أنحاء بلغاريا. متكومون في الأركان والزوايا وقد أنهكهم الجوع والخوف والبرد، وتبخرت إنسانيتهم التي تغلبت عليها غريزتا البقاء والأنانية، وأضحت عيونهم منطفئة بلا روح!

يسحبها «مولر» خلف خطواته السريعة، فتتعثر قدماها الصغيرتان، ويتناثر شعرها فوق وجهها الذي برزت عظامه حول عينيها الغائرتين وهما تتأملان باندهاش هؤلاء الذين يستجدون أو يحاولون بيع مقتنيات بائسة دون جدوى، أو

حتى يتكومون مستندين على حوائط البنايات، وقد تدلت فوق رؤوسهم رايات السلطان الحمراء ذات الهلال في شموخ لا يليق بالوجوه البائسة التي تجلس تحتها!

توقفت عندما توقف «مولر» أمام مبنى حامية القيادة، حيث تحدَّث مع واحد من الحراس حديثًا سريعًا أجلسها على إثره مستندةً على الحائط قبل أن يختفي داخل البناية! ازداد انكماشها تحت الغطاء الصوفي وهي تراقب عشرات من البائسين المفترشين الأرض حولها في انتظار طويل لا تعلم متى بدأ، ولا يعلم أحد متى سينتهي! التفتت عندما أحست بحركة بجانبها؛ لتجد رضيعةً ذات ملابس متسخة تتسلق قدمها، وترفع رأسها لتتأملها بعينيها الواسعتين الممتلئتين بدهشة ممتزجة مع براءتها الطفولية! لأول مرة منذ أن فقدت «إيفا» قدرتها على الكلام تتسع شفتاها في ابتسامة خافتة بادلتها إياها الرضيعة بابتسامة مماثلة، قبل أن يرتفع صوت امرأة تجلس قريبًا مناديةً إياها! تركت الرضيعة نفسها تسقط على مؤخرتها، والتفتت لتحبو نحو أمها التي تلقَّتها بين ذراعيها وهي تلاعبها باللغة الشركسية التي تعرفها «إيفا» جيدًا؛ بسبب جيرانهم الشراكسة! جذب عينيها ضجيج على الناحية الأخرى، حيث وقف شاب في الزي العسكري العثماني يتشاجر مع بعض الحراس! على

الرغم من أنهم كلهم ينتمون إلى جيش السلطان، إلا أنه كانت هناك فروق بين هذا الشاب وبين من عداه! فعلى الرغم من بشرته البيضاء وشعره ولحيته البنيتين الناعمتين وعينيه السوداوين الواسعتين، إلا أنه لم يكن تركيًا مثلهم، حتى وإن كان يتحدث معهم بتركية صحيحة تمامًا، إلا أنها أحست أنه ليس تركيًا مثلهم! ولكن الفارق الواضح الذي لم تكن لتخطئه عين، هو هذا الكم الذي تدلى بجانبه خاليًا من الذراع اليسرى!

شيء غامض لا تعلمه يجذبها لمتابعة هذا الشجار الذي انتابها إحساس خفي لا تعلم مصدره بأن شيئًا يخصها متعلق به! ازدادت حدة الشاب، وانتفخت العروق في وجهه المصطبغ باللون الأحمر، وهو يلوح بذراعه المتبقية، ويعنِّف الواقفين أمامه عاجزين عن تهدئته غارقين في حرجهم، والأعين كلها مركزة عليهم، عندما حجب «مولر» بجسده الضخم المشهد كله عن عينيها! فجأة نسيت هذا الذي كانت تشاهده، والذي ظلَّ مستمرًا في الخلفية، بينما تعلَّقت عيناها بوجه «مولر» الذي جثا ليصبح أمامها مباشرة. زفر وهو يبتسم محاولًا السيطرة على مشاعره التي بدت واضحة في عينيه الملتمعتين، وهو يقول بلغته التي لا تفهم منها حرفًا، لكنها تشعر بمعنى ما يقوله من نظراته وقسمات وجهه:

- أعلم أنني لن أراك مرة أخرى، ولن أعرف اسمكِ أبدًا! سأرحل من هنا، لن أستطيع أن أبقى بعد كل هذا الذي رأيته! ولكنني وجدت لكِ مكانًا آمنًا أتمنى أن تعيشي فيه مطمئنةً ما تبقى من حياتِك.

ابتسم وهمَّ بالنهوض، لكنه توقَّف وعاد لينظر نحوها مرة أخرى، وهو يقول بملامح متأثرة:

- لا تظنين أنك ستعيشين محملةً بجميل صنعته لكِ! لو تعلمين حقًّا ما صنعتِه لي وكيف أنقذتنني من عذاب لا قِبل لي بأن أعيش معه طوال عمري لفهمتِ جيدًا أنني أنا المدين لكِ بالكثير!

كانت عيناها لا تزالان متعلقتين بعينيه عندما أحنى رأسه ليطبع قبلةً على جبهتها الباردة، وينهض مبتعدًا في سرعة، وهي تتابعه دون أن تدرك شيئًا من هذا الذي حدث منذ لحظات قليلة! لكنها سرعان ما اضطرت للانشغال بالنهوض مع ثلاث من النساء الشركسيات واحدة منهن هي أم الرضيعة الصغيرة، والاثنتان الأخريان تمسك كل واحدة منهما بطفلين صغيرين! سارت «إيفا» معهن بأمر من أحد

الحراس حتى وقف الجميع أمام عربة خشبية مسطحة، وبدأ يساعدهن للجلوس فوقها: «ثلاث سيدات بأطفالهن وهي وحدها بلا أم!» كان الحراس منهمكين في ربط الفرس بالعربة عندما فوجئت «إيفا» بهذا الشاب الذي كان يتشاجر منذ قليل قد أقبل عليهن، ووقف يداعب الفرس وقد خفَّ تجهُّمه قليلًا!

فهمت «إيفا» من أم الرضيعة التي شرحت لها ببلغارية بسيطة ما حدث وما سيحدث! هذا الشاب شركسي كان من جنود الجيش السلطاني، وأعفوه من مهامه نتيجة لفقدانه لذراعه اليسرى في إحدى المعارك! وقد كلفوه في الحامية باصطحاب النساء الشركسيات الوحيدات اللاتي بقين في المدينة إلى قرية آمنة، حيث تقطن عدة عائلات شركسية مستقرة في جنوب بلغاريا منذ النزوح الكبير، وما المشاجرة التي حدثت بينه وبين الحراس إلا لأنهم كانوا يريدون أن يأخذوا منه فرسه؛ لأنه توقَّف عن الخدمة في جيش السلطان، فلم يستطع أن يتمالك نفسه وثار عليهم ثورة اضطرتهم لترك فرسه، وإمداده أيضًا بتلك العربة؛ ليحمل عليها النساء الشركسيات وأطفالهن وتلك الطفلة البلغارية التي ألحقها بالركب الشركسي هذا الرجل الألماني العجيب الذي دخل مبنى الحامية وخرج واختفى أثناء مشاجرته مع

الرجال!

تحركت العربة وهن يهتززن فوقها خلف الشاب الشركسي الذي أمسك بلجام الفرس السائر بجانبه في الشوارع نحو طريق يقودهم خارج المدينة، هذا الشاب يعرف الطريق جيدًا، لكنه لا ينظر خلفه نحوهن، وإن نظر فنظرة خاطفة من خلف ملامح متجهمة لا تلين قليلًا إلا مع فرسه فقط! طوال الرحلة لم تفعل «إيفا» سوى الشيء الوحيد الذي أصبحت تُحسنه منذ أن أفاقت في القاطرة، وهو المشاهدة والتأمل! تتأمل النساء وأطفالهن، تتأمل الفرس وظهر هذا الشاب الغريب، وذراعه الغائبة، وتتأمل الجبال والأشجار التي تحيط بها! تتفرج وتتلهى عن تذكُّر كل ما ومن فقدت! تتفرج وتحاول بلا جدوى نسيان ما رأته في الأيام الماضية، وسيظل دائمًا يتردد في كوابيسها! كأنه الآن خلفية هذا الطريق، يدور صورًا متتالية أمام عينيها ويتردد كلماتٍ متتابعةً في أذنها!

٨

(38)صاحب السعادة،

المحترم بحق،

السير هنري ليرد جي سي بي،

تسمح الحكومة الروسية للمسيحيين بأن يأخذوا حقهم بالقوة، وأن يزوروا الأحياء التركية حاليًا كيفما اتفق مع إراقة دماء وسلب ونهب من دون تمييز. إن النتيجة هي أمام العالم الآن، آمل أنا، الذي لم أكن مترددًا يومًا في شجب سوء الحكم المحلي التركي، أن أُصدّق عندما أصرّح بأن الحالة البغيضة للأمور السائدة الآن هي من نوع أكثر انتشارًا وقسوةً وهمجيةً، وعلى نحو لا يضاهي ذاك الذي كان مقصودًا ظاهريًا أبدًا. أنا أتحدث طبعًا عن النظام التركي المألوف الذي هو وحده يمكن تطبيق المقارنة العادلة عليه. إذا كانت الأهوال التي حدثت في أيار عام ١٨٧٨ سيستمر الإلحاح عليها، فيجب التذكر أنها كانت نتيجة السخط والذعر اللذين ولّدتهما تقارير عن أعمال وحشية خسيسة ارتكبها البلغار ضد أناس مسالمين، وأن حقيقة الطراز المتميز من الأعمال الوحشية، في المرحلة التالية للمأساة في البلقان فوق مفليس (Muflis)في منطقة قزنلق، شهد عليها عدة أطباء إنجليز قاموا بفحص أجساد الضحايا. من ناحية ثانية، إن الأعمال الوحشية التي مورست على المقيمين المسلمين

في منطقة قزنلق نفسها، ليس لأنهم لم يقوموا بأي استفزاز فحسب، بل ووقفوا إلى جانب البلغار، وحموهم من التحرش خلال المشكلات الأولى، والمحاولات المتعمدة والناجحة جزئيًا لإبادة الذكور البالغين من السكان الأتراك لهذه المنطقة بإعدامات بالجملة وبدم بارد، يجب أن تُعد على الأقل توازنًا مقابلًا لمذابح البلغار في منطقة بازارجق التترية، حيث كان هناك استفزاز لا يمكن إنكاره.

إن التجاوزات التي ارتكبها المسلمون في مناطق شمال البلقان، بحسب علمي، وكما أُخبرت في البلقان الجنوبي أيضًا، وفوق ذلك في الرهودوبة في الوقت الحاضر، كما نُقل مؤخراً، اقتصرت على مضايقة القرى المسيحية. أما المسيحيون في ظل الحكم الروسي البلغاري، من ناحية أخرى، فقد صبوا جام غضبهم من دون تمييز على كل السكان المسلمين، وبهدف معلن هو التسبب في طردهم من البلاد.

من ناحية ثانية، لو وضعنا الحوادث الاستثنائية الناجمة من أسباب استثنائية بخصوص الأتراك جانبًا، واتخذنا الوضع المألوف للبلد قاعدة للمقارنة، لاستطعت أن أقول إنه في حين حدثت حالات سرقة واغتيال لمسيحيين على نحو إفرادي في ظل الحكم التركي، فإن قرى مسلمة كاملة هي

الآن عرضة لتلك المعاملة، وفي حين كانت للسلطات التركية على الأقل فضيلة التصريح بالرغبة في تقديم تعويض، فإن الحكم الروسي في تركيا لا يقدم حتى هذا التنازل للرأي العام.

إن حالات اعتداءات الأتراك على الإناث المسيحيات، في الأوقات العادية، أقل حدوثًا بكثير مما يُظن عمومًا في الوطن. عندما تحدث حالة واحدة من هذا النوع فإنها تُحدث اضطرابًا في كل الإقليم. منذ الاحتلال الروسي، ليس من المبالغة القول إن البلغار في المناطق الريفية يعتدون ساعة يشاؤون على النساء والفتيات التركيات جملةً.

أصبح رفاه الفلاحين البلغار المادي في ظل الحكم التركي حقيقة مسلمًا بها، وروح حسن الضيافة لدى التركي على نطاق شعبي أو فردي يُضرب به المثل. والآن، وبعد أن هيمن البلغار، فإن هدفهم (وفي هذا، أقول بأسف، يشاركهم قسم ليس بصغير من سكان الريف اليونانيين) هو تدمير التركي بكل ما في الكلمة من معنى وإخراجه من وطنه في أوربة بحرمان الفلاحين المسلمين من مورد رزقهم المستقل الوحيد، وهو مواشيهم، وتجريدهم من جميع أموالهم وممتلكاتهم الشخصية، فإنه من الواضح أن القصد هو دفعهم

إلى التخلص من حقولهم العديمة الفائدة أو هجرها، وإلى تنزيل الأتراك الذين يبقون في البلد إلى منزلة عمال حقل، مكانة حياة غير معروفة حتى اليوم عند جميع السكان باستثناء جزء صغير منهم.

من ناحية أخرى، فيما يتعلق بإهانات في أمور ذات صلة بالدين، أستطيع أن أجزم بخبرة سنوات عديدة أن حالات من هذا النوع كانت نادرة الحدوث في ظل النظام التركي، في العصر الحديث على أي حال، عومل كهنة الدين باحترام دائم حتى إشارة ازدراء تافهة كإطلاق طلقة على كنيسة فارغة تشغل جمهور الإقليم بكامله وتصبح شأنًا رسميًا. في ظل الحكم المسيحي الحالي، لم يفلت مسجد واحد من عشرة من التدمير، حتى في مدينة أدريانوبلة هذه.

إذا كان سلوك الأتراك بطريقة شخصية نحو المسيحي الأصلي متعجرفًا أحيانًا أو من نواحٍ أخرى بغيضة (لم يكن هذا مألوفًا) فإنه لم يتخذ تحت أي حال من الأحوال الأنماط الجبانة والساخرة التي اتخذها البلغار نحو العنصر السائد منذ عهد قريب كما في «قرق كليسا» حيث تعودوا إجبار المسلمين على حملهم على ظهورهم والطواف بهم في الشوارع.

أخيرًا، فيما يتعلق بالدوائر الحكومية، بإجماع دولي، إن الفساد والارتشاء التركيين في أسوأ حالاتهما هما النقاء بعينه مقارنة بنظيريهما الروسيين المحليين.

باختصار، بعد أن كان لي الشرف بتقديم المذكور آنفًا، كشفت نتائج النظام الروسي في تركيا الأوروبية في كل وجهة نظر عن طبيعة أحقر على نحو متميز من طبيعة سوء الحكم التركي التي ناسبت روسيا دافعًا أو ذريعة للحرب الأخيرة.

يشرفني أن أكون، مع فائق الاحترام، سيدي، خادم سعادتكم المتواضع والأكثر إطاعة.

إدمند كلفرت.

القنصل بالنيابة.

* * *

استيقظت «إيفا» في هذا الصباح على أصوات النساء وأطفالهن حولها، وهم يحاولون إخفاء فرحة سرت بينهم

عندما ظهرت المدينة التي ينشدونها على مرمى البصر، مجموعة من البيوت المتراصّة وسط الحقول والأحراش الواسعة على سفوح تلال خضراء ذات قمم ثلجية. اعتدلت في جلستها بنصف وعي خدره النوم بينما تتأمل بالنصف الثاني ما حولها ذاهلة. لماذا لا تشعر بفرحة مثل هؤلاء النساء وأطفالهن؟! فرحة يبقونها خافتة خوفًا من هذا البائس ذي اللحية البنية الكثيفة والذراع الواحدة والملامح العابسة التي جعلتهن يشعرن بأنه لن يسمح بأي حركة مغايرة أو أي علامات للسعادة أن تظهر فوق عربة هو قائدها! لماذا أصبحت لا تشعر بالحزن على ما فقدت وعلى كل ما حدث؟! لماذا لا تشعر حتى بالخوف من المجهول المقبلة عليه في هذه البلدة الجديدة؟! ولماذا يبدو أنه مثلها بالضبط؟! يسير في طريقه كما هو! لا يشعر بشيء! هذا البائس ذو اللحية البنية الكثيفة والذراع الواحدة والملامح العابسة!

الفصل الثالث

عودة إلى أكتوبر ١٩١٢ – رازالق – جنوب بلغاريا حاليًا

تتكئ «آيسل» بذراعها على حافة النافذة، مستندةً بذقنها عليها، وهي تشرد ببصرها نحو شيء في الخارج لا تتبينه «مِيري» من مجلسها في منتصف غرفتها، حيث تترك «حسن» منهمكًا في تناول قطعة خبز صغيرة، وتتحرك نحو «آيسل» لتجلس بجانبها، وتمد بصرها نحو ما تنظر هي نحوه. تنقل بصرها بين «آيسل» الغارقة في التأمل وبين مجموعة رجال القرية الواقفين في الخارج مع «عمر الريحاني» المستغرق في مساعدتهم في حمل الأغراض، ووضعها فوق اللوح المسطح لعربة خشبية كبيرة، وقد خلع عمامته وقميصه، والتمع شعره البني الناعم وعضلات صدره المشعر تحت أشعة الشمس المائلة نحو الغروب.

- إلام تنظرين؟!

تسأل «مِيري» بعدما تعجز عن الفهم، فتجيب «آيسل» دون أن تلتفت نحوها، وعلى شفتيها ابتسامة والهة:

- إليه!

- مَن؟!!

- هذا الغريب الذي سنرحل معه.

- «عمر الريحاني»!

تلتفت «آيسل» نحوها، وتتسع عيناها وهي تقول في إعجاب:

- اسمه «عمر»؟!

ثم تعود لتنظر نحوه مرة أخرى، وهي تقول وابتسامتها تتسع:

- اسم جميل.

تسأم «مِيري» من محاولات الفهم دون جدوى، فتهتف متسائلةً في تضجر:

- لماذا تنظرين نحوه هكذا؟!

تنظر «آيسل» نحوها، وتسأل وحدقتاها تتسعان في دهشة:

- ألا ترين؟!

- أرى ماذا؟!

ترفع كتفيها وتعود لتتأمله، وهي تجيب بنبرة تمتلئ شغفًا:

- وسامته! وقوته!

تتجمّد ملامح «مِيري» للحظات وقد صدمتها الكلمات، لكنها سرعان ما تومئ إيماءات سريعة متتابعة متظاهرة بالفهم؛ حتى لا تبدو أمام «آيسل» غير مدركة لما تقوله. تعود لتنظر نحو «عمر» مرة أخرى مستعيدةً ما قالته ابنة خالتها، ومحاولةً استيعابه دون جدوى! فتلك الطفلة ذات التسع سنوات لن تستطيع أن ترى في «عمر الريحاني» سوى رجل من الرجال الكبار الذين يشبهون أباها، وهو بالطبع مختلف عما بدأت تراه عينا الأخرى التي تدفعها أعوامها الثلاثة

عشرة لتتحسس أولى خطواتها في طور(39) المراهقة! الأربع سنوات اللاتي تفصلهما كانت كافية جدًا لتتحرك بداخل «آيسل» أشياء كان من الصعب جدًا على «مِيري» إدراكها!

- خالي «تيمور» يقول إنه يخاطر بحياته ليساعدنا وهو غير مضطر لذلك.

تتحدث «آيسل» بنفس النبرة الشغوفة المتحمسة، و«مِيري» تتابعها وهي تومئ برأسها في آلية محاولةً الحفاظ على تظاهرها بالفهم والتفاعل. تنتبهان فجأة عندما يصلهما من الغرفة الخارجية صوت «فاطمة»، وهي تتحدث باكيةً بنبرة أخافتهما فتنهضان مسرعتين، وتركضان حتى تتوقفا متسمرتين على باب الغرفة محملقتين في «فاطمة»، وقد فقدت كل قدرتها على الاحتمال والتظاهر بالثبات، ووقفت تبكي في انهيار، حتى إنها تبدو وكأنها تكاد تفقد توازنها، لولا يدي تيمور الممسكتين بكتفيها محاولًا تهدئتها، بينما هي تهتف من خلف دموعها متوسلةً إياه:

- أرجوك يا «تيمور».. دعك من أمر الرحيل هذا.. فلنبقَ هنا في بيتنا أفضل..

تتسع حدقتا «تيمور»، وهو يهتف في عدم تصديق:

- ماذا تقولين يا «فاطمة»؟! تريديننا أن نبقى لننتظر الموت المحقق هنا!

- نموت في بيتنا في سلام أفضل من أن يتعقبونا ويقتلونا ونحن نفرُّ كالفئران المذعورة.

تراجع «تيمور» فجأة مبتعدًا عنها، لأول مرة ترى «مِيري» أباها وقد انقلب تعاطفه واحتواؤه بهذه الطريقة، وترى ملامحه تتحول نحو هذا الغضب ونبرته نحو هذه العصبية وهو يهتف في إصرار:

- لا يا فاطمة! والله لن يحدث هذا أبدًا! لن أستسلم لهم بهذه السهولة! لن أقدم حياتنا ومستقبل أبنائنا لقمةً سائغةً لانتقامهم الأعمى ومصالحهم المجحفة وخلافاتهم الطامعة! كفانا ما أُخِذ من آبائنا وأجدادنا! يجب أن أقاومهم يا «فاطمة»!

- تقاوم بالهروب؟!

- بل بالحفاظ عليكِ وعلى أبنائنا، والبحث عن بداية جديدة! إن كان قد كُتِب علينا أن نظل فاقدين لوطننا الحقيقي طوال عمرنا، فلا نكف إذن عن البحث عن الحياة الآمنة التي نستحقها.. ليس إيماني ضعيفًا يا «فاطمة» لأجلس مستسلمًا منتظرًا الموت في سلام، متمنيًا بقلبي ألا يحدث ذلك، بل سأجعله لا يحدث بيدي.

تنتفض الفتاتان عندما تجدانه يلتفت نحوهما آمرًا في حزم:

- هيا يا «آيسل» لأعيدك إلى منزلك.. يجب أن تساعدي أمك في حزم الأغراض.. كفاكِ لعبًا مع «مِيري».

متسمرة مكانها، تراقب «مِيري» أمها وهي تنهار جالسة على الأريكة منخرطةً في بكاء صامت و«حسن» يقترب منها بخطواته الصغيرة المتعثرة حتى يلتصق برجلها، محدقًا نحوها في حيرة وذهول، بينما يمرق «تيمور» خارجًا من المنزل وهو يجرجر خلفه «آيسل» المتعلقة بكفِّه في استسلام.

تتباطأ خطواته قليلًا، ويهدأ انفعاله وهو يقترب من قلب

المدينة، حيث يستقبله استنفار القلة المتبقية من الجنود العثمانيين، وتوجُّسهم وسط جو عام مشحون بتوتر يشم «تيمور» رائحته تنبعث من الأجساد، ويرى أماراته بادية في العيون. خوف متبادل بين المسلمين من ناحية، أتراك وبلغار وشراكسة، وبين السكان المسيحيين من ناحية أخرى! المسلمون يخشون ما يمكن أن يفعله المسيحيون بهم إن وصلت القوات البلقانية، يخشون أن ينضمَّ المسيحيون لها، ويتسلحون بسلاحها، ويشاركون في الإرشاد عن المسلمين وإبادتهم، كما حدث في كثير من المدن! والمسيحيون يخشون أن تفقد القوات العثمانية أعصابها من جراء هذا الخطر المحدق، فتبادر بقتلهم ويساعدها في ذلك السكان المسلمون كما حدث في مدن أخرى!

يمرق «تيمور» قريبًا من مبنى الحامية العثمانية، حيث يقف الجنود العثمانيون محتمين بمتاريسهم، متظاهرين بالثبات والثقة، كما تريدهم قيادتهم، بينما خوفهم يكاد يفتك بقلوبهم. فإذا كانت القيادة العثمانية لا تزال تحتفظ بغرورها ووهم تفوقها حتى أن تكون أكبر اهتمامات وزير الحربية ألا ينسى ضباطه ملابس التشريفة؛ لأنها ستلزمهم في عروض النصر التي سيقومون بها في مدينة صوفيا، فإن هؤلاء الذين يشعرون بدبيب الهزيمة تحت أقدامهم وهم يعيشون وسط

حلقة نار تضيق حولهم كل يوم يعرفون الحقيقة. يعرفون أن القوات البلقانية تقترب وتبيد وتنتصر، وأن الأراضي العثمانية في أوروبا تسقط تحت أقدامهم كل يوم قطعةً قطعةً، وهم يجتاحونها بسرعة مخيفة أمام العثمانيين الذين سيتعين عليهم قريبًا جدًا أن يخشوا سقوط إستانبول نفسها!

يعبر مبنى الحامية وما حولها بخطوات متوترة، ثم يمضي بين المنازل المخصصة للعاملين بها وأسرهم حتى يصل عند آخرها. هناك عند الأطراف حيث يبدأ الحرش الصغير ذو الأشجار المتشابكة، والذي يمتد ليتصل مع الغابة المحيطة بالمدينة يقبع المنزل الصغير الذي اختير مكانه بعناية؛ ليكون هو وقاطنته بعيدين عن كل العيون ومعزولين عن كل شيء!

يترك «تيمور» «آيسل» أمام الباب، ويستدير عائدًا بخطوات سريعة. لن يغامر بالدخول حتى وإن كانت «آيسل» هنا! حتى وإن كان الجميع يعلم أنه قريب «رقية» وزوج أختها! حتى وإن كانوا ينوون الرحيل غدًا دون أن يتركوا خبرًا بمقصدهم النهائي؛ لأنهم ببساطة لا يعرفون أكثر من اسم الميناء الذي إن وصلوا إليه أحياء سيبدأون بالبحث عما يقلهم إلى أي وجهة آمنة! حتى وإن كانت احتمالات عودة الزوج من إستانبول ضئيلةً جدًا بعد أن تم استدعاؤه على

وجه السرعة حتى إنه اضطر كارهًا أن يترك «رقية» و«آيسل» ويرحل وحيدًا! حتى وإن كان الأمل في أن يلتقوا به مرة أخرى معدومًا تقريبًا! حتى وإن كان الوجود العثماني نفسه الذي يعطي معنى وقيمة لسلطته على وشك الانتهاء من فوق هذه الأرض! حتى وإن كان كل ذلك صحيحًا، فلن يغامر «تيمور» أبدًا بأن يهمس أحدهم في أذن هذا الرجل بشيء يجعله يستخدم ما تبقى من سلطته ضدهم! مهما هزلت تلك السلطة، لن يجرؤ من كان في مثل ضعفهم أن يواجه من يملك مثلها! فما بالك إن كان من يملكها هذا يملك معها قلبًا يمتلئ دومًا بالغيرة والشك!

يكتمل غروب الشمس عندما يدخل تيمور المنزل مرة أخرى ليجد «فاطمة» لا تزال جالسةً في مكانها، وقد أنهكها البكاء، و«مِيري» تجلس متربعةً أمامها على الأرض تراقبها في قلة حيلة، بينما «حسن» قد استقرّ في حِجرها مستغرقًا في النوم.

يقترب «تيمور» من «فاطمة» بخطوات بطيئة، وقد وخز قلبه شيء من الندم، بعدما عنّفها وتركها تبكي حتى وهنت هكذا، وهو يعلم جيدًا كيف يحرق الخوف قلبها كل يوم، ويضع على حملها حملًا يثقل صدرها، ويزيد إنهاكها وتعبها.

يجلس بجانبها ويحتضنها كأنه يعتذر بضمِّها إلى صدره، حتى يشعر بارتجافها يهدأ، فيعينها على النهوض والمشي نحو غرفتهما، وهو يطلب من «مِيري» أن تحمل «حسن» وتضعه في فرشتهما، وأن تنام هي الأخرى استعدادًا للغد.

يفرد «تيمور» جسده بجانب «فاطمة» بعد أن يُرقِدها ويطمئن عليها، وقبل أن تبدأ رحلتهما في الحملقة في ظلام الغرفة. يجافيهما النوم ويهجر فراشهما هذه الليلة. من يحمل قلبًا راجفًا لا يسكن جفناه، وهما يحملان قلبين يكاد رجف الخوف أن يمزقهما! لا ينبس أي منهما بكلمة للآخر، على الرغم من أنهما يعلمان أن ما يدور في المخيلتين واحد. كأن أثيرًا خفيًا يزحف على الوسادة بينهما. طائر أسود لا يتبينانه في الظلام يطير راسمًا علامة لانهائية فوق رأسيهما. يلتقط الأفكار من رأسه ليلقيها في رأسها قبل أن يعود ليجمع الذكريات الدائرة في ذاكرتها ليلقيها في ذاكرته. ذكريات الجزء الثالث والأخير، حيث تلتقي خيوط القصتين السابقتين، وتُنسَج بهدوء تلك الحياة التي وُلِدا ليجداها تستقبلهما، وقد قُدر لهما أن يكونا فيها امتدادًا للحكاية القديمة.

رازالق - جنوب بلغاريا حاليًا - ١٨٧٧

١

دفعت «نورسان» المصراع الخشبي لنافذة الغرفة الصغيرة، قبل أن ترفع الأغطية الصوفية، وتنشرها على الحافة؛ لتتلقى التهوية اللازمة بعد كتمة الليل الطويل. استندت بمرفقيها عليهم، وألقت بنفسها قليلًا نحو الخارج، حتى ارتفعت قدماها عن الأرض، فأصبح جسدها الناضج نصف معلّق في الهواء، وقد اتسعت ابتسامتها برضا حقيقي، وهي ترى الشمس تشرق أخيرًا بعد شتاء ملبد بالغيوم، وتغمر وجهها ذا البشرة البيضاء الشاحبة وجديلتها الذهبية المتدلية بجانبها بأشعتها الحانية ودفئها الهادئ.

هي الآن في نفس عمر «كوللا» تقريبًا عندما تركوا القوقاز. عشر سنوات! كيف مرت؟! عندما وصلوا إلى هنا لم تكن لتتخيل أبدًا أنها ستستطيع المواصلة لعام واحد! كيف استطاعت الاستمرار لعشر سنوات؟! كيف استطاعت أن تخلق حياة وتعيشها؟! كيف استطاعت أن تحرز هذا الانتصار؟!

عادت ترتكز مرة أخرى على قدميها ملتفتةً نحو جاراتها الشركسيات المتجهات نحو قلب القرية وهن يحملن أشكالًا

مختلفة من الطعام. طالما تجنَّب الشراكسة الابتعاد عن التجمع السكني المبني لهم على أطراف المدينة والحقول المخصصة لهم.. طالما عمدوا إلى الابتعاد عن السكان البلغار الأصليين؛ حتى لا يتعرضوا للمضايقات التي على الرغم من قلَّتها نسبة لما يتعرض له باقي الشراكسة المهجرين إلى بلغاريا، إلا أنهم لم يسلموا منها تمامًا. هؤلاء البلغار تزداد كراهيتهم وعداوتهم لحكم «العثمانلي» والأتراك، بالإضافة إلى قوات الباشي البوزوق، وما يثيرونه من فوضى وسرقة وتخريب. لكنهم يخلطون الكل ببعضه، ويأخذونهم بذنب لم يرتكبوه، فيتعاملون معهم وكأنهم هم السبب، خاصة وأنهم لا يزالون يقتسمون معهم الحقول والمحاصيل! لوحت «نورسان» لجاراتها، والتقطت وشاحًا دوّمته(40) حول رأسها ورقبتها، مخفيةً شعرها كله تحته حتى تسرع للحاق بهن نحو وسط المدينة، حيث ازداد ترددهم عليه -على غير العادة- في الفترة الأخيرة؛ نتيجةً لموجات النازحين الشراكسة والبوماك أو المسلمين البلغار الذين تضطرهم الثورة في الشمال إلى الهروب نحو قرى ومدن أكثر أمنًا.. قرى ومدن لا تزال تقع تحت الحكم العثماني.. فيتكومون بجانب مبنى الحامية الذي يستقر بداخله مكتب القائمقام المسؤول عن المدينة أو القرية، ويظلون هكذا لأوقات طويلة أو ينعم الله عليهم بمن يساعدهم، وهو ما تتجه الفتيات

الشركسيات نحو مبنى الحامية لفعله الآن.

خرجت نحو الغرفة الكبيرة، حيث وجدت «كوللا» في المنتصف تدور وترقص ذاهبة العقل مع حبيب لم تتوقف عن تخيُّله منذ عشرة أعوام! من يراها لا يصدِّق أنها بالكاد أتمَّت تسعًا وعشرين ربيعًا! هذا الهيكل الذابل والتجاعيد والخصلات البيضاء التي ظهرت قبل أوانها لا يمكن لأحد أن يصدِّق أنهم ينتمون إلى فتاة لم تبلغ الثلاثين بعد! لماذا استسلمتِ هكذا يا «كوللا»؟! لماذا؟!

أدارت «نورسان» وجهها وهي تمطُّ شفتيها في ضجر، تاركةً أختها خلفها منهمكة في رقصها، بينما اتجهت هي نحو ركن تخزين الطحين والطعام والأدوات المختلفة، حيث فتحت قدرًا مملوءًا بثمرات الذرة التي كانت قد قامت بسلقها أمام المنزل في الصباح، فانبعث بخار الماء من بين حباتها المتلألئة بالدفء. نقلت بعضًا من تلك الثمرات في سلَّة صغيرة غطتها بقطعة من القماش قبل أن تحملها متجهةً بها نحو باب المنزل. توقفت، والتفتت متأملة «كوللا» للحظة قبل أن تزفر في ضيق، وتعود بخطوات مستسلمة نحو ركن التخزين، فوضعت السلة على المنضدة، وأخرجت كوبًا خشبيًا، واتجهت به نحو الدلو المعلَّق بجانب باب المنزل،

حيث فتحت غطاءه واغترفت من الماء الموضوع بداخله في الكوب قبل أن تقوم بتغطيته مرة أخرى، وتعود مارّة بـ«كوللا» المنهمكة في الرقص، لتضع كوب الماء على الأرض بجانب الموضع الذي تعلم أنها ستعود لتجلس فيه أمام النافذة الكبيرة. عادت «نورسان» لتتناول السلة مرة أخرى، وتنطلق بها نحو الخارج بسرعة، كأنها تحاول الهروب مما تملّك منها في اللحظات الماضية.

صعدت التلّ الفاصل بين بيوت الشراكسة من ناحية والحقول والطريق المؤدي إلى قلب أقرب قرية من قرى المدينة من ناحية أخرى، وقد ألصقت السلة المغطاة بجنبها، وأحكمت قبضتيها على أطرافها. ما أن أصبحت فوق التل حتى برز على مرمى بصرها عند السفح «حمزات» المنهمك في تقليم الشجيرات الخضراء تحت أشعة الشمس المرتفعة برفق. تأملته للحظة مبتسمة. تغير «حمزات»! صلبت بنيته، واشتدّ جسده، وأصبح رجلًا مكتمل الرجولة! شيء ما يشعُّ منه يملؤها بالدفء والاطمئنان. أحيانًا كانت تتوقف عما تفعله؛ لتتأمله أثناء انهماكه في عمل شيء ما أو حتى أثناء نومه متسائلة كيف كانت ستبدو الحياة هنا لو لم يكن هو بجانبها؟! تنتابها الخشية من غيابه، ثم تعود لتصرف تلك الأفكار بمزيد من الانهماك في العمل. زفرت متجهةً نحو

المنحدر، وهي تحمد الله في سرها على إخلاصه الذي لولاه ما استطاعا دفع الضرائب الباهظة المفروضة على الفلاحين، وتحمد الله على وجوده الذي لولاه أيضًا ما كانت لتستطيع فلاحة الحقل، وحصد المحاصيل التي تحول دون تحجج السكان الأصليين بقلة إنتاج الأرض؛ بسبب ملاكها الجدد ليعيدها الحاكم إلى حيازتهم مرة أخرى. انتبهت من أفكارها عندما شارفت على أول قرية، حيث بدأت تظهر على جانبي طريقها البيوت التي تتدلى من نوافذها نساء يرمقنها بمزيج من التعالي والغيظ، فمضت تشدُّ قوامها، وترفع ذقنها مركِّزة بعينين جامدتين نحو الأمام تاركةً نظراتهن تتناثر حولها، حتى وصلت عند مبنى الحامية التي يحاوطها الضباط الأتراك في حللهم العسكرية، منهمكين في التدخين والحديث دون الالتفات إلى الوافدين الجدد.

لم يكن هناك سوى ثلاث نساء شركسيات وستة أطفال يبدو عليهم كلهم سيماء البؤس؛ من جراء الرحلة الشاقة، وإن كانوا أقل بؤسًا من كثيرين مضوا من هنا قبلهم. اقتربت «نورسان» في حذر متحاشيةً الضباط الأتراك قدر الإمكان، لتجد أن صديقاتها كن قد تولين الأمر على خير ما يرام مع هذه المجموعة الصغيرة التي لم تحتج منهن إلى كثير من الجهد. وقفت للحظة حائرةً حتى استرعى انتباهها أن واحدة

من هؤلاء الأطفال تجلس وحيدة غير ملتصقة بأي من الثلاث نساء كما هو الحال مع باقي الأطفال. لم يكن ذلك أمرًا عجيبًا. فمنذ النزوح الكبير من القوقاز أضحى وجود أطفال وحيدين دون أهلهم بعد أن فقدوهم أو انفصلوا عنهم أمرًا معتادًا لا غرابة فيه. اقتربت «نورسان» من الطفلة الناحلة الشاردة، محاوِلةً السيطرة على اضطرابها ورسم ابتسامة مطمئنة على شفتيها. يا الله! إنها في مثل عمرها تقريبًا عندما وصلت هنا أو أكبر قليلًا!

انتبهت «إيفا» لتجد فتاةً كبيرة تجلس في مواجهتها، واضعةً بينهما سلة مغطاة، وهي تنظر نحوها مبتسمةً في وداعة:

- ما اسمك يا صغيرة؟

حاولت «إيفا» أن تجيبها، حاولت أن تفتح فمها لتتحدث، لكن شفتيها ظلتا مطبقتين، وهي تشعر كأن هناك يد ثقيلة بداخلها تقبض على صوتها وتمنعه من الخروج! خوف تركز في حنجرتها، فامتنعت عن الحديث؛ حتى لا يتملك منها أكثر من ذلك! أسرعت المرأة الشركسية أم الرضيعة، والتي كانت تتابع ما يحدث تجيب «نورسان» قائلةً:

- إنها لا تتحدث.

التفتت «نورسان» نحوها، وقد جفلت لوهلة قبل أن تتمالك نفسها متسائلةً:

- لماذا؟

مطَّت المرأة شفتيها قائلةً في قلة اكتراث:

- لا أعرف! ربما وُلِدت هكذا! أو ربما فقدت النطق مما رأته!

- هل فقدت أهلها؟!

- ربما! لقد وصلت إلى المدينة التي انطلقنا منها مع رجل غريب تركها ورحل!

كاد الحديث أن ينتهي عندما استطردت المرأة متذكرة:

- نسيت أن أنبهك أنها تقريبًا من البوماك، لذا ربما لن تفهمك جيدًا إن واصلتِ التحدث معها بالشركسية!

عادت «نورسان» تنظر نحو الفتاة الصغيرة بعينين مشفقتين، وهي تحاول تجاهل موجات الألم التي شعرت بها تغزو صدرها مما عرفته عن تلك المسكينة، وما تخيلته عما يمكن أن تكون قد واجهته حتى وصلت هنا! عادت ترسم ابتسامةً رقيقةً على شفتيها، وهي ترفع الغطاء عن السلة الموضوعة بينهما، هاتفةً باللغة البلغارية التي تعلّمت الكثير منها في العشر سنوات الماضية:

- ألا تريدين تناول القليل من الذرة؟!

تطلعت «إيفا» بعينين مترددتين نحو الحبات الصفراء اللامعة، وكأنها تذكرت فجأة الجوع المستقر في أحشائها! أسرعت «نورسان» تمسك بواحدة من الثمرات وتقربها منها، وقد اتسعت ابتسامتها المشجعة. اطمأنت «إيفا» قليلًا، وتغلّب جوعها على ترددها، فمدت أصابعها الصغيرة المتسخة لتتناول ثمرة الذرة وتقربها من فمها عندما غزت الرائحة الشهية أنفها، فمضت تقضم وتمضغ بتلذذ و«نورسان» ترقبها في رضا، وقد هدأ الألم بداخلها قليلًا، وهي تراها قد تخلصت من شيء من خوفها.

عندما اطمأنت «نورسان» تركت عيناها الطفلة المنهمكة في

تناول الطعام، ومضت تتأمل المشهد حولها بنصف اهتمام، عندما توقفت فجأة عند ما جعل حدقتيها تتسعان في ذهول وعدم تصديق! دون أن تدير رأسها سمعت صوت المرأة التي كانت لا تزال ترمقها بينما تلاعب رضيعتها، فتطوعت لتوضح لها قائلةً:

- إنه الجندي التركي الذي اصطحبنا طوال الطريق.

تركي؟! هل تصفه بالتركي؛ لأنه جندي في جيش السلطان؟! أم لأنه تركي حقًا؟! لا يمكن أن يكون الاختيار الثاني! لا يمكن أن تخونها عيناها إلى هذا الحد! ولكن بدلًا من أن تلتفت نحو المرأة، وتستفسر منها وجدت نفسها تنهض كالمأخوذة وتقترب منه بخطوات بطيئة مترددة! لم يلتفت لها حتى عندما أصبحت أمامه مباشرة! جالس هو وقد أسند ظهره على حائط مبنى الحامية. ركبته اليمنى مرتفعة أمامه وذراعه مستندة عليها، بينما أطراف الكم الخالي من الذراع الغائبة مبسوطة في حنو بجانب رجله الأخرى المفرودة أمامه في تراخٍ. عيناه شاردتان نحو جهة خالية من البشر والحركة، كأنه لا ينتمي لهذا المكان، ويترفع عن الانخراط فيه.

همست بصوت خافت متلعثم كأنها تخشى أن يسمعها:

- «أحمد»؟!

دقَّ قلبها بعنف عندما وجدته يلتفت نحوها بعينين تمتلآن بالدهشة والاستنكار! تسمَّرت للحظة قبل أن تسرع بالجلوس أمامه؛ لتصبح عيناها في مستوى عينيه، وهي تهتف وقد ازداد حماسها:

- ألا تتذكرني؟! أنا «نورسان» أخت «كوللا»! ابنة التحمادا «عزمات»!

ضيق عينيه متأملًا إياها قبل أن تلوح ابتسامة هادئة على شفتيه قائلًا:

- «نورسان»! تغيرتِ كثيرًا!

عبرت ابتسامة خجلى على شفتيها، فضغطتهما لتداريها قبل أن تجيب:

- أنت أيضًا تغيرتَ! لكنني تعرفت عليك! أين كنت طوال

كل هذه السنوات؟!

زفر بابتسامة هازئة، وهو يقول بنفس النبرة:

- كنت أحارب تحت رايات السلطان! أحارب العصاة والثائرين الخارجين على حكمه! عشر سنوات أخوض حربًا لا شأن لي بها حتى فقدت ذراعي في إحدى المعارك، فأضحيت غير لائق بساحات القتال المقدس، وكانت آخر مهمة أسندت إليّ هي اصطحاب تلك البائسات مع أطفالهن إلى أقرب مكان آمن، فاصطحبتهم إلى هنا، وجلست أستريح قليلًا قبل أن أرحل.

هتفت في عدم تصديق:

- ترحل إلى أين؟!

- لا أعرف! لم أقرر شيئًا بعدُ!

- طالما لا تملك خطة، فالمنطقي إذن أن تبقى معنا!

تساءل مبتسمًا من حماسها:

- أبقى مع من؟!

أجابته في بساطة، وكأنها لا تصدّق سؤاله:

- تبقى مع أسرتك!

- أسرتي؟!

- بالطبع؟! هل نسيت أنك صهرنا؟! هل نسيت أن أخاك كان متزوجًا من «أختي»؟!

بدا مأخوذًا لوهلة من سيرة أخيه «إينال». تردد وهو يحاول السيطرة على سؤاله. لم يستطع مواصلة الصمت، لكنه أيضًا تهيّب طرح السؤال كاملًا، فخرج منه الكلام خائفًا مشتتًا:

- «نورسان».. هل أبي... أقصد «الحجي مراد»...

لم يستطع تكملة السؤال، لكنها فهمت بالطبع ماذا يقصد، وهي ترى الترقب والخوف يملآن عينيه. قالت بنبرة خافتة حزينة:

- لقد رحل «الحجي مراد» بعد وصولنا بأشهر قليلة، ورحلت أمي منذ عام واحد.

أسند «أحمد» رأسه إلى الخلف، وأغمض عينيه محاولًا السيطرة على الدموع المتجمعة في مقلتيه. زفر قبل أن ينطق في حسرة:

- كنت موقنًا من أنني لن أراه أبدًا مرة أخرى.. لا أعلم لماذا ظل قلبي متعلقًا بهذا الأمل الزائف! حاولت مرارًا منع نفسي من اختيار تلك المدينة دون غيرها لأصطحب تلك المجموعة إليها.. كدت في منتصف الطريق أن أغيِّر مسارنا عدة مرات، لكنني لم أقوَ على ذلك أبدًا!

هتفت مستنكرةً:

- لم تأتِ إلى هنا مصادفةً إذن؟!

رفع رأسه ونظر نحوها بعينيه اللامعتين قبل أن يجيب بنبرة مستسلمة كأنه يعترف لنفسه بما كان ينكره طوال الفترة الماضية:

- لا.. لم آت إلى هنا مصادفة.. لم أنس أبدًا اسم المدينة التي قالوا لي يوم انفصلت عنكم إنكم سيتم توطينكم بها.. كنت موزعًا بين انتظار اليوم الذي سآتي فيه إليها؛ لأبحث عن أبي، وبين محاولات التخلص من هذا الأمل الواهن.. حاولت مرارًا أن أقنع نفسي بأنه لا فائدة من الانتظار.. فربما تم توطينكم في مكان آخر أو اضطررتم للرحيل بعد فترة.. وكنت شبه موقن من أن أبي لن يستطيع مواصلة الحياة هنا كل هذه السنوات.. لكن ما أن أوكلوا إليّ هذه المهمة حتى وجدت نفسي أختار تلك المدينة دون غيرها، مما لا يزالون تحت حكم السلطان، وما أن وصلت حتى تملكني خوف شديد حتى إنني كنت على وشك اتخاذ قرار الرحيل دون أن أبحث عن أحد عندما ظهرتِ أنتِ فجأة أمامي!

ابتسمت وهي تقول بعينين تمتلآن بلؤم لطيف:

- من حسن حظنا إذن أن ظهرتُ في الوقت المناسب.

عقد حاجبيه وهو يتساءل مستنكرًا:

- حسن حظكم!

- بالطبع.

اقتربت بجذعها منه قليلًا، وهي تقول بعينين يتجلى فيهما صدق نابع من قلبها:

- نحن محتاجون إليك يا «أحمد».. ربما حتى أكثر مما تحتاج أنت إلينا.

مطّ شفتيه قبل أن يقول:

- أنا أحتاج إليكم هذا أمر مفهوم؛ فقد عشت عشر سنوات وحيدًا في حياة قاسية ومشتتة.. ولكن لماذا قد تحتاجون أنتم إليّ؟! لماذا قد تحتاجون إلى دخيل أو عبء جديد يقاسمكم دنياكم التي تعيشونها سويًا بالفعل؟! أليس لديكم بيت وحقل وحياة مستقرة؟!

زفرت «نورسان» قبل أن تقول في نبرة تمتلئ بالأسى:

- نعم لدينا كل ذلك، ولكنه فوق أرض غريبة.. أرض نشعر بأنها يمكن أن تلفظنا في أي وقت.. ولا يعيننا على التحمُّل أو يدفعنا للمواصلة والتغاضي سوى شيء واحد.. تقاربنا

واحتماؤنا ببعضنا البعض.. في قريتنا الصغيرة تلك المنبوذة على حدود المدينة نختبر أكثر من أي قرية أخرى الضعف مع كل رحيل، والقوة مع كل ازدياد وحضور.

صمتت للحظة قبل أن تستطرد بعينين مترقرقتين بالدموع:

- أما نحن وبيتنا الذي تتحدث عنه وحياتنا، فهي قد تكون مستقرة كما قلت، لكنها باردة يا «أحمد».. باردة وهشة. قهرها رحيل «الحجي مراد» وأوهنها رحيل أمي.. وأخشى أن يأتي اليوم الذي لا نقوى فيه على المواصلة، أو نفقد رغبة الحفاظ على الحياة المستقرة تلك، أو حتى رغبة الحفاظ على الحياة بأكملها.. هل فهمتَ الآن؟

كان يتأملها متأثرًا بما يراه على وجهها وفي عينيها، ومأخوذًا من تلك التي لا يتذكرها سوى طفلة صغيرة، ولا يعرف متى كبرت، واستطاعت أن تفهم كل ذلك، وتصيغه بكل هذه البلاغة حتى إنها جعلته يدرك ما لم يستطع أن يدركه واضحًا هكذا بمفرده رغم كل ما مرَّ به!

نفضت «نورسان» تأثرها، ونهضت مستعيدةً تألقها، وهي

تهتف في حماس:

- هيا حان وقت العودة إلى البيت.. سيفرح «حمزات» كثيرًا عندما يراك.

نهض «أحمد» هو الآخر وهو يحاول عبثًا إخفاء عدوى حماسها الذي انتقل إليه:

- «حمزات»! كم أتوق إلى رؤيته!

كيف استطاعت أن تقنعه وتغيِّر رأيه هكذا؟! أم ربما كان قلبه يريد ذلك منذ البداية؟! ربما كان يشتاق في أعماقه إلى أن يبقى، وأن يقتسم معهم تلك الحياة، حتى وإن كان دخيلًا عليهم، ولم يكن يحتاج إلى أكثر من دفعة صغيرة كتلك التي دفعتها هي له. خيط رقيق تدليه فيسرع للتشبث به والتخلص من تظاهره بالصلابة والاستغناء.

لاحت ابتسامة انتصار على شفتيها بعدما وجدته قد تحمَّس هو الآخر للعودة معها:

- سنذهب في التوِّ، لكننا يجب أن نصطحب شخصًا ثالثًا

معنا.. البيت يحتاج إلى كثير من الدفء، وأنت وحدك لن تكون كافيًا.

عقد حاجبيه، وقد استغلق عليه فهم ما ترمى إليه، وإن أعجبته مزحتها، لكنه أخفى ذلك وهو يراها تتحرك نحو تلك الفتاة الصغيرة التي لفت نظره أنها لم تنطق بكلمة طوال الطريق، ولم يكن معها أم مثل باقي الأطفال! عاد تعاطفه يغزو قلبه مرة أخرى، وقد اختلط بفرحة خفية وهو يرى «نورسان» تستكمل ما بدأه من حماية لتلك الصغيرة، وتفعل معها ما لم يستطع هو فعله بعدما تركها الجنود تصطحبها دون اهتمام، بل وربما براحة أيضًا؛ للتخلص من تلك الفتاة الخرساء التي لا يجدون لها حتى اسمًا يمكن تسجيله في الدفاتر الرسمية!

انتبه عندما وجدها أمامه مرة أخرى، وقد وضعت يد الفتاة الصغيرة في يدها، بينما تحمل باليد الأخرى سلّتها المغطاة. لم تنتظر أكثر من لحظات قبل أن تنطلق بخطوات متقافزة فرحة مجرجرة الفتاة المذهولة خلفها بعقدة يديهما المتشابكتين، ومجرجرة «أحمد» بخيط خفي وجد نفسه يتبعه ويتركه يسلبه إرادته طواعية!

٢

دخلت «نورسان» المنزل بنفس الخطوات المتقافزة، حيث وضعت السلة المغطاة على منضدة ركن التخزين، وأجلست «إيفا» بجانبها على دلو كبير مقلوب، بينما كان «أحمد» يتبعها بخطوات متحسسة وعينين تدوران متأملتين في تفحُّص وشيء من الحسرة على الفاقة(41) التي أصابت أهله بعد السعة التي كانوا يعيشون فيها عندما كانوا في وطنهم.

انكمشت ابتسامة «نورسان» حينما التفتت نحو «أحمد»، فوجدته قد تسمَّر مكانه، واتسعت حدقتاه في ذهول وعدم تصديق عندما وقعت عيناه على «كوللا» المتكومة أمام النافذة الكبيرة كامرأة عجوز مستسلمة لانسحاب الحياة من عروقها شيئًا فشيئًا. التفت نحو «نورسان» كأنه يطلب منها أن تُكذِّب له ما يراه، لكنه وجدها بدلًا من ذلك تومئ له في صمت، مؤكدةً ما يدور بخلده وما يراه أمامه، وقد اكتست ملامحها بالضيق.

عاد «أحمد» ليتأمل «كوللا» الشاردة مرة أخرى، وصوت «نورسان» الخافت يحتل الخلفية، وهي تقترب منه بخطوات

بطيئة:

- ذهب عقلها وذهبت معه.. لم تعد إليها نفسها منذ يوم موت «إينال».. تجلس طوال النهار هكذا شاردةً من النافذة نحو الحقول والجبال، وعندما تتملك منها الذكرى تقف فجأة لتعيد رقصة القافا التي رقصتها يوم عودة التحمادا «مراد» من الحج.. تعيدها بحذافيرها كأن «إينال» يرقص معها في كل مرة!

أحس بالألم يخِز قلبه وهو يسمع هذا الكلام عن أخيه وزوجته. لو طلبوا منه أن يجسّد لهم هزيمة شعبه في كلمة واحدة لأشار نحوها قائلًا: هذه هي هزيمتنا. هذه الشابة الفاتنة العاشقة التي سُلِبت شبابها وجمالها وحبيبها في لمح البصر، وجلست متكومةً تشاهد الدنيا من الخارج بعينين زائغتين، وقد أوهنتها الهزيمة، وشيّبها القهر والفقدان.

ضرب «أحمد» بقبضته على الجزء الفارغ من منضدة ركن التخزين، وقد نفرت عروق رقبته بغضب مكتوم قبل أن يهتف في حنق:

- لعنهم الله! لعن كل من فعل بها ذلك!

أحنت «نورسان» رأسها وقد اختلطت بداخلها مشاعرها التي لا تكفُّ عن التصارع، وتأبى أن ترسو بها على شاطئ واحد. كادت أن تقول له: نعم لعنهم الله، لكنهم سلبونا كما سلبوها! كادت أن تقول: نعم فعلوا بنا وبها ذلك، لكننا كنا هنا.. كنا موجودين حولها دائمًا حتى بعد كل ما حدث! لم ينقذها من تخبطها سوى صوت خطوات «حمزات»، وهو يدخل حاملًا أدواته وقد تعلقت الأتربة وبقايا الزروع بسرواله وقميصه. وضع «حمزات» أدواته بجانب الباب، وعيناه تتجولان بينهما في ترقب عندما أسرعت «نورسان» نحوه وقد عاد حماسها يغمرها وهي تمسك بذراعيه وترفع عينيها نحو عينيه هاتفة:

- «أحمد» يا «حمزات»! «أحمد» ابن التحمادا «مراد» عاد مرة أخرى!

نظر «حمزات» نحوه في ذهول، فوجد «أحمد» يتأمله مبتسمًا في وداعة!

اقترب مَن صارا رجلين من بعضهما البعض بخطوات بطيئة وابتسامتين متطلعتين في عدم تصديق! وضع «حمزات» يديه على كتفي «أحمد» الذي جفل لوهلة، محاولًا بحركة لا

إرادية إبعاد موضع ذراعه الغائبة عن يد «حمزات»، ولكن «حمزات» لم يلتفت، وأسرع باحتضان صديقه كأنه يقول له: كانت الحياة ستختلف كثيرًا لو كنت ظللت هنا!

أخفت «نورسان» دموعها، وهي تسرع بجذب نظر «حمزات» قائلةً في ابتهاج:

- وانظر أيضًا.. هناك فرد آخر جديد انضمَّ إلينا.

التفت «حمزات» باحثًا بعينيه في فضول تحوَّل إلى ابتسامة هادئة، وهو يقترب ويجلس على ركبتيه أمام «إيفا» التي كانت تحملق فيه بعينين تمتلآن بالذهول والبراءة وبعض من الخوف أدركه بفطنته، كما أدرك أنه لا يمكن أن تكون قد اصطحبتها «نورسان» إلى هنا إلا إن كانت وحيدة وفاقدة لكل شيء. مضى يسألها عن اسمها بلطف محاولًا طمأنتها قليلًا عندما أسرعت «نورسان» تنبِّهه بالشركسية إلى أنها من البوماك، وليست شركسية، أي ربما لا تفهم لغتهم جيدًا، كما أنها لا تستطيع التحدث، ولا أحد يعرف إن كانت قد وُلِدت هكذا أم مرضت بسبب ما حدث لها. عاد «حمزات» لينظر في عينيها البريئتين بعد تلك المعلومة الأخيرة التي اهتزَّ لها قلبه بألم كان قد توقَّف عن الاستسلام لمثله منذ

فترة طويلة! جاهد ليرسم ابتسامة مستبشرة على شفتيه ومدَّ أنامله وتحسَّس شعرها قائلًا في رقَّة:

- إذًا نسميها نحن.. ما رأيكم في «صغيرة»؟

ابتهجت «نورسان» قائلةً:

- فكرة رائعة يا «حمزات»! إذًا هيا يا «صغيرة» نأخذ حمامًا خلف البيت قبل أن نقوم بتحضير الطعام!

جلس «أحمد» مع «حمزات» يتبادلان حكايات السنوات العجاف الماضية بجانب «كوللا» الغائبة في عالمها، بينما ذهبت «إيفا» مع «نورسان»، وقد اطمأنت قليلًا بعدما وجدت أسرة جديدة تسكن إليها بعد كل ما ومَن فقدت، بل وحتى اسم جديد اختاره لها هذا الفتى ذو العينين الحانيتين، والذي على الرغم من الحبور الذي تملكها بسبب اختياره هذا إلا أنها ودَّت في تلك اللحظة لو ذهب هذا الثقل الكامن في حنجرتها، واستطاعت أن تتحدث وتقصّ عليه كل ما حدث لها، وتقول له إن اسمها «إيفا» وتسمعه يناديها به!

٣

سبتمبر ١٨٧٨

المصراع الخشبي مفتوح على نجوم متناثرة وقمر مكتمل تصبغ أشعته الفضية الحقول والجبال النائمة، وتتسلل لتسقط على وجه «نورسان» المستلقية في فرشتها الملاصقة للحائط تحت النافذة مباشرة، وقد تركت منتصف الغرفة للفتاة الصغيرة و«كوللا» المستغرقتين في النوم بينما كانت الغرفة الكبيرة بالخارج من نصيب الرجلين لا يفصلهما عنهن سوى الباب الخشبي للغرفة الصغيرة.

تتسلل نسمات صيفية خافتة تدغدغ ذراعيها وكتفيها المكشوفين، فيرتجف جسدها ارتجافةً خفيفةً لا تلبث أن تتوقف في الوقت الذي لا يكفُّ قلبها فيه عن الاضطراب. منذ متى وهي تعيش هذه الحياة الجديدة؟ حيث تلك الصغيرة تساعدها في المنزل وتؤانسها، ليس بالحديث فـ«كوللا» أيضًا لا تتحدث. لكن تلك الصغيرة ذات عقل لماح ذكي، تفهم ما تريده منها وتساعدها فيه بتلقائية، كما أنها ذات حضور هادئ لطيف؛ فهي دائما مستمعة ومتفهمة لـ«نورسان»، ولما تقوله حتى وإن لم تجبها أو تفتح فمها بكلمة! تلك الحياة الجديدة حيث وجد «حمزات» صديقه الذي يقتسم معه العمل بالحقل في النهار والسمر في الليل،

وحيث وجد كلاهما دفئًا يسري في كل شيء، وكأنه يعطي للحياة نكهة جديدة غير تلك الحياة الباردة التي كانا يعيشانها حتى وإن كانت تماثلها في المشقة والقسوة.

كم مضى من الوقت وهي تعيش هذه الحياة الجديدة؟ الإجابة لا تحتاج لتفكير: منذ أن عاد.

تقلّبت على جانبها الأيمن محاولةً السيطرة على قلبها المضطرب وهي تتذكر. عندما عاد كان الشتاء يوشك على الانتهاء، ثم أتى بعده شتاء آخر، وها هو الصيف يقترب من نهايته. إذن مرَّ أكثر من عام تقريبًا! مدة طويلة لا تستطيع أن تحدد في أي نقطة منها بالتحديد بدأ هذا الشيء يولد بداخلها. شيء لا تفهمه، ولا تعرف كيف بدأ، وكيف يكبر بداخلها هكذا كلما قاومته أو أمعنت في مداراته. كلما نجحت في إخفائه تزداد فشلًا في كبحه خلف الأسوار الحديدية التي أغلقتها بداخلها يوم وصولهم هنا منذ أكثر من عشر سنوات، لتنفتح فجأةً دون أي سابق إنذار وتفشل كل مقاومتها في السيطرة على هذا الشيء الذي تسلل ليحتل تلك الأسوار. هذا الألم اللذيذ الذي يمرح في صدرها والذوبان الذي تشعر به في معدتها وهي تراقبه بطرفي عينيها أثناء انهماكه في العمل في الحقل، وقد انعكست

أشعة الشمس على عينيه العسليتين الممتلئتين بالتركيز الشديد، وقطرات العرق تتساقط من بين خصلات شعره البني مارَّةً ببشرته التي اختفى بياضها تحت طبقة اسمرار خفيفة، قبل أن تغرق في لحيته الصغيرة. يعمل بذراعه الواحدة بجد وتصميم من يريد أن يثبت لنفسه قبل الآخرين أن ذراعه الأخرى لو كانت موجودة لما اختلف الأمر في شيء، ولما ازداد عمله قيد أنملة عما تنجزه تلك الباقية. تراقبه وهو يتسامر مع «حمزات»، محافظًا على ابتسامته الرزينة مهما بدا ما قاله «حمزات» مضحكًا، أو عندما ينفعل ويغضب إن صدف وجاءت سيرة الحرب الدائرة وما يفعله الروس والبلغار والسلطان العثماني وكل قواتهم النظامية وغير النظامية. تراقبه في خفاء لا يلحظه أحد سوى «إيفا» الصغيرة، وتحاول التقاط أي بارقة أمل أو حتى إشارة يأس، بينما يبدو أنه بعيد جدًا عن كل ذلك! منهمك في كل شيء وشارد عن كل شيء، حاضر معهم وغائب عنهم.. وعنها هي أيضًا!

انتبهت فزعةً من شرودها عندما التقطت أذناها صوت طرقات على باب البيت! نهضت والذعر يكاد يقتلها. فمع كل الأخبار المتواترة عن الحرب المشتعلة قريبًا منهم، وما يحدث لسكان القرى والمدن من الأتراك والبوماك والشراكسة

المهجرين من قبل على يد الروس والبلغار سواء كانوا ثوارًا من فرق الكوميتاس أو عصابات الهايدوت أصبح الخوف يحيطهم ويحيا معهم، وأصبح أي حادث عابر كطَرقات ليلية على الباب مدعاةً للخوف بل للرعب والارتياع.

ارتدت ثوبًا طويل الأكمام، وأخفت شعرها ورقبتها تحت وشاحها في عجالة وهي تقترب من باب الغرفة بخطوات مضطربة قبل أن تفتحه في بطء ليصلها الجو المشحون بالتوتر في الخارج، حيث وقعت عيناها في الظلام على «أحمد» الواقف في منتصف الغرفة، ويده قابضة في تصلُّب على سيفه، كأنه يستعيد كل المعارك التي خاضها، ويستعد لأخرى في تصميم زاد خوفها، بينما بدا أن «حمزات» يمتلك أعصابًا أكثر هدوءًا واستعدادًا أكبر لمعالجة الأمر بحكمة، وهو يقترب ببطء من الباب محاولًا استشفاف أي شيء عمن يقبع خلفه. ارتفع صوت مألوف من الخارج يدعوهم لفتح الباب، فأسرع «حمزات» يدير المزلاج، ويفتح الباب، فاندفع نحو الداخل رجل ذو بنية طويلة وعريضة مخفية تحت عباءة سوداء واسعة غير معتادة في قراهم هذه، وذات قلنسوة تخفي رأسه ومعظم وجهه، وما أن رفعها حتى تنفست «نورسان» الصعداء، وزفر «حمزات» قبل أن يهتف في ارتياح: «إميل! أفزعتنا يا رجل!».

وقف «أحمد» يراقب ما يحدث في ارتياب ودهشة عندما أسرعت «نورسان» تثني أبسطة النوم؛ لتكون أكثر سمكًا حتى يجلسوا عليها، بينما انتحى «حمزات» به جانبًا ليفهمه. «إميل» تاجر بلغاري مسيحي من الراياه يمر على القرى المختلفة؛ ليقوم بشراء محاصيل الخضراوات والذرة من الفلاحين سواء كانوا بلغاريين أو بوماك أو شراكسة أو أتراكًا. طالما مرَّ بقريتهم واشترى منهم، وكان دائمًا لطيفًا معهم عكس ما اعتادوه من البلغار الآخرين، بل وكان يساعدهم أحيانًا، فنشأت معه صداقة وعلاقة ود وثقة، ربما لن يصدقها من لم يعشها معهم منذ بدايتها.

جلس ثلاثتهم، بينما أسرعت «نورسان» بإحضار كوب ماء، وإشعال مشعل واحد من المعلقين على الحائط؛ لينير لهم عندما سمعت صوت «إميل» الأجش وهو يقول: «يجب أن ترحلوا من هنا الليلة». نظر «حمزات» و«أحمد» لبعضهما البعض في ارتياب قبل أن يلتفتا نحو «إميل» مرة أخرى، ونظراتهما تطلب مزيدًا من التفسير. مضى «إميل» يتحدث عن أشياء كثيرة في الحرب والسياسة. أشياء جاهد «حمزات» و«نورسان» ليفهماها، بينما كان «أحمد» يستمع باهتمام بالغ، وقد شحذ(42) كل تركيزه؛ ليقوم بربط كل ما

يحكيه هذا الرجل الغريب بما عرفه هو وعاشه في ميادين القتال والسياسة طوال عشر سنوات، فتتضح أمامه الصورة كاملة شيئًا فشيئًا.

منذ قيام الحرب وفي غضون شهور قليلة تقدمت القوات الروسية، ومعها المتمردون البلغار بسرعة شديدة، سقطت المدن الكبيرة الواحدة تلو الأخرى خلف القوات العثمانية المنهزمة. وأمام هذا الاجتياح الروسي لم يجد السكان الأتراك والبوماك والشراكسة بدًا من الفرار ومحاولة اللجوء إلى المدن الواقعة تحت الحكم العثماني أو حيث لا يزال المسلمون يعيشون في أمان نسبيًا، كما كان يحدث هنا في قريتهم. وكلما سقطت مدينة، اضطر اللاجئون إلى الفرار مرة أخرى هاربين من المعاملة السيئة والمذابح والنهب واغتصاب الشابات نحو طرقات يهددهم فيها الجوع والبرد والأمراض ومزيد من المتمردين البلغار. وعلى الرغم من قيام الحكومة العثمانية بإجلاء الآلاف إلى الأناضول وقبرص وسورية، بقي آلاف آخرون متجمعين في مناطق مركزية أو مبعثرين عبر بلغاريا كلها في حالة إنسانية متدنية.

وكان من الطبيعي أن تنتصر روسيا، وأن تضطر الدولة العثمانية إلى قبول عقد معاهدة اسمها «سان ستيفانو» في

مارس ١٨٧٨، والتي تنص أهم بنودها على قيام دولة بلغاريا الكبرى الممتدة لتشمل مناطق شمال وجنوب البلقان ومعظم مقدونيا، وبقاء الجيش الروسي على أراضيها لمدة عامين.

بالطبع لم يوافق ذلك أهواء النمسا وبريطانيا، وتعاظم خوفهما من قيام دولة بلغارية موحدة وقوية بهذا الشكل، مما يزيد من تهديد قيامها بالسيطرة على المنطقة. وتحت ضغط الدول العظمى، اضطرت روسيا إلى قبول تسوية أخرى تم الاتفاق عليها خلال مؤتمر عُقِد بعدها بثلاثة أشهر في برلين، وسُمِّيت باسمه «معاهدة برلين» والتي نصَّت على تقسيم بلغاريا إلى ثلاثة أجزاء: منطقة بلغاريا، وتصبح إمارة ذات حكم ذاتي تابعة للدولة العثمانية، ومنطقة شرق روميليا(43) وتصبح ولاية ذات حكم شبه ذاتي يحكمها مسيحي يختاره السلطان العثماني، وتوافق عليه الدول الكبرى، وأخيرًا منطقة تشمل الأجزاء المقدونية من بلغاريا ومنطقة ترافيا وتستعيدها الدولة العثمانية لتعود تحت حكمها مباشرةً.

أما «إميل»، فإنه لم يأتِ إليهم إلا بعدما نما إلى علمه أن الدوائر الثورية البلغارية تعقد اجتماعات منذ أن وصلت إليهم أخبار المعاهدة؛ للتخطيط لانتفاضة واسعة؛ اعتراضًا

على عدم ضمِّ المنطقة المقدونية إلى المناطق التي تخلصت من السيطرة العثمانية المباشرة. ستكون ولايتهم الواقعة في تلك المنطقة المقدونية هي وكل من يسكنها من شراكسة وأتراك وبلغار مسلمون من أكثر الأجزاء عرضةً لهذه الانتفاضة التي تقترب بسرعة شديدة، ولا يمكن لأحد توقُّع عنفها أو ما ستجلبه لهم من خراب، ولكن قياسًا على ما كان يحدث خلال الأشهر الماضية بأيدي المتمردين البلغار فإن بقاءهم هنا لن تكون عواقبه محمودة بأي شكل من الأشكال.

انتفض «أحمد» وهو يقول منفعلًا:

- حسب كلامك فإن كل المدن غير آمنة، وكل الطرق مهددة! كيف وإلى أين تريدنا أن نرحل إذن؟!

التفت «إميل» نحو «حمزات» و«نورسان» التي أتت لتجلس بجانبه، فأصبح وجهه العريض وشاربه الكث وملامحه الكبيرة أكثر وضوحًا تحت ضوء المشعل المعلق، وهو يتساءل في استنكار:

- أليس المخبأ موجودًا لا يزال؟!

اضطرب «حمزات» قبل أن يجيب في هدوء:

- بلى.. لا يزال موجودًا.

نظر «أحمد» نحوهم في تشكك وعدم فهم، قبل أن يتساءل وقد قطب حاجبيه في ضيق:

- أي مخبأ؟!!

نظر «حمزات» و«نورسان» إلى بعضهما البعض في تململ. كيف لم يخبراه بهذا الأمر من قبل؟! ربما لأنه طوال الفترة التي قضاها معهم لم يصعد أي من أهل قريتهم الشركسية الصغيرة إلى هناك، ولم يمر بهم «إميل» فلم يجدا الفرصة ليُعلماه. تكلم «حمزات» شارحًا في اقتضاب:

- وادٍ دائري فوق الجبال القريبة.. تخفيه الصخور كأنه حصن طبيعي مختبئ.. وجده لنا «إميل»، وكانت فكرته أن نقوم بتجهيزه في سرية؛ تحسبًا لأي يوم نضطر فيه إلى هروب سريع.

لم يطق «إميل» الجلوس أكثر من ذلك، فما أن أنهى

«حمزات» كلمته حتى نهض منهيًا الحديث في حسم:

- وها هو اليوم قد أتى، ويجب أن نتحرك سريعًا!

مضى ثلاثتهم يوقظون بيوت القرية النائمة في سرعة وهدوء، ويساعدونهم في لملمة حاجاتهم، بينما بقيت «نورسان» وحدها؛ لتجمع اللوازم التي سيرحلون بها، وتوقظ «كوللا» والصغيرة، وتقوم بتجهيزهما للرحلة المقبلة. فجأة وجدت «نورسان» نفسها مطالبةً بما طولبت به أمها «ديسا» منذ أكثر من عشر سنوات، أن تجمع بيتها كله وتحمله وترحل به! ولكن على الأقل هم يعرفون هذه المرة إلى أين هم ذاهبون، وأن الطريق ستكون أقصر بكثير.

خلال سويعات قليلة كانت الرِّكَاب كلها محملة وجاهزة. تم إخراج عدة عربات خشبية كان بعضهم قد قام بصنعها وإخفائها؛ تحسبًا ليوم مثل ذلك. قاموا بربطها في أحصنة متوسطة القوة كانوا أيضًا قد قاموا بتربيتها لنفس السبب، بينما حمدت «نورسان» الله على أن «أحمد» كان قد عاد إلى الحامية بعد استقراره معهم بعدة أيام، ونجح في استرجاع فرسه وعربته، والتي لولاهما ما وجدوا شيئًا يضعون عليه حاجاتهم، ويجلسن عليه هي و«كوللا» والصغيرة.

انطلقت القافلة تحت قيادة «إميل» تلتفُّ حول القرية مختبئةً تحت ظلمة الليل وخلف الأشجار نحو الجبال القريبة، وقد غشى الأطفال النعاس، وسيطر الخوف والترقب على الكبار. الكل يعي تمامًا ضرورة ألا يشعر برحيلهم أي شخص، وألا يعرف باقي سكان القرى القريبة إلى أين يتجهون، وإلا طالهم الخطر الذي حذَّر منه «إميل».

«إميل»! لا يزال «أحمد» يسير خلفه متجهمًا وغير قادر بعد كل ما شهده طوال سنوات القتال على تقبُّل فكرة أن بلغاريًا مسيحيًا يكون بهذا القدر من الطيبة واللطف، بل وأن يساعدهم إلى هذه الدرجة، لكنه بقي صامتًا ومستسلمًا رغمًا عنه، وقد بدا الجميع مطمئنين خاصة «حمزات» الذي يثق به «أحمد» ربما حتى أكثر من نفسه حتى وإن لم يصرِّح بذلك لأحد.

وبينما كانت الرحلة كلها غير مريحة للجميع كانت مرهقة لـ«نورسان» أكثر من أي شخص آخر، بعدما فوجئت بـ«كوللا» تنكمش على نفسها مرتجفةً في ارتياع، وقد ذكَّرتها هذه الرحلة بالرحلة القديمة، ولم تجد من يحاول التخفيف عنها سوى «إيفا» الصغيرة التي التصقت بها محاولةً طمأنتها وطمأنة نفسها معها في الوقت الذي كانت «نورسان» تبذل

فيه جهدًا كبيرًا لتسيطر على ضيقها، ولتتجاهل ما حل بـ«كوللا»، مخبرةً نفسها بأن ما يحدث ليس إلا عرضًا من أعراض «كوللا» المبالغ فيها لن يلبث أن يزول، وهي لا تحتاج لأن تفعل أي شيء حياله سوى التلهي بمتابعة الأشجار العالية كالأشباح وسط الظلام.

أشرقت الشمس وغربت، والقافلة سائرة في طريقها بين الأودية الصاعدة في الجبال دون توقف حتى توغل الليل مرة أخرى، واشتدت برودته. وقبل بزوغ الفجر بقليل كانوا قد وصلوا عند الحصن الجبلي، حيث ارتمى الجميع على الأرض في إرهاق. غرقت «نورسان» مع كثيرٍ منهم في نوم عميق بعد أن اطمأنوا إلى وصولهم دون أن يتبعهم أو يعترض طريقهم أحد بينما بقي «أحمد» مع القلة الباقية، مستيقظًا في انتظار شروق الشمس، كأنه يريد أن يطمئن أنها ستشرق في موعدها!

٤

اندهش «أحمد» مما كان يُغَيِّبُه عنه ظلام الليل، واستطاع رؤيته تحت ضوء النهار! هذا الحصن الدائري هو شبه حوض شكّلته الحركة الانجرافية للجليد فوق الجبال، وأحاطته

الصخور الناتئة؛ لتخفيه عن الأعين، وتحميه من الرياح، لكنها في نفس الوقت توصل بينه وبين الأودية المنحدرة والصاعدة بالأشجار العالية والشجيرات الشوكية والنباتات من خلال فتحات طبيعية تكمن عند الزوايا المختلفة جنبًا إلى جنب مع فتحات غائرة وجد «أحمد» أنهم كانوا قد قاموا خفيةً بتخزين الذرة الجافة بها مع براميل طحين الذرة، وبراميل أخرى من اللحم المقدد المدفون في الملح وأكوام من القش؛ ليستخدموها في تغطية الأرض الصلبة للجلوس والنوم!

ما أن اطمأن «إميل» على الجميع حتى أسرع بالرحيل مع وعد منه بالعودة إليهم مرة أخرى عندما تستقر الأوضاع، ويكون هو قد وجد لهم حلًا يساعدهم على استقرار نهائي في مكان آمن. رحل تشيِّعه نظرات «أحمد» المستنكرة والممتلئة بشكٍّ ما لبث أن انشغل عنه بالاندماج في النشاط الذي دبّ في الجميع، حيث أسرعوا يتحركون في كل الاتجاهات؛ ليتمكنوا من إنهاء كل شيء قبل حلول الليل. اتجه البعض نحو الأودية المجاورة يقطعون جذوع وفروع الأشجار قبل أن يعودوا بها فيستخدمون السميك منها لبناء الأكواخ وفرشها بالقش، ويكومون النحيف لاستخدامه في إشعال النيران، كما قاموا أيضًا ببناء أسيجة يمكن

استخدامها لإغلاق الفتحات الكائنة بين الصخور المحيطة للحماية من أي حيوانات مفترسة، بينما اتجه البعض الآخر لجلب الماء من الجدول الجبلي القريب، واستخدام الخيوط في صيد أسماك الترويت التي تعيش في هذه المياه المثلجة دون عناء. أما الباقون فتفرقوا بين من يتجوَّل في الأودية المجاورة، محاولين إيجاد أي ثمار تصلح للأكل، وبين من يقومون بنصب الفخاخ المصنوعة من قطع الخشب النحيفة لاصطياد الطيور. وفي غضون ساعات تحوَّل الحصن الجبلي إلى قرية شركسية صغيرة، حظي فيها «حمزات» و«أحمد» بكوخ صغير ملاصق لكوخ آخر كان من نصيب «نورسان» و«كوللا» و«إيفا» الصغيرة.

مضت الحياة بعد ذلك هادئة رائقة جميلة -على الرغم من قسوتها وقلة أنواع الطعام المتوفرة- بعد أن رحل عنهم الخوف الذي كان يلازمهم حينما كانوا يعيشون وسط القرى المأهولة بالكراهية الموجهة ضدهم دون ذنب، وقريبًا من خطوط النار التي كان يمكن أن تطولهم في أي لحظة. وباستثناء غياب الزراعة وبعض المظاهر والأنشطة، اتخذت الحياة طابعًا يشبه طابع الوطن القوقازي، حيث يُخَصص النهار للأعمال المنزلية والطهي والصيد وتدريب الصغار على أعمال الفروسية والقتال، بينما تُهدى الكثير من الليالي

خاصة المقمرة منها لحفلات السمر، حيث تقف صفوف النساء في مواجهة صفوف الرجال؛ لأداء رقصة القافا الشركسية المتميزة.

ومثلها مثل الباقين، كانت «نورسان» تقضي معظم النهار أمام كوخهن الصغير بجانب «كوللا» التي اتخذت هناك مجلسًا آخر تعوِّض به مجلسها أمام النافذة. رحل عنها الخوف والاضطراب اللذان رافقاها طوال رحلة صعود الجبل، وعادت إلى هدوئها وشرودها اللذين كانت تتخلص منهما في بعض حفلات السمر عندما تقف لتؤدي رقصة القافا هي الأخرى، ولكن وحدها بجانبهم مع شبح حبيبها الذي لا يراه أحد غيرها.

كان «حمزات» يصطحب «إيفا» الصغيرة مع مجموعات مختلفة؛ لاستكشاف الأودية المحيطة وجلب الأخشاب أو الصيد الذي كانت تحبه «إيفا» كثيرًا لاسيما صيد الأسماك التي ما أن ترتفع متلوية بأجسادها الفضية اللامعة في الخيط المعلق في الهواء حتى تقفز مصفقة في سعادة تبهج «حمزات»، بينما كانت تبقى «نورسان» لتقضي نهارها في إشعال النيران والطهو والحياكة وإصلاح الملابس في مكانها المحبب بجانب «كوللا»، حيث يمكنها اختلاس النظر نحو

«أحمد» الذي وجد متعته في تنصيب نفسه أتالقًا للصبية الصغار. كأن روحه رُدَّت إليه، وعادت لتطلَّ جليَّة من عينيه الممتلئتين بالشغف، وقد نسي تمامًا ذراعه الغائبة، وهو يلقي لهم بالتعليمات ويقوم بتوجيههم وهم يركبون الأفراس الصغيرة أو يمسكون بالسيوف والخناجر أو ينظرون نحوه في إعجاب وإكبار وهو يقص عليهم ما عاشه في ميادين الحرب والقتال من مغامرات وحوادث تحبس الأنفاس، وتخطف عقول هؤلاء الصغار. تراهم يحيطون به ويعاملونه بإجلال يتظاهر هو بعدم ملاحظته أو الاكتراث له، بينما كان بداخله يستقبله وكأنه برد ينزل على النيران المضطرمة، ويعيد بناء عزته التي هدمتها سنوات القهر العجاف.

تراقبه في عمله وشروده.. تراقبه أثناء حفلات السمر عندما يظل جالسًا بجانب النيران أو عندما يقف في الصف المواجه لها أثناء الرقص.. تراقبه في كل موضع وحين، ولا تتلقى في المقابل أي شيء! أيام طويلة من اختلاس النظرات نحوه بينما يبدو هو منشغلًا عنها تمامًا! لا يشعر بشيء مما يدور بداخلها! ربما حتى لا يشعر بوجودها كله! يدبُّ اليأس مالئًا شرايينها بمرارته، بينما تثور كرامتها الجريحة وقلبها المكلوم(44) غير القادر على التخلص من تعلقه به، ويستبد بها غضبها من نفسها، وكل يوم يبدأ بها وهي تتخذ القرار

بالكفِّ عن الاهتمام به وينتهي بالفشل والعودة إلى نفس النقطة، حيث تضيق الأرض بها وبمشاعرها وألمها وعجزها عن إيقاف هذا الذي يكبر بداخلها نحوه هو فقط دون غيره!

تحاول أن تستغلَّ غضبها هذا لتكرهه.. تحاول عدم الاهتمام به.. تحاول نسيانه.. ولكن كيف وهو حولها وأمام عينيها دائمًا؟! يصعقها عجزها، فيتحول غضبها من نفسها ومنه إلى عبوس دائم وضيق وانعدام صبر ومزاج حاد بلغ قمته في هذا اليوم الذي أصرت فيه «كوللا» على معارضتها وعدم دخول الكوخ معها، رغم اشتداد البرودة وبداية تساقط ذرات الثلوج موحية ببداية شتاء قارص. وقفت «نورسان» تصرخ بوجه محمر وأوداج(45) منتفخة بغضب أخاف «كوللا»، فأسرعت تزحف نحو الداخل، حتى استقرت منكمشة في أحد الأركان بجانب «إيفا» التي مضت تربت عليها في حنو؛ لتهدئها، بينما كانت «نورسان» لا تزال واقفةً في الخارج محاولةً التقاط أنفاسها، والسيطرة على غضبها عندما اقترب منها «حمزات» الذي كان قد خرج من كوخه المجاور مسرعًا عندما سمع صرخاتها. توقف خلفها قبل أن يقول في لوم هادئ:

- لم يكن الأمر يستحق كل هذا الصراخ يا «نورسان»!

التفتت نحوه وقد عاد الغضب يملأ عينيها المحمرتين قبل أن تجيب في حدة:

- ألا تشعر بالبرودة حولك؟! هل كنت تريدني أن أتركها هنا كما أرادت هي حتى تتجمَّد؟!

لم تنتظر منه ردًّا على أسئلتها، واستدارت لتدخل الكوخ، وتغلق الباب خلفها في عنف، تاركةً إياه غارقًا في دهشته التي لم يوقظه منها سوى ربتات «أحمد» على كتفه بعد أن رأى كل ما حدث من بعيد، ولم يشأ التدخل أو الاقتراب حتى ينتهي الموقف كله.

زفر «حمزات» قبل أن يهتف في استنكار:

- مزاجها حاد جدًّا هذه الأيام! لم أرها هكذا من قبل!

ابتسم «أحمد» وهو يجيبه مطمئنًا:

- لا تقلق.. هي فقط متعبة.. الظروف سيئة وهي تحمل الكثير وحدها.. فلنتحمَّلها قليلًا.

في هذه الليلة استيقظت «إيفا» على صوت بكاء «نورسان» في الظلام، فاستكملت تظاهرها بالنوم، بينما كانت بداخلها تشعر بالإشفاق الشديد وأصوات الشهيق والزفير المكتومة ببكاء حارق تخترق أذنيها.

في اليوم التالي كانت «نورسان» تجلس خلف الكوخ، وقد أسندت ظهرها لحائطه الخارجي، محاولةً التلهّي عما بها بالانشغال في إصلاح بعض الملابس، عندما شعرت فجأة بـ«أحمد» يقترب منها، قبل أن يتوقف، ويجلس بجانبها مباشرةً! مرت فترة وجيزة من الصمت كاد قلبها أن ينفجر خلالها من الدقّ الشديد، وهي تحاول التظاهر بعدم الالتفات والانهماك فيما تفعله حتى قطع هو هذا الصمت قائلًا في نبرة هادئة:

- ربما كان يمكن أن تكوني أكثر رفقًا بـ«كوللا» فيما حدث البارحة.

رفعت رأسها ناظرةً نحوه وقد احتلتها الدهشة قبل أن تهتف في غضب:

- ألا ترى الثلوج المتساقطة فوق قمم الجبال القريبة؟! ألا

تشعر بالبرد الذي يمكن أن يقتلها لو تركتها تجلس في مكانها هذا عند غروب الشمس؟! ماذا دهاكم؟! لقد كنت خائفةً عليها!

عادت لتنظر إلى ما بين يديها محاولةً السيطرة على أنفاسها المتلاحقة ويديها المرتعشتين بالغضب. ألا يكفيه ما يفعله بها؟! يأتي ليلومها على ما لا شأن له به وعلى غضبها، بينما هو من تسبب فيه؟!

صمت «أحمد» قليلًا قبل أن يقول في نبرة ذات معنى:

- أعرف جيدًا.

نظرت نحوه في تشكُّك قبل أن تتساءل:

- ماذا تقصد؟!

ابتسم نصف ابتسامة، وهو يقول مركزًا عينيه في عينيها:

- أعني أنني أعرف جيدًا كم تحبينها وتخافين عليها.. أنا فقط لا أفهم لماذا تُغلِّفين دائمًا هذا الحب بكل هذا الجفاء؟!

ألجمت كلماته لسانها! توقفت عما تفعله، لكن دون أن تواتها الجرأة لترفع رأسها وتنظر نحوه! صعقها ما لم يستطع أحد أن يصارحها به من قبل! حتى بينها وبين نفسها لم تجرؤ قط على التفكير فيما تشعر به وما تفعله نحو هذا الأمر! لم تجرؤ على مصارحة نفسها أو التخلي عن الحذر الذي تتعامل به مع هذا الصندوق المغلق بداخلها، وهي تعيش حياتها متجولة حوله دون محاولة فتحه أو حتى الاقتراب منه!

شعر «أحمد» بشيء من القلق تحوَّل إلى ندم بعد أن أدرك شدة ما تفوَّه به للتوِّ، وبعد هذا الاصفرار الذي احتلَّ وجهها وشفتيها وعينيها الزرقاوين. حاول أن يخفف من التوتر الذي حل بينهما، فمضى يتكلم كأنه يستكمل حديثًا كان قد بدأه عن نفسه ولا دخل لها به!

- أتعرفين شيئًا؟ أنا أكِّن لـ«كوللا» معزةً خاصةً في قلبي.. إنها الشيء الوحيد المتبقي لي من «إينال».

رفعت رأسها قليلًا تسترق النظر نحوه عندما شعرت بنبرة صوته ترقُّ، وقد لاح بها شيء من ألم بدا أيضًا في عينيه الشاردتين، وهو يستطرد وابتسامة شاحبة ترتسم على شفتيه:

- في يوم ما كان «إينال» هو كل شيء لي في الدنيا.. كان يعوضني عن أم راحلة وأب منشغل.. كان أخًا وصديقًا وقدوةً.. قوة أنظر لها بإكبار وانبهار.. وحنانًا لم أكن أدركه وقتها، لكنه كان يشملني ويحيطني من كل ناحية! فارس ومقاتل وثائر أفخر به، وأنظر له كما كنا ننظر لأبطال أساطيرنا القديمة التي طالما قصَّها علينا الجدات والأجداد! وفي قلب كل ذلك.. قتلوه أمام عينيّ.. ولم يتركوا لنا حتى الفرصة لنقوم بدفنه، كما لم يتسنَّ لي البقاء لأثأر له!

صمت محاولًا السيطرة على الألم الذي استيقظ بداخله، بينما كانت تستمع له وقد تفتحت أمام عينيها الدامعتين طاقة كشفت لها عن أشياء جديدة لم تكن لتتخيل أبدًا أنها ضاربة بجذورها بداخله بتلك الطريقة، ولم تستطع حيالها أن تمنع قلبها من أن يعود ليرق له ويذوب أمام ألمه هذا!

استطرد «أحمد» وابتسامته تتسع كأنه يضحك من نفسه:

- لذلك كان من الصعب عليّ تقبُّل فكرة أن هذا البطل العظيم يقع في حب فتاة! هذا الفارس يهبط من عليائه، ويذهب إليها وسط صديقاتها ويجلس بجانبها هائمًا فيها

ومتمنيًا كلمة منها!

ابتسمت «نورسان» وقد لاحت أمام عينيها ذكرى بعيدة غائمة ليوم جلست فيه قريبًا من «كوللا» و«إينال»، بينما جلس على مرأى منها فوق فرسه فتى مراهق يتابع كل ما يحدث عابسًا متجهمًا.

- ربما حتى ظللت غير قادر على تقبل هذه الفكرة حتى قريبًا جدًا.. حتى وجدت نفسي واقعًا في نفس ما وقع هو فيه!

انتبه «أحمد» وتوقف فجأة عن الحديث قبل أن يصيبه ارتباك أخفاه، ونهض مبتعدًا في سرعة، بينما تبعته هي بحدقتين تتسعان في ذهول، وقلب يكاد يُجَنُّ من فرط الاضطراب! تلتقط أنفاسها بصعوبة والسعادة المترددة تكاد تفتك بصدرها! هل كان يعني حقًا ما فهمته هي من آخر شيء قاله؟! هل يمكن أن يكون ما خطر ببالها هذا صحيحًا؟!

أعادها الأمل المستيقظ بداخلها لمراقبته مرة أخرى في الأيام التالية. أيام شتوية طويلة باردة حاولت خلالها التقاط كلمة تشبه تلك التي قالها، أو أي شيء يؤكد لها ما يُحدِّثها به

قلبها قبل أن تقتلها حيرتها، بينما هو لم يتغير به شيء! منشغل دائمًا بالصيد والتدريبات التي يشرف عليها للصبية الصغار! لا يلتفت نحوها ولا يشعر بوجودها! هل يمكن أن يحمل كلامه معنىٍ آخر غير الذي فهِمَته؟! أو هل يمكن أن يكون في قرارة نفسه يقصد فتاة أخرى؟ من هي؟! لا يمكن أن تكون إحدى فتيات قريتهم الصغيرة! لا يبدو عليه الاهتمام بأي منهن! هل تكون فتاة أخرى تعرّف عليها، واضطر للافتراق عنها قبل أن يعود إليهم؟!

عاد اليأس يضرب بجذوره الحادة المريرة بداخل قلبها، لا فائدة يا «نورسان»، يبدو أنه كان كلامًا بلا معنى، فسَّرتِهِ أنتِ بما يريحكِ ويسعدكِ بينما هو لم يقصدكِ به أو ربما حتى لم يقصد أي شيء مما يدور بمخيلتِك. إنكِ لا تعنين لديه أي شيء أكثر من أنكِ أخت صديقه وأخت زوجة أخيه التي تذكّره به فقط. لا يفكر بكِ ولا تهمينه في شيء، وكل ما تشعرين به نحوه لا يقابله شيء عنده نحوك. فلتكُفّي إذن عن إيذاء نفسك، ولتعودي كما كنتِ خلف أسوارك الحصينة.

تركت اليأس يسيطر عليها، وجاهدت لتقنع نفسها بأنها ستكرهه، ولن تبالي به مرة أخرى. عاد الغضب ينتابها، غضب لا يليق باللامبالاة التي أقنعت نفسها بأنها بدأت تتحلى بها

نحوه. غضب منهزم وعاجز، لكنه غضب على أي حال.

٥

الشتاء يقترب من نهايته والثلوج تذوب كاشفةً عن مزيد من المساحات الخضراء ومفسحة لبراعم الورود الصغيرة لتبدأ في الظهور على استحياء والتقاط أولى أنفاسها الجبلية، خرجت نورسان من محيط القرية وحصنها الصخري وهي تدفع عربة يدوية صغيرة نحو أرض منبسطة قريبة تطل على منحدر يكشف الطريق عند سفح الجبل، ويطل على مجموعة من الشجيرات ذات الأفرع الجافة النحيفة التي تصلح لإشعال النيران. توقفت وأسندت عربتها نحو الأرض قبل أن تلتقط منها القامة أو الخنجر الشركسي، وتنهمك في تقطيع تلك الأفرع بحدة، وتلقيها في العربة بتصميم، حتى بدأت بعض خصلات شعرها الذهبي الباهت تتهدل من تحت وشاحها مع بضع قطرات من العرق تتساقط على جانبي وجهها المتجهم، بينما هي منفصلة تمامًا عما حولها وقد غمرها تركيزها فيما تفعل، وسيطرت عليها أفكارها المتداخلة.

أحست فجأة بشيء خلفها، فالتفتت مسرعة وقد تملكتها

موجة من الرعب ما لبثت أن انحسرت عندما أدركت أن هذا الشيء لم يكن سوى «أحمد» الذي أتى ليقف خلفها مباشرة! وضعت يدها الخالية على صدرها الذي أحست به وكأنه سينفجر، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة بينما أسرع هو يقول في فزع:

- أنا آسف! هل أخفتُكِ؟!

حاولت أن ترفع رأسها لتنظر نحوه.. هل تبدو ملابسه وهيئته مهندمة أكثر من الطبيعي؟! جاهدت لتتحدث من بين أنفاسها المتلاحقة:

- نعم قليلًا!

مضت فترة من الصمت حتى هدأت أنفاسها، فعادت تحاول التظاهر بالبرود والجمود وهي تتساءل مستنكرة:

- لماذا لم تخبرني أنك قادم خلفي أو حتى تناديني وأنت تقترب؟!

أخذ «أحمد» نفسًا عميقًا، محاولًا السيطرة على ارتباكه قبل

أن يقول بنبرة خافتة:

- لم أفعل ذلك؛ لأنني وحتى آخر لحظة كنت مترددًا كثيرًا، وكدت أن أتراجع عدة مرات!

اختلطت بداخلها أفكار ومشاعر لم تجد وقتًا لاستيعابها، وظل جزء منها خائفًا من أن يفسِّرها بأي تفسير جيدًا كان أم سيئًا! عقدت حاجبيها وهي تردد في عدم فهم:

- تتراجع؟!

لم يهتم «أحمد» بإجابة سؤالها، بل أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يفتحهما وينظر بهما بعيدًا وهو يحاول إخفاء المجهود الذي يبذله ليستفيض في حديثه هذا. كلما تقدم في الكلام أحس بالراحة تنتشر بداخله رويدًا رويدًا، وكأنه يلقي أخيرًا بكل ما يثقل كاهله وقلبه تحت قدميها دون الاكتراث للعواقب:

- منذ أن غادرتكم أو ربما حتى منذ أن قُتِل إينال، وغادرنا القوقاز، وأنا أحيا حياة قاسية جدًّا.. حياة بغيضة لا دفء فيها ولا أمل.. نعم فقدت الأمل في كل شيء.. فقدته حتى

أنني كنت أتمنى في كل قتال أخوضه ألا أخرج منه حيًا.. كنت أحسد من يموتون وأتمنى لو كنت بينهم.

حدقتاها متسعتان وقلبها مأخوذ وهي تتأمله! أول مرة تراه يتحدث بكل هذا الانكسار، وتشعر أن كل الكلام يخرج من قلبه المنهزم، وأنه لا يتحرج من إبداء هذه الهزيمة التي يشعر بها، ولا من أن يترك ضعفه يظهر جليًا عليه متعمدًا وليس سهوًا كما حدث عندما تحدث عن «إينال» من قبل!

صمت مبتسمًا ابتسامة متحرجة مما يدفع نفسه دفعًا ليتحدث عنه بوضوح هكذا:

- وعندما فقدت ذراعي، وقرروا الاستغناء عني لم أعرف هل أفرح؛ لأنني تخلصت من القتال في حرب لا شأن لي بها، أم أغضب منهم؛ لأنهم تخلصوا مني ببساطة هكذا بعد أن أنفقت تحت راياتهم سنوات طويلة من الغربة والافتراق حتى فقدت أكثر ما أحبه في هذه الحياة: أن أظل أجيد الفروسية وإمساك السيف والصيد إجادة تامة حتى آخر يوم في حياتي.

صمت ملتقطًا أنفاسه وهي لا تزال تتابعه مأخوذة قبل أن

يستطرد:

- ظل كل شيء مظلمًا وقاتمًا حتى عدت إليكم.

أخفض عينيه نحوها، وهو يستكمل مضطربًا:

- حتى وجدتُكِ.

أحسّت بعدوى اضطرابه تنتقل إليها، أبعدت عينيها عنه محاولةً السيطرة على وجيب قلبها قبل أن يجذب نظرها نحوه مرة أخرى:

- «نورسان».. هل تذكرين ذلك اليوم عندما قلت لكِ أنني لم أفهم قط هذا الذي حدث لـ«إينال» حتى وقعتُ في نفس ما وقع هو فيه؟

أومأت إيماءة خفيفة وعيناها معلقتان بعينيه. زفر هادمًا آخر قلاعه قبل أن يقول بعينين مستسلمتين لما غزاهما من شغف وغرام:

- كنت أقصدكِ أنتِ يا «نورسان»! منذ اللحظة التي ظهرتِ

لي فيها من العدم، فدفعتِني بسلاسة بعيدًا عن الاستسلام لليأس التام، وكان بيني وبينه لا شيء تقريبًا، وخلقتِ لي حياة لم أكن أتمنى أبدأ أن أحظى بمثلها بعد كل ما مررت به! منذ هذه اللحظة وأنا مدين لك بتلك البداية الجديدة. ثم توالت الأيام ووجدت شيئًا ما يشد قلبي أكبر من هذا الدَّين.. أكبر منه بكثير.. شيء جديد لم أعرفه من قبل يهزمني كل يوم ويجذبني نحوك مهما قاومته، صدقيني حاولت مقاومته بكل قوتي، حاولت الابتعاد وإخفاء ما أشعر به حتى وقعت بلساني، وأنا أتحدث عن «إينال» دون أن أقصد.

تنظر «نورسان» نحوه وقلبها يدقُّ في عدم تصديق! لقد كان طوال الفترة الماضية يفكر فيها ويشعر نحوها بنفس ما كانت تشعر به! كان الابتعاد والانشغال والشرود ليسوا إلا محاولات لإخفاء هذا الشيء الذي وُلِد بداخله كما وُلِد بداخلها!

ازدردت ريقها، وابتسمت في اضطراب من مشاعرها المختلطة، بينما تعمَّد هو أن يبعد عينيه عنها كأنه أنهى اعترافاته كلها، ويقف الآن في انتظار حكم نهائي سيصدر من بين شفتيها. أخفضت عينيها محاولةً التغلب على خجلها وهي تتساءل في رقة:

- لماذا قاومتَه؟! هذا الشيء الذي كان يجذب قلبك، لماذا قاومتَه؟!

رفع نحوها عينين مدهوشتين! هذا السؤال هو آخر ما كان يتوقع أن تجيبه به! فكر قليلًا قبل أن يقول في حيرة:

- لا أعرف! هناك أسباب كثيرة.. الخوف والظروف و...

صمت للحظة وهو يلقي نظرة متألمة عابرة على موضع ذراعه الغائبة قبل أن يقول:

- وأشياء أخرى.

هدأت مشاعرها المضطربة، اتسعت ابتسامتها أكثر، قالت وقلبها يكاد يطير من السعادة:

- وما الذي جعلك تفصح عن هذا الشيء الآن؟

رفع كتفيه قائلًا في بساطة:

- غضبك وهذا المزاج الحادّ الذي واجهت به موقف «كوللا»

جعلني أدرك أنكِ متعبة بشدة.. مثقلة بما لا تستطيعين تحمُّله وحدك! حاولت تجاهل ذلك، لكنني لم أستطع الوقوف صامتًا حيال احتياجك هذا! فاقتربتُ وأفصحتُ قليلًا دون أن أقصد! بعد ذلك قضيتُ الأيام الماضية كلها حائرًا معذبًا بين أن أتجاهل ما حدث، وأعود إلى صمتي وإخفائي، وبين أن أستكمل ما بدأته، وأن أفصح لكِ عن كل شيء.. ثم استسلمتُ لحقيقة أنني لا أستطيع التحمل والإخفاء أكثر من ذلك مهما... مهما كانت العواقب!

صمت.. الاضطراب واضح في عينيه وهو يبعدهما عنها، بينما يتحرق شوقًا ليعرف ردَّها عما قاله، اتسعت ابتسامة «نورسان» وطفرت الدموع من عينيها، اقتربت منه خطوة وهي تبذل كل جهدها؛ لتتجاوز حياءها، وتقول في نبرة خافتة:

- وماذا إذا قلت لك إن غضبي ومزاجي الحاد كانا بسببك، وإن هذا الذي كان يثقلني كما قلت ليس إلا نفس الشيء الذي كان يهزمك ويجذبك؟!

نظر نحوها بعينين غير مدركتين لما تقوله، أو ربما حتى غير مصدقتين، تغلبت على ارتباكها وتقدمت خطوة اغتالت

المسافة الفاصلة بينهما قبل أن تمد يديها المترددتين، وتمسك بطرف ذراعه المبتورة بكلتا كفيها، جفل «أحمد» وكاد بحركة لا إرادية سريعة أن يبعد عنها هذا الجزء لولا أن تماسك في آخر لحظة، خاصة عندما أحسَّ بقبضتيها تتشبثان بطرف ذراعه بقوة وإصرار، فظل مكانه تاركًا إياه بين يديها، وإن ظل متململًا قليلًا، بينما لم تعرف هي كيف استطاعت أن تتغلب على كل ارتباكها وخجلها، وأن تتخذ قرارًا سريعًا بأن تفعل ما فعلته للتو، وتقول ما ستقوله الآن، لكنه هذا الشيء، هذا الشيء الذي وُلِد غريبًا بداخلها، فاستنكرته ثم تآلفت معه وأحبته قبل أن يعود ليعكر مزاجها ويصيبها بالضيق والحيرة، فقررت الفترة الماضية أن تكبحه وتحبسه خلف أسوارها بصرامة وعنف، هذا الشيء تشعر به يفيض بداخلها الآن، يفور ويفيض من قلبها نحو أطرافها وجسدها كله حتى يجري على لسانها صدقًا رقيقًا لم تكن تظن أنها يمكن أن تتفوه به هكذا يومًا:

- هل تعرف يا «أحمد»، منذ أن عدتَ وأنا كيف أراك؟

لم تنتظر أكثر من التساؤل الذي بان في نظرته المذهولة، لتستطرد مبتسمةً وقد بان توهُّج خفيف على وجنتيها ذاتي البياض الشاحب:

- أراك مثل جسر.. جسر طرفاه ثابتان على ضفتي نهر هادر عنيف.. يضربه بقوة فيزداد تماسكًا وصلابةً في وجهه.. وعندما تهدأ الأمواج ويعود المجرى رائقًا يتمسح بقوائمه.. تظهر مهابته جلية.. مهابة تخفي حنوًا وطيبةً يلوحان للعابر مهما بالغ هو في إخفاؤهما خلف قشرة ألواحه الداكنة.

أحسَّ بكل توتره يتلاشى وبالراحة تنتشر في أوصاله. ارتخى طرف ذراعه المبتورة بين يديها فمد يده ووضعها فوقهما قبل أن يقول وعيناه مشدودتان نحو عينيها:

- «نورسان».. هل تقبلين أن تكون هذه هي زيارة البسالوخ التي أؤديها لكِ؟

دقَّ قلبها، واتسعت حدقتاها في دهشة! حسب التقاليد الشركسية، زيارة البسالوخ تسبق الـ.. زواج!

أسرع مستطردًا وقد أدرك ما يدور بخلدها:

- أعرف أنني بطلبي هذا أتجاوز الكثير من الخطوات المهمة.. أعرف أنني لم أطلبك للرقص أمام القرية وأمام أسرتك، وأن «حمزات» لم يعرف شيئًا بعدُ.. لكنني أريد أن

تكون اللحظات الأولى ملكنا نحن الاثنين فقط، حتى وإن تجاوزت التقاليد قليلًا من أجل ذلك.. فهل تقبلين؟

كانت تتأمله بعينين لامعتين وقلب مرفرف. هذا أسرع وأجمل بكثير مما تمنَّت أو تخيَّلت!

- أقبَلُ يا «أحمد».

كان للخبر وقع مبهج على الجميع، خاصةً «حمزات» الذي راوده إحساس خاص بأن هذا فأل حسن، وليس إلا بداية لمزيد من سعادة سيكون له منها نصيب كبير، فانهمك مستبشرًا مع «أحمد» في بناء كوخ جديد؛ ليكون بيت الزوجية، والإشراف على الاستعدادات المختلفة. تجري آخر أيام الشتاء في سرعة، ويجري معها الجميع لإنهاء كل شيء قبل يوم الزفاف. هذا اليوم الذي أشرقت فيه شمس شتوية هادئة مرسلةً خيوطًا من أشعة دافئة غمرت الساحة في حنو، كأنها تعرف كم هو مميز هذا اليوم بالنسبة لهم، وتشاركهم الاحتفال به.

اجتهد الجميع ليكون العُرس أشبه ما يكون بالأعراس الشركسية، وإن قلَّت الموارد والإمكانيات، فتجمَّع تلامذة

«أحمد» يؤدون استعراضات الخيل المختلفة، كأنهم بذلك يبرزون امتنانهم لمعلمهم، ويعوضون غيابه القسري عن المشاركة، كما مُدّت أسمطة الأطعمة الشركسية التي بالرغم من أنها كانت أقل مما كان يقام في أعراس الوطن، إلا أنها كانت على أي حال أكثر من اليومي المعتاد.

ارتدى «أحمد» تشيركيسكا شركسية تقليدية كانت آخر ما تبقى لإحدى عجائز القرية من زوجها الراحل، فأعارتها له؛ امتنانًا لما يبذله في تعليم ابنها الفروسية والقتال. أما «نورسان» فقد قامت إحدى نساء القرية بجمع الكثير من القصاصات البيضاء من فتيات القرية، واستخدامهن في صنع ثوب عُرس بسيط ووشاح لم تستطع «نورسان» أن تزينه عند مقدمة رأسها بالعملات الذهبية أو الفضية كما كان يجري في القوقاز، فاستبدلت بذلك طوقًا من براعم الزهور التي ظهرت على استحياء قبل انتهاء الشتاء، والتي قام بجمعهم لها بعد رحلة طويلة في الأودية المحيطة «حمزات» مصطحبًا معه «إيفا» الصغيرة.

وعندما انتصف اليوم، وقف صفُّ الفتيان مواجهًا لصف الفتيات يؤدون رقصة القافا التقليدية على الأنغام التي جلس الشيوخ والعجائز يغنُّونها بحب وبهجة صادقين. أوقف

«حمزات» الرقصة ليجذب «إيفا» ويوقفها أمامه في صف الفتيات تحت دهشة الجميع، حيث جرت العادة أن الصغار في سنِّها لا يشاركون في الرقص، لكنهم ما لبث أن اعتادوا الأمر، واستكملوا رقصتهم وقد غطى الفرح على كل شيء بما في ذلك الإيلام الذي يحدث في القلب من شكل «كوللا» التي لم تشارك الفتيات صفهن، بل وقفت ترقص على مقربة من الجميع رقصتها المعتادة مع شبح حبيبها. وعندما أنهوا رقصتهم قاموا بإخلاء الساحة والجلوس متحلقين حول منتصفها الذي وقف فيه «أحمد» مواجهًا لـ«نورسان» استعدادًا لبدء رقصة عُرسهما.

قفز «أحمد» قفزات متتالية وهو يدور حولها، ويحرك ذراعه الواحدة في ثبات وجذل(46) طغا على غياب ذراعه الأخرى وما صاحب ذلك من بعض النقائص في رقصته فأخفاهن تمامًا، خاصة وقد اقترن ذلك بخطوات «نورسان» الرشيقة وحركات ذراعيها ويديها الرقيقتين، وهي تدور معه وحوله، بينما عيناها لا تفارقان عينيه، وقلبها يكاد يطير بين جوانحها(47). ترفع ذراعيها وتدور فيدور معها وشاحها المتدلي خلفها، وتأتيها صورة عُرس «كوللا» ورقصها مع «إينال»! تتذكر تذكرًا لا يُفقِدها فرحتها ولا بهجة الرقص مع «أحمد»، لكنها لا تستطيع أيضًا أن تتجاهل الفكرة التي واتتها

عن قسوة أن تتعرض أية فتاة لفقدان كل ذلك بعد ثلاثة أشهر فقط!

توقف كل شيء فجأة عندما انتصب شاب كان يتابع الغرس من مجلسه فوق إحدى الصخور وهو يشير نحو أحد الأودية هاتفًا في فزع:

- فارس يقترب على حصان!

سرت عدوى الفزع والارتباك في الجميع، ووقف الرجال متأهبين لهذا المجهول الذي يقترب، بينما أسرع «أحمد» بحركة لا إرادية يجذب «نورسان» لتلتصق بظهره، وقد شحب وجهها، وسيطر عليها خوف ما لبث أن انزاح عندما أدرك الجميع أن هذا الفارس ليس إلا «إميل»!

ذهب الفزع والارتباك ليحل محله الترقب والتساؤل. هل أتى «إميل» ليطمئنَّ عليهم، أم إنه يحمل أخبارًا جديدة؟!

هبط «إميل» من على فرسه، واقترب مبتسمًا في دهشة من الجمع، وقد أدرك ما يجري. توقف أمام «نورسان» و«أحمد» الذي كان ينظر نحوه بنفس التوجس والارتياب

اللذين لم يستطع التخلص من الشعور بهما نحوه. اتسعت ابتسامة «إميل» الهادئة قائلًا:

- يبدو أنني أتيت في اليوم المناسب لأشارككم فرحتكم!

ثم التفت نحو الجميع، وقد استعاد شيئًا من جديته وهو يقول:

- كما أنني أحمل إليكم أخبارًا أظن أنها جيدة.. يمكنكم الآن أن تعودوا إلى دياركم.. بل يجب أن تعودوا وقريبًا جدًا.

٦

وقف «أحمد» يراقب بزوغ الفجر من الثغرات الضيقة لخصاص النافذة المغلق بإحكام، بينما أصوات جلبة خفيفة تأتيه من وراء باب خلفي للكوخ يفضي إلى فجوة مختبئة بين الصخور الناتئة المحيطة بالقرية، حيث كانت الفتيات قد قمن بغلي قدر كبير من الماء قبل أن يطفئن النيران، ويغطين القدر تاركين إياه فوق الرماد؛ لتحتفظ المياه بسخونتها لأطول وقت ممكن وسط البخار الذي كسا الفجوة الصخرية بطبقة رقيقة وقفت «نورسان» في وسطها تأخذ حمامًا دافئًا.

وبينما كانت تسكب المياه الرائقة على جسدها الراضي بعد أول ليلة حب، كان «أحمد» يفكر فيما حدث منذ أن ظهر «إميل» وحتى عاد مع «نورسان» إلى كوخهما هذا، فنسي الأمر برمّته لسويعات قليلة أسكره خلالها القرب، قبل أن يعود ليتذكر مرة أخرى بعد أن أفاق - رغم كل شيء - منتشيًا برضا لم يعرفه من قبل.

يتأمل تدرج الأفق من الأسود الحالك إلى الأزرق السماوي الفاتح، وعقله منشغل بالأخبار التي جلبها هذا الـ«إميل» معه! فشلت الانتفاضة التي حاولت الدوائر الثورية البلغارية من خلالها الاعتراض على قرارات معاهدة برلين، تخاذلت روسيا عن مساعدتهم بعد أن أنهكتها الحرب وقررت الالتزام بصرامة بالمعاهدة؛ حفاظًا على مكاسبها وعلاقاتها، ووجد البلغار أنفسهم وحيدين في مواجهة القوات العثمانية التي أحكمت قبضتها على منطقة ترافيا والمناطق المقدونية ومن ضمنها رازالق. جلسوا متحلقين حول «إميل» الذي حكى الكثير والكثير قبل أن يختم كلامه ناصحًا إياهم بضرورة العودة؛ لأن هذا هو أنسب وقت يسترجعون فيه أرضهم وبيوتهم، ويتم تسجيلهم ضمن رعايا السلطان العثماني، ويضمنون وجودهم وبقاءهم تحت حمايته.

استدار منتبهًا عندما سمع صوت الباب يسبق صوت خطواتها. تقترب منه كشمس تشرق قبل تلك التي كان يتأمل السماء في انتظارها، وهي تخفي خجلها من سعادتها الغامرة خلف بشرتها ذات البياض الشاحب، وقد أشربت بحمرة خفيفة وجديلتها الذهبية المتوهجة على كتفها الأيمن بما يثقلها من قطرات تتلألأ على خصلاتها، وتتساقط على ثوبها البرتقالي الداكن.

أحس برضا دافئ يغمر صدره وهو يراها أمامه، ويزداد إدراكه بأنها أصبحت قريبة إلى هذا الحد، وستظل هكذا دائمًا ففتح ذراعه يستقبلها بها ويلفها حولها لاصقًا إياها بجسده كأنه يستزيد من هذا الإحساس، ويتيقن منه ويحاول تصديقه أكثر.

أسندت نورسان رأسها على كتفه وهي تهمس في رقة:

- هل كنت تفكر فيما قاله «إميل»؟

- نعم بالتأكيد.

رفعت عينيها نحو وجهه وهي تتساءل متوجسة:

- وما رأيك؟ هل سنعود؟

نظر في عينيها قائلًا في استسلام:

- وهل نملك خيارًا آخر؟!

زفرت مفكرة قبل أن تهز رأسها نافية، وهي تقول بنفس الاستسلام:

- المكان هنا جميل وآمن، لكننا لا نستطيع أن نحيا فيه إلى الأبد.

مط أحمد شفتيه مؤكدًا دون أن ينبس، ثم سادت لحظات من الصمت قطعتها «نورسان» قائلةً في تسليم:

- نعود إذن.. نتوكل على الله ونعود.

ثم اتسعت ابتسامتها قبل أن تستطرد في رقة:

- أتعرف ما هو أكثر شيء يدفعني إلى اختيار العودة؟

نظر نحوها مبتسمًا، وهو يتساءل في رقة مستشعرًا موجات الحب التي تمتد منها لتغمره:

- ما هو؟

- أبناؤنا.. لا أريد لهم أن ينشأوا في هذا السجن الطبيعي، أو أن يخطوا أولى خطواتهم في هذا العالم الضيق.. أريدهم أن يفتحوا أعينهم على عالم رحب كهذا الذي نشأنا نحن فيه عندما كنا على أرض الوطن..

ضاقت ابتسامته، وحلَّ الهمُّ في نبرته وهو يجيبها:

- لا أرض كأرض الوطن يا «نورسان».

أحست بشيء من الندم لما اعتراه من حزن بسبب ما قالته. خفتت ابتسامتها قليلًا وإن لمعت عيناها بالأمل قائلة:

- أعلم.. لكن علينا أن نحاول.. علينا ألا نكف عن المحاولة.. لا نملك سوى المحاولة يا «أحمد».

يضغط ذراعه برفق حول خصرها محتضنًا جسدها كله،

فتستسلم وتلتصق أكثر بجسده الحاني، بينما يمرر أنفاسه على شعرها، وهو يهمس في امتنان:

- تبدو المحاولة الآن أيسر كثيرًا حتى وإن كانت أقسى من أي وقت مضى.

تلفُّ ذراعيها حوله، وتتعلق به، وبإحساس الأمان الذي يحيطها به، بينما يملأ عبير شعرها أنفه، ويسيطر على حواسه موقظًا أشواقه مرة أخرى، فيهمس في أذنها راجيًا:

- «نورسان».. هل تأتين إليّ مرة أخرى؟

جسده المرتعش بالاشتياق يقابله جسدها الذي يتوق إليه فتومئ موافقة وقد عادت وجنتاها تتوهجان وقلبها يرتعد، ومسامها تنفتح لتستقبله كما تستقبل أوراق الورود قطرات الندى، وتتشربها لتروي عطش ليل طويل قائظ.

مرّت الأيام التالية سريعةً ومضطربةً. كان أخذ قرار العودة سريعًا ومُربكًا في آن. حاول الجميع الهروب مما يعتريهم من قلق بالتشاغل بحزم الأمتعة ولملمة أشيائهم القليلة؛ استعدادًا لرحلة أخرى تحت قيادة «إميل» الذي فضّل البقاء

معهم، والإقامة مع «حمزات» في كوخه الذي أصبح له وحده بعد زواج «أحمد» و«نورسان»؛ ليساعد الجميع، ويضمن عدم نكوصهم(48) عن القرار الذي بدا هو متحمسًا ومستعجلًا من أجله لدرجة كبيرة.

تقضي «نورسان» أيامها بين جمع الحاجيات التي لم يمر وقت تقريبًا على فرشها إياها في منزلها الجديد، وحزم أشياء كوخها القديم بمساعدة «إيفا» الصغيرة. تروح وتغدو محاولة التشاغل مثل الجميع عن القلق والارتباك، ويزيد عليهم حالة «كوللا» التي عادت لتنزوي مرتعشة في ذعر بعدما أدركت من الحركة الدائرة حولها أنها على مشارف رحلة جديدة تشبه تلك التي سلبتها «إينال» ومعه روحها وعقلها.

تبذل «نورسان» كل ما في وسعها لتتمسك بالتجاهل الذي طالما أتقنته نحو «كوللا» وحالتها، وما يعتريها من نوبات. لكن غصة ما تحتلُّ حلقها، غصة جديدة عليها. يد تعتصر معدتها كلما التقت عيناها بالعينين الزائغتين المرتعبتين. شيء بداخلها صار الآن يفهم ويتفهم، لكنها أيضًا فوجئت بأن أيام التجاهل والجفاء الطويلة طبعت روحها، وأصبحت جزءًا منها. لا تعرف شيئًا آخر ولا تستطيع عمل شيء آخر

حتى وإن حاولت، حتى وإن غالبت قلبها وغلبته ستصطدم بهذا الجدار الرمادي البارد الذي راكمته السنوات، والذي ساعدت هي في إقامته بنفسها دون أن تنتبه وتمترست خلفه واحتمت به، ولا تعرف كم من الوقت ستحتاج لتفتح فيه ثغرة واحدة، وهل تملك المثابرة اللازمة لذلك أم تَمَلَّك منها العجز والجمود تمامًا، ولا مجال لأي عودة!

تجاوزت الأمر وتشاغلت بحزم الأمتعة وتناست الغصة والأفكار المتصارعة. طمأنت نفسها بأنها رحلة صغيرة ستمر مثلما مرت رحلة مجيئهم إلى هنا. ربما ستكون صعبة ومرهقة، لكنها في النهاية ستمر، وسيعودون إلى بيتهم وحقلهم، وسيكون لدى «كوللا» الفرصة مرة أخرى لتتعافى وتنسى وتهدأ، وربما يتسع الوقت والجهد لفرص أخرى مع أختها يمنحها إياها القدر الذي منحها «أحمد» بعد طول شقاء.

هدأ قلبها لهذه الأفكار، وقضت الأيام التالية يشملها اطمئنان حذِر. وعلى الرغم من التوجس الخفي الذي كان يخالط ارتياحها إلا أنه لم يمكّنها أبدًا من توقع هذا الذي حدث مبكرًا يوم الرحيل.

٧

لا تعرف «نورسان» هل جذبها الفزع من ظلام النوم ثم وصلتها الجلبة الحادثة بالخارج أم إن الجلبة هي التي أيقظتها فزعة؟ كل ما تعرفه هو أنها انتفضت فجأة جالسةً في فرشتها وقلبها يضرب بنذير شؤم يؤلم صدرها بعنف. التفتت لتجد الكوخ خاليًا حولها، ولا يبدو لـ«أحمد» أي أثر! نهضت مسرعة وغطّت شعرها في لهوجة، وصوت الجلبة بالخارج يدق رأسها كناقوس لخطر مجهول مقبض!

الناس كلهم متجمعون خارج النطاق الصخري للقرية قريبًا من حافة جرف يؤدي إلى درجة أسفل في الجبل. لا ترى سوى ظهورهم، بينما يبدو أنهم يحدقون نحو سفح هذا الجرف في صمت مخيف، وهي تقترب منهم بخطوات متعثرة وأنفاس متلاحقة كأن نيرانًا تضطرم بداخل صدرها ويزداد رعبها وجنونها كلما دنت من ظهورهم التي تعجز عن أن تستشف منها أي شيء مما يبدو على وجوههم أو في عيونهم أو حتى هذا الذي ينظرون نحوه!

ما أن انتبهوا إليها حتى أسرعوا يفسحون لها الطريق، ويتابعونها وهي تعبر بينهم بنظرات خائفة ومشفقة، حتى

وصلت عند حافة الجرف، حيث كان «حمزات» يجلس كتمثال يحدق صامتًا نحو الفراغ، وبجانبه تقف الصغيرة تبكي في صمت! أسرعت «نورسان» وجسدها يكاد ينهار من الارتعاش حتى أصبحت بجانبه مباشرة، ووقعت عيناها على ما أكد لها ما كان قلبها اليائس يحاول تكذيبه! هناك عند سفح الجرف وسط الصخور ترقد جثة «كوللا» في ثوبها الممزق والملطخ بدماء داكنة متجلطة. صرخت «نورسان» صرخة ألم ترددت بين جنبات الجبال حتى خُيِّل للبعض أن صداها قد وصل للقرى والمدن القريبة، قبل أن تشعر بيد تجذبها بعيدًا عن حافة الجرف، وتجد نفسها في حضن «أحمد». ألصقت وجنتها بصدره، وأغمضت عينيها وهي تجهش ببكاء حار يستنزف روحها في ذراع هذا الذي تعرف أنه الوحيد الذي يفهم ويشعر بهذه الحرب الدائرة بداخلها، بينما أسند «أحمد» ذقنه على رأسها، وعيناه تنبضان بأسى حقيقي وسط عشرات النظرات الحزينة.

مرَّ بعض الوقت وهم على حالهم هذا دون أن يبدو منهم أي بادرة تحرك، حتى بدأ «إميل» في التململ. فات موعد الرحيل واليوم يداهمهم ولا يستطيعون التأخر أكثر من ذلك. اقترب ببطء من «حمزات»، ونزل على ركبتيه ليصبح في مستوى جلسته، واضعًا يده على كتفه، ولم يكد يهم بفتح

فمه حتى انتزعت «نورسان» نفسها من حضن «أحمد» وهي تهتف في عناد بصوت باكٍ مبحوح وعينين منتفختين:

- لن نرحل قبل أن ندفن «كوللا»!

التفت «إميل» نحوها مندهشًا، نهض واقفًا مرة أخرى وهو يتنحنح قبل أن يهتف في حرج:

- الوقت يداهمنا و...

قاطعته «نورسان» وقد علا صوتها المتألم وازداد عنادها:

- لا يهمني أي شيء.

ثم التفتت نحو «أحمد»، وتشبثت به وقد عاد صوتها لَينًا مجروحًا وهي تهتف متوسلةً:

- «أحمد» أرجوك.. لا أريد أن أترك أختي ملقاة هكذا لتلتهمها الطيور الجارحة والوحوش المفترسة.

ربت «أحمد» عليها مطمئنًا في إشفاق، ثم علا صوته

مخاطبًا الجميع، وإن كانت نظراته كلها مثبتة في عناد على وجه «إميل»:

- لن أتحرك من هنا قبل أن أنفذ ما تريده زوجتي.. سأهبط معها نحو هذا السفح القريب لندفن أرملة أخي، ونمضي الليل ونتحرك غدًا في الصباح.. من أراد أن يرافقنا فليتفضل، ومن أراد أن يسبقنا فليرحل اليوم.

تحرك «حمزات» ونهض واقفًا وهو ينظر نحو «أحمد» في حيرة، بينما تململ الباقون قليلًا بين رغبتهم العارمة في البقاء مع «أحمد» و«نورسان»، خاصة بعدما ذكّرهم شكل «كوللا» بجثة «إينال» التي اضطروا لتركها غارقة في دمائها دون دفن لائق، وما يصاحب تلك الذكرى من إيلام شديد، وبين الرحيل مع «إميل» الذي يعرفون جيدًا أنه أفضل من يمكن أن يساعدهم على العودة والاستقرار مرة أخرى!

مرّت لحظات ثقيلة من الصمت أنهاها «إميل» بنبرة محايدة، وإن كانت لا تخلو من لين وتفهُّم:

- كلكم مسؤوليتي.. لا أستطيع أن أترك أيكم يعود وحيدًا.. وإن كانت رغبة السيدة «نورسان» هي البقاء للغد فعلينا

جميعًا إذن الامتثال لذلك، ومعاونتها فيما تريد.

ضمَّ «إميل» عباءته، وتحرك نحو فرسه وقد عم الارتياح الجميع، وتابعه «حمزات» بنظرات ممتنة، بينما تفاجأ «أحمد» من السرعة التي امتثل بها لرغبتهم دون أن يصر على فرض رأيه أو يغتاظ من حدة «أحمد» في مخالفة الخطة الأصلية!

تحركت القافلة الصغيرة، وطيور من الحزن الأسود تحلِّق فوق رؤوسهم، وتلقي بظلال ثقيلة على كل شيء، حتى بدا الجو خانقًا والصمت لا يطاق. هبطوا بحذر على الطريق الملتف حتى أصبحوا في وسط الجبل تقريبًا عند سفح الجرف، وتقدموا مُوازين لحائطه الأملس الشاهق ذي الألوان المتدرجة بين الأبيض والرمادي والأسود حتى وصلوا عند مجموعة صخور حادة ومدببة تخفي أجزاء من جثة «كوللا»، بينما تبدو الأجزاء الأخرى بيضاء وشاحبة من تحت بعض الصخور التي تدحرجت لتستقر فوقها إثر السقطة. السقطة التي لا يعرف أحد هل كانت مقصودةً أم لا؟ لم يعرف أحد أبدًا ولا حتى «إيفا» التي كانت تنام بجانبها هل استيقظت «كوللا»، واتجهت نحو حافة الجرف، وألقت بنفسها عن قصد؛ لتهرب من رحلة العودة المخيفة، أم إنها كانت تسير خلف خيالاتها، وترقص مع شبح «إينال» الذي قادها نحو هذا

المكان الخطر لتنزلق قدمها دون قصد، وتسقط صريعة دون حتى أن يسمعوا صوت صرختها؟!

وقف الجميع في صفٍّ جنائزي بائس يتابعون «حمزات» و«أحمد» وهما يستخرجان جثة «كوللا» برفق من بين الصخور، ويضعانها جانبًا ريثما يبحثان عن فجوة طبيعية في الأرض، حيث إنه كان من المستحيل أن يقوموا بحفر قبر مناسب في هذه التربة الصخرية التي لاتزال مغطاة ببعض من ثلوج أواخر الشتاء. وما أن وجدوا الفجوة المناسبة حتى أرقدوا فيها «كوللا» قبل أن يغطوا جسدها بحجارة صغيرة، ثم يغلقوا فوقها بحجرين كبيرين؛ ليكون من الصعب على الحيوانات أو الطيور الجارحة النبش أو التسلل عبر أي فراغات والوصول للجثة.

يعمل «أحمد» بذراعه الواحدة بتصميم وحزم كأنه يعوض حرمانه من دفن «إينال»، ويعتذر له بدفنة لائقة لزوجته وحبيبته الوحيدة، بينما كان «حمزات» يصارع ليبدو متماسكًا ومخفيًا لكل ما ينتابه من مشاعر وأفكار متناحرة، وليكبت دموعًا لم يكن يتخيل أنها ستتراكم هكذا خلف جفنيه وتخنقه في موقف كهذا!!

ارتميا جالسين ما أن أنهيا عملهما، بينما تركت «نورسان» «إيفا» الصغيرة تبكي في صمت بعيدًا، واقتربت بخطى وجلة مرتعشة حتى جلست قبالتهما وبينهما وبينها شاهد القبر أو الحجرين الكبيرين. ووسط الصمت الذي خيم على كل شيء عادت نورسان لتنخرط في البكاء تحت نظرات الجميع المشفقة، وناظري «أحمد» و«حمزات» اللذين كانا يستقويان ببعضهما البعض دون اتفاق؛ ليحافظا على تماسكهما، ويمنعا دموعهما التي تصارع بعنف لتفر هاربة من محاجرهما.

يراقبان بنظرات ساهمة «نورسان» وهي تبكي بحرقة.. تشهق وتنتفض وهي لا تعرف علام تبكي بالضبط! عاصفة تضرب صدرها بعنف. لا تلبث أن تمسّ جزءًا بداخلها حتى تتركه وتمسّ جزءًا آخر! تزلزلها حزنًا ثم ندمًا ثم إحساسًا بالذنب قبل أن تجتمع كل الذكريات حتى تلك التي ظنت أنها اندفنت في باطن بعيد تعود وتصحو لتفاجئها وتخيم على قلبها بستار حديدي أسود يثقلها وتشعر به يمتد ليسحق عظامها!

لم تكفّ عن البكاء حتى ساعدها «أحمد» على الوقوف، واصطحبها نحو إحدى الفجوات الصخرية؛ لتقضي ليلتها بها

هي و«إيفا» الصغيرة. وكأنها كانت إشارة للجميع ليتحركوا منتشرين حول المكان يفكون أمتعة قليلة ضرورية فقط لقضاء ليلة واحدة، ويوقدون النيران قريبًا من الفجوات القليلة التي سيقضي أمامها الرجال الليل، وستنام بداخلها النساء والأطفال.

بدّلت «نورسان» ملابسها، وفرش لها «أحمد» حاشية مريحة رقدت فوقها، وسرعان ما استغرقت في النوم بعدما أنهكها البكاء، بينما خرج هو ليساعد «حمزات» في إشعال النار أمام الفجوة مباشرةً، ويتركه جالسًا بجانبها مع الصغيرة كما اعتاد دائمًا، ويذهب هو ليجلس بعيدًا عن الجميع متأملًا نجوم الليل الذي سرعان ما هبط، ومسترقًا نظرات خفية نحو «إميل» الذي جلس وحده بعيدًا هو الآخر، كأنه يحاول قراءة أفكاره أو التأكد من حقيقة نواياه التي لا تلبث تثير بداخله الحيرة أكثر وأكثر.

كان قد خلد البعض إلى النوم، وبقي البعض الآخر جالسًا أو متحركًا بين بقع النيران المشتعلة عندما استيقظت «نورسان» وقد هدأها النوم قليلًا. نظرت حولها، فعرفت أن الظلام قد هبط من الخيال المنعكس للهيب المتراقص بالخارج وهو يلتهم الأفرع الجافة ليظل متوقدًا. وبينما هي

تتأرجح بين سِنن(49) متقطعة استردت وعيها فجأة عندما دخل عليها «حمزات» متقافزًا. انتفضت جالسةً في هلع ظنًا منها أن شيئًا سيئًا قد حدث، لكنها سرعان ما استعادت هدوءها عندما أدركت أنه يقفز فرحًا!

كان «حمزات» يكاد يتراقص جنونًا وهو يهتف في سعادة:

- «إيفا» يا «نورسان»! اسمها «إيفا»!

صرخت «نورسان» غير مستوعبة ما يحدث أمامها:

- من هي؟!

جلس حمزات متربعًا في مواجهتها وهو يصرخ، وقد التمعت عيناه بسعادة جنونية، واحمرَّ وجهه من الانفعال:

- الصغيرة يا «نورسان».. نطقت ونحن جالسان بالخارج.. أشارت نحو نفسها وقالت: «إيفا».. أتعرفين ما معنى ذلك؟!

مطت «نورسان» شفتيها مستنكرة، بينما استطرد «حمزات» في حماس:

- معنى ذلك أنها ليست خرساء يا «نورسان»! لقد أفقدها ما حدث لها النطق لبعض الوقت، وها هي تسترجعه مرة أخرى! معنى ذلك أيضًا أننا سنعرف ما حدث لها وكل شيء عنها، وأنها ستتمكن من التحدث معنا كما نتحدث نحن مع بعضنا البعض!

صمت «حمزات» ليلتقط أنفاسه المتقطعة وهو ينظر نحوها منتظرًا منها فرحة كتلك التي يشعر بها، وتكاد تُفقِده عقله، بينما عقدت «نورسان» يديها في حجرها، وهي تتأمله بعينين بليدتين قبل أن تنبس بصوت بارد ونبرة معاتبة:

- «حمزات».. لقد دفنّا أختك للتوّ!

ضاقت ابتسامته، وزحف الحرج ليملأ ملامحه لوهلة، ثم أسرع لينفضه مدافعًا في ضيق:

- هل تظنين أنني نسيت «كوللا» أو أنني لست حزينًا عليها! لست أنا من يقال عنه ذلك يا «نورسان»!

صدمها كلامه، وألجم لسانها! هل كان يرمي إلى شيء أم

إنها أصبحت ذات حساسية مفرطة تجاه كل ما يتعلق بهذا الأمر؟! هل كان يلاحظ شيئًا طوال السنوات الماضية ويصمت، ثم قرر الآن فقط أن يلمّح لها بعدما أجابته ببرود؟! أم إنه فقط كان يتحدث عن اعتنائه بهما واحتوائه لهما طوال السنوات الماضية بشكل يجعل من المستحيل أن تشكّ في حزنه الآن؟! كادت أن تسأله لتُسكِت هذا الشيطان الذي يتقافز داخل رأسها، لكنها أرغمت نفسها على التماسك وتجاوز أفكارها قبل أن تجيب بلين واضعة يدها على ركبته في حميمية:

- بالطبع أنا لا أقصد ذلك يا «حمزات»! أنا فقط لا أظن أن ما حدث يستحق كل هذا الفرح الذي تبديه!

هتف مندهشًا:

- كيف لا يستحق؟! لقد كنت أجلس معها في الخارج أحدّثها عما أشعر به كله، حتى استجمعت شجاعتها ونطقت لأول مرة لتخفّف عني! قاطعت بكائي فجأة، مشيرةً نحو نفسها وهاتفة بصوتها الرقيق: «إيفا»!

اتسعت حدقتا «نورسان» وهي تهتف في ذهول:

- بكاؤك؟!!

صمت «حمزات» وقد اعتراه شيء من الندم على تسرعه، بينما كانت «نورسان» غير مستوعبة لما يستنتجه عقلها الآن! كل هذا البكاء الذي كان يكتمه «حمزات»، وكل هذه المشاعر التي كان يخفيها، والتي ظنت أنه سينزوي وحده؛ ليخرجهم بعيدًا عن الأعين أو على أكثر تقدير بينه وبين «أحمد» فقط! هل حقًا ترك «حمزات» العنان لكل ذلك ليفيض بهدوء وسلاسة مع تلك الصغيرة؟! لا يمكن أن تكون بعد كل سنوات التقارب والحميمية تلك تجهل أخاها إلى هذا الحد! فجأة، أدركت «نورسان» أن تلك الفتاة ذات الثلاثة عشر عامًا تقريبًا كانت هي أقرب شخص لـ«حمزات» طوال الفترة الماضية! كانت رفيقته في كل رحلاته وكل أنشطته، حتى تلك التي لم يكن من المعتاد أن تقوم بها النساء، فما بالك بطفلة صغيرة فاقدة للنطق؟! كان هناك إشارات وكان كل شيء واضحًا أمام عينيها، لكنها لم تنتبه له! لم يخطر ببالها أبدًا!!

سيطرت على مشاعرها وأفكارها المتداخلة وتظاهرت بالهدوء وهي تسأل في توجُس غير مصدقة ما تتفوه به:

- «حمزات».. هل أحببتَها؟!

صمت «حمزات» للحظات مترددًا قبل أن يحسم أمره ويجيب بحزم:

- نعم أحببتُها.

عادت «نورسان» لتتساءل وقد فاجأها الموقف برمَّته، واحتلتها دهشة عارمة:

- «حمزات».. إنها صغيرة!

أجاب في تصميم وعبوس، بينما عيناه مثبتتان نحو نقطة محددة على الأرض أمامه، متحاشيًا النظر نحوها:

- ليست صغيرة جدًا.. سأنتظرها حتى يكتمل بلوغها.. ليس هذا بعيدًا.

هتفت منفعلةً:

- إنها أصغر منك بكثير!

نظر نحوها وقد تصاعدت وتيرة عناده بعدما بدأ يشعر بتهديد أن يفقد قشته التي يتعلق بها:

- الفرق بيننا كالفرق بين أمكِ وأبيكِ تقريبًا!

صمتت «نورسان» قليلًا. تمالكت نفسها وأرغمتها على الهدوء على مضض وهي تهتف في رجاء:

- يا «حمزات»، أنا أخشى عليك! أخشى أن تنتظر سنوات فتتعلق هي بك، ثم تفقد أنت اهتمامك بها، أو أن تخذلك هي ولا تقابل حبك بمثله!

هتف مدافعًا بكل كيانه:

- لن أفقد اهتمامي بها، ولن أتغير! أنا لم أحب ولم أهتم بأي فتاة أخرى طوال حياتي يا «نورسان» سوى «إيفا».

ارتعشت شفتاه وهو يهتف باسمها بطبيعية هكذا وسط الكلام، قبل أن يستطرد:

- «إيفا» ملأت بداخلي فراغًا لن تتركه، ولن تحتله غيرها

أبدًا.

مطّت شفتيها قبل أن تتساءل في ضيق:

- وهي؟!

صمت «حمزات» مأخوذًا من هذا الاحتمال المؤلم، قبل أن يستجمع نفسه ويهتف منهيًا الحديث في حسم:

- هي تستحق أن أنتظر، وأن أجازف.

نهض وخرج مسرعًا كأنه يهرب من المزيد من المواجهة، أو يفر بقراره الذي يصر عليه في عناد لم يكن أبدًا من طبيعته، بينما تابعته «نورسان» مشدوهة وهو يختفي خارج الفجوة!

٨

استيقظت «نورسان» بعد نوم متقطع ومنزعج. ارتدت ثوبًا ثقيلًا، وغطت شعرها بآلية. توقفت لحظة قبل أن تغادر الفجوة؛ لتلقي نظرة محايدة باردة على الصغيرة النائمة بجانبها. مطّت شفتيها في ضيق. ليست صغيرة فعلًا! بقي لها

وقت قصير حتى يستدير جسدها وينبت صدرها، وينزل منها سائل البلوغ الأحمر! زفرت قبل أن تهمس في عدم راحة «إيفا! اسم غريب!».

عندما خرجت كان «حمزات» لا يزال نائمًا بجانب الرماد المتبقي من نيران البارحة، بينما كان «أحمد» يقف بعيدًا بجانب فرسه. انضمَّت له، وانهمكت تقصُّ عليه ما حدث البارحة بينها وبين «حمزات» في انفعال قابله هو بنصف اهتمام، وشيء ضئيل جدًّا من الاندهاش! هتفت منزعجة في غيظ:

- ما لك غير مندهش هكذا؟!

أجابها وهو لا يزال منهمكًا في إسراج فرسه استعدادًا للرحيل:

- ولِمَ أندهش؟! «حمزات» ليس إلا رجلًا كان فاقدًا للأمان، ووجده عندما وجد هذه الفتاة.

هتفت «نورسان» في جزع:

- فاقدًا للأمان! لماذا؟! أنا لم أدخر أي جهد طوال السنوات الماضية لأحتويه وأعوضه! هل كنت مقصرة معه دون أن أدري؟!

رفع «أحمد» رأسه ونظر نحوها مبتسمًا، وهو يتساءل:

- وهل كان هو مقصرًا معكِ؟!

أسرعت تجيبه في حماس:

- بالطبع لا.

- لماذا إذن أحببتِني وتزوجتِني؟!

كان لا يزال ينظر نحوها مبتسمًا ابتسامةً ذات معنى عندما صمتت هي متحرجة بعدما فهمت مقصده. تململت قليلًا قبل أن تقول في قلة حيلة:

- يا «أحمد»، أنا أخشى أن يتعلق أحدهما، بينما يفقد الآخر اهتمامه!

- ألم يقل هو لكِ أنه لا مانع لديه لأن يجازف؟! ألم تكن مجازفتي بالتحدث إليكِ سببًا لأن نكون معًا الآن؟!

هتفت غير مصدقة:

- للمجازفة حدود يا «أحمد»! هو يريد أن يجازف بقضاء سنوات من عمره في الانتظار!

- من قال لكِ إن مجازفته أصعب أو أخطر من مجازفتي؟! من حقه أن يختار المجازفة الأنسب له وأن يتحمل عواقبها!

صمتت وهي تضغط شفتيها في غيظ بعدما بدأ يغلبها بمنطقه، فاقترب منها، ووضع يده على كتفها وهو يقول في رقة:

- «نورسان» اتركي أخاكِ يقرر ويختار مثلما اخترتِ أنتِ، وأن يجازف ويجرب ربما يصيب وتكون هذه الفتاة هي مرفأ أمانه وراحته كما أصبحتِ أنتِ لي!

ابتسمت وزفرت في تسليم، ثم نظرت في عينيه وهي تقول في وداعة:

- هل تعرف ما هو الشيء الوحيد الذي استفدته من تركنا لأرض الوطن؟

رفع حاجبيه وهو يتساءل متعجبًا:

- وهل لرحيلنا هذا أية فائدة؟!

أومأت قبل أن تستطرد، وقد اتسعت ابتسامتها:

- نعم.. لو كنا ظللنا في القوقاز كنت ستظل أنت على طباعك القديمة، وكنت ستتبع الخابزة بصرامة، وتتعمد إخفاء مشاعرك عني، وتعاملني دون حب أو دفء.

ضحك بشدة، ثم هدأت ضحكته وهو يقول مداعبًا:

- ربما لو كنا ظللنا في القوقاز وسط ظروف مختلفة لم تكوني لتحبيني!

تظاهرت بالتفكير لثوانٍ وابتسامة خبيثة على شفتيها قبل أن تجيبه بصدق يخرج من قلبها:

- لا.. كنت سأحبك مهما كانت الظروف.. ربما كان هذا الحب سيأخذ أشكالًا وطرقًا مختلفة.. لكنني كنت سأحبك.

ابتسم سعيدًا بيقينها هذا، ثم انكمشت ابتسامته قليلًا عندما انتبه لـ«إميل» الواقف بعيدًا عنهما منهمكًا في تحضير أغراضه للرحيل. طلب «أحمد» من «نورسان» أن تذهب لتتجهز وتوقظ «حمزات» والصغيرة -أو «إيفا»- وما أن ابتعدت حتى اقترب «أحمد» منه في خطوات بطيئة، كأنه يدفع نفسه دفعًا، وربما يغير رأيه ويستدير مبتعدًا في أية لحظة! لكنه لم يفعل واستمر في تقدمه حتى وقف قريبًا من «إميل» الذي ما أن انتبه له حتى ترك ما يفعله واستدار ليقف في مواجهته ضامًا يديه أمامه ومركزًا نظراته في جدية تليق بأثير الشك الذي دائمًا ما يلمحه في عينَي وقسمات «أحمد». ولكن على الرغم من هذا الشك ومن الجدية التي امتلأت بها عينا «إميل» إلا أن ملامحه لم تخلُ من شيء من اللين والتفهُّم.

أخفى «أحمد» تململه وهو يقول بآلية شديدة كأنه يعيد شيئًا قام أحدهم بتلقينه إياه:

- أردت أن أشكرك على أنك تفهَّمت رغبة زوجتي، وقدّرت

فجيعتنا، وأجلّت الرحيل يومًا حتى لا نعود وحدنا.

ابتسم «إميل» وهو يقول في نبرة هادئة:

- لا داعي للشكر.. هذا واجبي.

- ليس واجبك!!

صمت «أحمد» مدركًا انفعاله المفاجئ، خاصة بعدما بدت الدهشة واضحة على ملامح «إميل» وفي عينيه! استدرك محاولًا الحفاظ على هدوءه والسيطرة على دهشته وانفعاله:

- أعني.. أنت لست خائنًا، أستطيع أن أرى ذلك، لكنني لم أستطع أن أفهم قط لماذا تفعل معنا ما تفعله؟! لماذا تفعل ما يضر وطنك هكذا؟!

أومأ «إميل» بعدما أدرك ما الذي كان يدور بخلد «أحمد» طوال تلك الفترة الماضية قبل أن يتساءل في هدوء:

- وما الذي يمكن أن يضر وطني في مساعدة مجموعة من العزل الضعفاء؟! الوطن الذي يضره ذلك هو وطن هش

وضعيف وأنا أعلم أن وطني أقوى وأعرق من أن يضره ذلك.

بدت على «أحمد» حيرته الشديدة وهو يقول:

- لا أعلم! لكن أهلك قرروا أن وجودنا ومساعدتنا يضر بوطنكم!

لاحت على شفتي «إميل» ابتسامة مرارة وهو يقول:

- أهلي مساكين.. أرهقهم الظلم والفقر، يريدون قومية مستقلة وحياة طيبة، هذا حقهم.. لكنك حاربت تحت رايات سلطان أنت لا تنتمي له وتعلم كيف يستغلون القوميات والأديان ليحققوا مصالحهم، وكيف يقنعون مظلومًا أن مظلومًا آخر مثله هو سبب شقائه، فتشتعل الحرب بينهما على أرض المعاناة التي يعيشانها معًا، ولا متضرر منها إلا هُما..

صمت «إميل» قليلًا قبل أن يستطرد قائلًا بنفس المرارة:

- ربما أنا أقل من أن أمنع ما يحدث، لكنني أكبر من ألا أفعل شيئًا، ربما يأتي يوم يقولون فيه لم يكن كل البلغار كذلك،

وأن ما حدث لم يكن ليحدث لو لم يُظلموا ويُفقروا لسنين طويلة، فيضحي شحنهم سهلًا، واستغلالهم هينًا دون حتى أن يدركوا هم ذلك!

عندما عاد «أحمد» إلى استكمال تجهيز الفرس والعربة والحاجيات كان عقله شاردًا مأخوذًا تمامًا بما قاله هذا الرجل العجيب! وبينما هو مستغرق في هذا الجانب الجديد الذي لم يره من قبل في هذه الحرب التي سرقت عمره السابق كله تقريبًا، والتي ألقى «إميل» خيطًا رفيعًا من نور بكلماته تلك على معنى جديد لها.. كانت «نورسان» جالسة خلفه على العربة وسط الأغراض الكثيرة تتابع، بعينين لم يختفِ استنكارهما تمامًا، وقلب لم يكتمل رضاؤه بعد، «حمزات» وهو يركب فرسه ويمد يده لـ«إيفا»، فيحملها ويُجلسها أمامه لتكون بجانبه طوال الرحلة!

سارت القافلة خلف «إميل» وتحت قيادته يحدوهم الأمل في تلك الحياة الجديدة التي وعدهم إياها، محاولين تناسي ما اضطروا لتركه خلفهم، والتغاضي عن الخوف الذي سكن غرفات قلوبهم منذ زمن، ولا يبدو أنه سيبرحها أبدًا!

الفصل الرابع

عودة إلى أكتوبر ١٩١٢ - رازالق - جنوب بلغاريا حاليًا

يدا «تيمور» منهمكتان في حزم آخر الأمتعة بالغرفة الخارجية الكبيرة، ويرتفع خلف أذنيه من الغرفة الصغيرة صوت «آيسل» وهي تلاعب «حسن» بعد أن اختارت مجالسته، بينما ذهبت «مِيربابا» مع «فاطمة» لمساعدة «رقية» في حزم أمتعتها؛ استعدادًا للرحيل بعد سويعات قليلة.

يتحرك جسده في آلية، بينما عقله شارد في تذكُّر ما تبقى من الحكاية القديمة. هكذا عاد أبواه وخاله، ومن ستصبح زوجة خاله إلى هنا مرة أخرى بعد أن فقدوا خالته «كوللا» التي لم يرها أبدًا، ولم يعرف عنها سوى ما حكته له أمه، ولم تفصح عنه بكل تفاصيله إلا في أواخر عمرها القصير. عادوا جميعًا خلف «إميل» الذي تركهم يدخلون القرية وحدهم دونه؛ حتى لا يشك فيهم العثمانيون، أو يظنون بهم خيانة أو تعاونًا مع البلغار. تم تسجيلهم في الدفاتر مرة أخرى، وأعادوا لهم حقلهم، حيث قام «أحمد» و«حمزات» بمساعدة

«نورسان» و«إيفا» ببناء بيت جديد بدلًا من الذي أُحرِق وهُدِم أثناء مواجهات الانتفاضة التي اضطرتهم للرحيل. بنوا بيتًا أكبر يناسب الوضع الجديد. البيت الذي وُلِد «تيمور» وعاش فيه طوال عمره، حيث هذه الغرفة الخارجية الكبيرة التي كانت مخصصةً للجلوس ونوم «حمزات»، قبل أن يتركها بعد سنوات قليلة وينتقل للغرفة الصغيرة -غرفة «مِيري» و«حسن» الآن- مع «إيفا» بعد أن تزوجها، بينما كانت الغرفة الكبيرة من نصيب أمه وأبيه لسنوات طويلة حتى أصبحت غرفته هو و«فاطمة».

وبالرغم من وضعهم المستقر، إلا أن الحياة لم تكن يسيرة أبدًا على هذه الأرض التي يحاوطهم أهلها بالكراهية، وتتنازعها كل الأطراف البعيدة والقريبة. حاولت الدولة العثمانية الدفاع عن أملاكها وعنهم، لكنها كانت في وضع صعب بين القلاقل الداخلية في إستانبول والضغوط الخارجية من الدول العظمى المهتمة بتلك المنطقة خاصة روسيا والنمسا وإيطاليا. لكن تأثير هؤلاء لم يكن مباشرًا وقريبًا منهم مثلما كان تنافس القوى القريبة وتأثيره على حياتهم. سنوات طويلة شهدت معارك بين اليونان والبلغار والصرب حول السيادة على مقدونيا. وبينما كانت أسلحتهم في معظم الأوقات هي الكنائس والمؤسسات التعليمية

والجمعيات الوطنية يستخدمها كلٌّ منهم ليحاول إثبات أحقيته في أكبر جزء ممكن من تلك الأرض، كان بعضهم يعتمد على العنف أيضًا سواء كان عنفًا متبادلًا فيما بينهم، أو عنفًا ضد الدولة العثمانية. جماعات يرسلها السياسيون داخل مقدونيا؛ لتقوم بعمليات قتل وترويع بين القرويين أو عمليات اغتيال للأتراك. لم تمرَّ بهم عدة سنوات دون أن يضطروا للاختباء بشكل أو بآخر هروبًا من قيام انتفاضة ما أو أعمال عنف أو ثورة مخططة عادة ما كان الأتراك يستطيعون إخمادها بوحشية، حتى انكشف أمر مخبأهم الجبلي، وأصبح الاحتماء به أمرًا غير مُجدٍ. ازداد يقينهم مع مرور الوقت أن قبضة الأتراك ترتخي بينما تقوى شوكة دول البلقان المحيطة التي استطاعت أخيرًا أن تتجاوز خلافاتها مؤقتًا وتتغاضى عما بينها من صراعات حول كيفية تقسيم المنطقة ريثما يطردون منها عدوهم الأوحد والأهم، الأتراك ورعاياهم. وها هي الدول الثلاث ومعها الجبل الأسود قد تحالفوا وشنُّوا حربهم ضاربين بكل شيء عرض الحائط حتى تراخي الدول العظمى واعتراضاتها الناتجة عن خوفها من أن تقوى هذه الدول أكثر من ذلك وتهدد مصالحهم إن تمكنت من المنطقة المقدونية ربما حتى أكثر من زمن الأتراك.

لكن لم تخلُ تلك السنوات القاسية أيضًا من رفق يمر بحياتهم من آن لآخر، فيزيدهم صبرًا ويعينهم على المواصلة. فبعد حملين غير مكتملين وجنينين لم يُكتب لهما الحياة، اكتمل الحمل الثالث، ووصل «تيمور» سالمًا. ضمَّته «نورسان» إلى صدرها وقد أدركت أن جسدها هذا الذي احتمل ما لم يحتمله الرجال قد خذلها عندما حان وقت أهم أدواره الأنثوية، وأنه لن يجود عليها بأكثر من ذلك، فأصبح «تيمور» قرة عين لها ولـ«أحمد» الذي خالف كل التوقعات، ولم يحاول يومًا تعليمه فنون الفروسية والقتال، كأنه أدرك أن الزمن قد تغير، أو كأنه كان يخاف عليه أن يستخدم قوته فيما يضره، فيخسره كما خسر «الحجي مراد» «إينال» من قبل. وبدلًا من ذلك، أنفق «أحمد» كل اهتمامه لرعاية «تيمور» والعناية به والحنو عليه واصطحابه معه في أعمال الحقل، ومتابعة حفظه للقرآن وفهمه له مع شيخ المسجد. وبعد بلوغ «إيفا» بسنوات قليلة تزوجها «حمزات» وأنجبا «فاطمة» ثم «رقية»، وصار البيت دافئًا بأنفاس الصغار، وصاخبًا بخطواتهم ولعبهم. حاول الكبار حماية صغارهم وتجنيبهم مشقة تلك الحياة القاسية قدر الإمكان، وظلوا يراقبونهم وهم يشبُّون ويكبرون في كنف(50) بعضهم البعض. «تيمور» الكبير يشمل الفتاتين الصغيرتين برعايته ويخص «فاطمة» بشيء وُلِد بداخله منذ اليوم الذي وُلِدت

هي فيه، وصار يكبر معهما وبينهما ويربط قلبيهما أكثر وأكثر تحت أنظار الجميع. وقبل أن يبدأ أحد بالتفكير في تزويجهما حدث ما لم يكن ليخطر على بال أي منهم. هبط على حامية المدينة مجموعة من الموظفين الأتراك، مبعوثو السلطان المسؤولون عن تقدير الضرائب وجمعها، وعلى رأسهم هذا الرجل الصارم المتجهم دائمًا «قاسم أفندي» الذي كان أول ما وقعت عيناه عليه هو «حُسن» رقية الذي أسر لُبّه[51] فتقدم لخطبتها، مادًّا يديه بما يملك من مال ونفوذ، وفي عينيه يلوح تهديد خفي من عواقب الرفض. هبط الأمر مثل لطمة قوية على وجوههم جميعًا! لقد عاشوا طوال عمرهم يمتلكون مشاعر مختلفة نحو «العثمانلي» لم يكن أيٌّ منها إيجابيًا، فكيف إذًا يصبحون مطالبين الآن بأن يصاهروهم، ويسلمون بأيديهم دُرّتهم الغالية لأحد موظفيهم، وهو رجل قاسٍ متجهم يكبرها بعشرين عامًا تقريبًا! صمت «أحمد» مخفيًا سخطه وكراهيته وحامدًا لله أن «رقية» ليست ابنته، وأنه ليس مضطرًا لاتخاذ هذا القرار الصعب، وصمتت «نورسان» شفقةً على أخيها، وخوفًا من أن تجهر برفضها، فتكون السبب في أي ضرر قد يصيبهم، كما صمتت «إيفا» ومعها «رقية» صاحبة الشأن مستسلمتين تاركتين الأمر للآخرين ليدبروه! وأمام كل هذا الصمت لم يكن عسيرًا على «حمزات» أن يتصرف بهدوئه وحكمته المعهودتين، فقبِل

عرض الزواج، وقد يسر عليه الأمر صمت «رقية» المستسلم وعدم اعتراضها أو مطالبتها بأي شيء سوى أن تظل بجانب أهلها، وألا يطلب منها يومًا مفارقتهم. قبِل «قاسم أفندي» طلبها، وتزوجته، وانتقلت للعيش في هذا البيت الكبير المريح الذي اختاره هو بعناية ليكون قريبًا من مبنى الحامية ومنازل الضباط والموظفين، وفي نفس الوقت بعيدًا عن كل الأعين على أطراف الحرش الموصل للغابة المحيطة بالقرى؛ لتكون «رقية» في شبه معزل عن كل شيء سوى حياتها الجديدة التي استسلمت لها صاغرة لم يختلف بها شيء سوى زيارات أهلها المشفقين عليها بشكل متقطع، ثم ولادة «آيسل» التي فرح بها «قاسم أفندي» فرحة عظيمة، واختار لها اسمًا تركيًا، وبدا سعيدًا أنه أخيرًا بعد كل هذه السنوات من الزواج دون أطفال قد استطاع أخيرًا أن يُرزق بما يطمئنه بأنه قادر على الإنجاب، فازداد تعلقه وتضاعفت حمايته وعزله لأسرته الصغيرة عن كل شيء إلا الضروريات على مضض، ولولا الاستدعاء العاجل الذي اضطره للرحيل بمفرده إلى إستانبول ما فارقهما أو لأخذهما معه، لكنه لم يفعل؛ لأنه لم يتوقع أن يصل أمر الحرب إلى هذا الحد!

تطلب الأمر بعض الوقت حتى تفيق الأسرة الصغيرة، مما حدث لهم قبل أن يقدموا على تزويج «تيمور» و«فاطمة»؛

ليفرحوا فرحة حقيقية غير تلك التي خطفت منهم «رقية». فرحة امتدت بولادة «ميريابا» ثم «حسن» الحفيدين اللذين عاشا معهم في نفس البيت، وملآه بالونس وبرضا كان كفيلًا بأن يُذهِب عمن بقي أسى كل رحيل جديد! في البداية رحلت «إيفا»، كانت أصغرهم، ولكنها كانت أول من رحل بعد أن ازدادت صمتًا فوق صمتها، وأذبلها المرض. وكأن فرحتها الخافتة بـ«آيسل» جاءت متأخرة لم تستطع أن تمحو آثار السنوات العجاف عن روحها وجسدها. رحلت وتركت خلفها «حمزات» متوحدًا حتى رحل هو الآخر بعد زواج «تيمور» و«فاطمة» بفترة وجيزة، وشيَّعته «نورسان» وهي تعلم في قرارة نفسها أن هذا الرجل الذي لم تقدر عليه قسوة حياته القصيرة قتله حزنه وفراق تلك التي كانت تعويضًا عن كل آلامه. ولم تكد «فاطمة» تشعر بطفلها الثاني يتحرك بين أحشائها حتى فجعهم رحيل «أحمد» الذي كانت حالته قد بدأت في التدهور منذ أن قهره اضطرارهم لهذه المصاهرة التي لم يرضَ عنها أبدًا، ثم تبعته «نورسان» قبل عام واحد من الآن، كأنها تقتدي بأخيها فلم تترك رفيق عمرها يرحل وحيدًا، ولحقت به في أقرب وقت. كان رحيلهم على مدار أحد عشر عامًا تقريبًا سريعًا ومتتابعًا، كأنهم قد سئموا جميعًا تلك الحياة التي استنزفتهم وأفنتهم مبكرًا، قبل أن يبلغ أيٌّ منهم الستين من عمره، وهو أمر طالما حزن له «تيمور» الذي

تمنى كثيرًا أن تطول أعمارهم أكثر من ذلك، لكنه الآن يشكر الله أنه قد رحمهم واستردَّهم قبل أن يشهدوا مأساة أخرى لن يعينهم على تحمُّلها شبابهم الذي مضى!

يفيق «تيمور» فجأة عندما يقتحم «عمر الريحاني» المنزل وقد اصفرَّ وجهه وهو يصرخ في هلع وسخط:

- لقد تأخرنا يا «تيمور»! لقد وصلوا!

يهتف «تيمور» وقد انتقلت عدوى الهلع إليه:

- مَن يا «عمر»؟!

- عصابات الكوميتاجي.. وصلوا وخلفهم القوات البلغارية!

لم يكد «عمر» ينهي كلمته حتى سمعا دوي انفجار خرجت على إثره «آيسل» من الغرفة صارخةً في فزع، بينما زاغتا عينا «تيمور» وهو يصرخ مستفسرًا:

- ما هذا؟!

- يفجّرون المسجد والمنازل بالديناميت.. يتقدمون بسرعة كما يفعلون دائمًا.. يُسلّحون من يقوم بالانضمام إليهم، وإرشادهم من البلغار المسيحيين، ويرغمون من يرفض ذلك بالبقاء في منزله، بينما يحرقون وينهبون منازلنا، ويقتلوننا ليصبح احتلال القوة النظامية التي تنتظرهم سهلًا!

- علينا أن نسرع بالهرب!

- لا يمكن! إنهم يتقدمون بسرعة كبيرة، ويحاصرون المدينة والقرى.. حتمًا سيلحقون بنا على الطريق!

يصرخ «تيمور» في عجز ساخط:

- ماذا إذن؟! ميتون نحن لا محالة!

- لا يوجد أمامنا سوى أمل واحد، ولكن علينا أن نسرع حتى نستطيع الوصول للكنيسة قبل أن يصلوا هم إلى هنا.

تتسع حدقتا «تيمور» وهو يسمع آخر ما كان يمكن أن يتوقعه عن هذا الأمل الذي يتحدث عنه «عمر»!

- ماذا تقول؟!

- هذه هي فرصة النجاة الوحيدة.. المطران أبوستولوس يسمح لمن يريد الاحتماء بالكنيسة بدخولها.. لا يوجد أمامنا سوى ذلك الآن!

يتلفت «تيمور» حوله في قلة حيلة، وهو يشعر بالهرج يسود ساحة القرية بالخارج، ويسمع صوت الصراخ منذرًا باقتراب أفراد الكوميتاجي!

- يجب أن أذهب لأحضر «فاطمة» و«مِيري» و«رقية»!

- لا يمكن! الحامية العثمانية وبيوت موظفيها وضباطها وكل محيطها هو أكثر ما يتم استباحته والانتقام منه!

يسقط قلب «تيمور» في أحشائه، وهو يسمع ذلك ويصرخ في عصبية:

- تقول ذلك وتريدني أن أتركهن؟!

ما أن ينهي كلمته حتى يلتفت نحو الباب حيث تقع عيناه

على «مِيري» وهي مصفرة الوجه تحاول التقاط أنفاسها المتقطعة من الركض! يسرع «تيمور» نحوها ويحملها وهو يهتف في رعب:

- أين أمك؟! أين «فاطمة»؟!

تشير مِيري نحو أطراف الحرش وهي تتحدث بصعوبة:

- هناك.. فقدت وعيها.. بين الأشجار!

- تعالي معي لتريني أين هي!

يقولها «تيمور» ثم يلتفت نحو «عمر» وهو يهتف في حزم:

- اسبقني يا «ريحاني» بـ«آيسل» و«حسن» وأنا سآتي بـ«فاطمة» و«رقية» وألحق بك عند الكنيسة.

ينطلق «تيمور» حاملًا «مِيري» دون أن ينتظر ردًا، ويجتاز البيوت والبشر الراكضين في هلع دون أن يكون لهم وجهة محددة حتى يخترق الحرش، ويركض مختبئًا بين أشجاره حول القرى نحو أقرب نقطة ممكنة من بيت «رقية»

و«مِيري» توجهه، مشيرةً أمامها بيدها، بينما عقلها الصغير يعمل بجنون مسترجعًا ما رأته بعينيها في الدقائق القليلة الماضية، ومحاولًا إدراكه دون جدوى!

ذهبت تساعد أمها في حزم أمتعة خالتها التي كانت أكثر بكثير من أمتعتهم في هذا البيت الذي كلما دخلته أصابها الاندهاش والإعجاب باتساعه وفخامة أثاثه ومحتوياته. كانت «رقية» تتقافز هنا وهناك في سعادة، كأنها فراشة قد تحررت للتوِّ من شرنقتها! لأول مرة ترى خالتها هكذا، ولم تستطع أن تمنع نفسها من مراقبتها في انبهار وذهول!

خرجت مع أمها عائدتين نحو بيتهما بعد أن أنهيتا مساعدة «رقية»، ولكن ما أن ابتعدتا قليلًا حتى التفتت «فاطمة» مذعورةً نحو أصوات الصراخ وسنابك الخيول وطلقات الرصاص المقتربة نحوهما مع خيالات أعضاء الكوميتاجي وهم يتحركون بسرعة بين المنازل البعيدة نسبيًا، والتي بدأت ألسنة النار تشب خارجة من نوافذها وأبوابها! توقف عقلها تمامًا ودون تفكير أسرعت «فاطمة» تحمل «مِيري» وتختبئ بها بين أشجار الحرش، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتوقف كالمشلولة وتلتفت عندما سمعت صوت قدمي هذا الرجل الوحيد الذي وصل للبيت المنعزل البعيد،

حيث حدث كل شيء في ثوانٍ! ضرب الرجل الباب بقدمه، واختفى داخل المنزل لحظات قبل أن تخرج «رقية» راكضةً وهي تصرخ في ذعر! جذبها من شعرها، وألقاها على الأرض. حاولت الهروب زحفًا على ظهرها وكوعيها، فانحسر ثوبها كاشفًا عن ساقيها وفخذيها العاجيين المتناسقين. فقد الرجل صوابه وانقضَّ عليها يحاول تمزيق ملابسها. حاولت «رقية» مقاومته، لكنه انهال عليها صفعًا حتى طرحها أرضًا، وقد فقدت نصف وعيها، وانسالت الدماء من أنفها وجانبي فمها ليسرع الرجل بإنزال سرواله، واستكمال تمزيق ملابسها قبل أن يغتصبها بوحشية دون أن تستطيع هي فعل أي شيء سوى إصدار تأوهات خافتة. نهض الرجل بعد أن أنهى ما يفعله، وقبل حتى أن يستر عورته رفع بندقيته التي كانت قد سقطت بجانبه على الأرض وأطلق رصاصة في منتصف رأس «رقية» فهمد جسدها للأبد. رفع سرواله في عجالة، ووضع البندقية على كتفه قبل أن يختفي داخل البيت مرة أخرى باحثًا عما يمكن أن ينهبه.

أحست «مِيري» بالدنيا تميد بها، فتمسكت أكثر بأمها التي كانت تحملها بيد، بينما تضع يدها الأخرى على فمها حتى لا تصرخ وهي تشاهد ما يحدث لأختها الوحيدة أمام عينيها. تأرجح جسد «فاطمة» و«مِيري» متشبثة بها حتى سقطت

جالسة مستندة على إحدى الأشجار فاقدة وعيها، وقد انسالت دموعها على جانبي وجهها. أخذت «مِيري» تهز أمها في فزع محاولة إفاقتها دون إصدار أي صوت، ولما لم تجد أي فائدة مما تفعله خلّصت نفسها من ذراع أمها، وأسرعت راكضة نحو بيتهم لتستنجد بأبيها. وها هو يعود بها الآن من نفس الطريق الذي ينتهي بهما عند «فاطمة» الجالسة في مكانها كما هي دون أن تستردَّ وعيها!

يسرع «تيمور» ليجثو أمامها يهزها وقد أصابه الهلع من شكلها! ينظر حوله في عجز، فتقع عيناه على جثة «رقية» العارية، ليدرك هذا الذي رأته «فاطمة»، وفعل بها ذلك، لكنه لم يكن لديه وقت للحزن أو للتأثر مثلها! يجب أن ينقذهما وينقذ نفسه قبل أن يكتشفهم أيٌّ من جنود الكوميتاجي المنتشرين بسرعة جنونية. يرفع «تيمور» «مِيري» ويجلسها على كتفيه بينما ساقاها مدليتان حول رقبته طالبًا منها أن تلفّ ذراعيها حول جبهته، وتتشبث به جيدًا؛ لأنه لن يستطيع الإمساك بها؛ لأن يديه ستكونان مشغولتين، حيث ينحني ليحمل «فاطمة» الغارقة في إغمائها بين ذراعيه وينطلق راكضًا بأقصى سرعته بين الأشجار غير عابئ بفروعها وهي تخدش وجهه وتمزق ثيابه، بينما تغمض «مِيري» عينيها، وتحني رأسها متمسكةً بجبهة أبيها وتاركة الفروع تتشابك

بخصلات شعرها الذهبية وتشعثها! يستند «تيمور» على إحدى الأشجار على أطراف الحرش، محاولًا التقاط أنفاسه المتقطعة وتهدئة صدره المحترق، وهو يرمق الكنيسة الواقفة على بعد أمتار قليلة بمبناها الصغير الذي لا يميز واجهته شيء عما حوله من منازل سوى الصليب المرفوع فوق سطحه الهرمي، بينما ترفع «مِيري» رأسها بعدما تشعر بتوقف أبيها، وترمق ما يرمقه من خلف عينيها الدامعتين وقلبها بداخلها يكاد يتمزق من الرعب. يرفع ركبته اليمنى ويسند عليها ذراعه؛ ليضبط وضع «فاطمة»، ويتأكد من تمسكه بها جيدًا قبل أن يتوكل على الله في سره، ويسرع مجتازًا الأمتار المكشوفة بينه وبين الكنيسة مركزًا عينيه عليها دون أن يحاول الالتفات حوله مهما شعر باقتراب أية أقدام أو سنابك خيول، كأنه بعدم رؤيته للخطر يحمي نفسه منه! يزداد تشبث ذراعي «مِيري» بجبهة أبيها، وتحتضن رأسه وقلبها يدق بعنف حتى يدلف «تيمور» أخيرًا من الباب الخشبي الكبير الذي يُغلَق خلفه ليصبح هو و«فاطمة» و«مِيري» آخر الناجين.

تستقبلها الظلمة الهادئة التي تلفُّ الأيقونات الملونة على الحوائط لا يكسرها سوى خيوط النور الرفيعة التي تتخلل النوافذ العالية في خفة وشعلات الشموع المتراقصة في

الأركان. تستنشق «مِيري» الهواء الرطب المعبأ بمزيج رائحة الذبالات المنطفئة وعبق الخشب العتيق، فيهدهد روحها ويُرخي أعصابها المشدودة وجسدها المتصلب.

تفسح القلة الناجية لـ«تيمور» الذي يسرع ليُرقِد «فاطمة» على أقرب أريكة خشبية خالية قبل أن يمد يده ويُنزل «مِيري» من فوق كتفيه بلهوجة دون أن ينظر إليها حتى تكاد أن تسقط ما أن تضع قدميها على الأرض بجانبه. عيناه معلقتان بوجه «فاطمة» في توسل وهو يحاول إفاقتها كالمجنون، بينما يقترب منه خادم الكنيسة حاملًا في يده إبريقًا ينثر منه مياهًا باردة على وجهها محاولًا مساعدته. أخيرًا ينتظم تنفس «فاطمة» قليلًا، ويذهب شحوب وجهها، كأن الدماء تعود لتجري في عروقها. تفتح عينيها ببطء وتدير مقلتيها الغائمتين من خلف جفنين نصف مغمضين، قبل أن تعود لتغلقهما تمامًا مرة أخرى. يفزع «تيمور»، فيحاول الخادم طمأنته بأنها قد استردت وعيها، وأنها الآن مستغرقة في إغفاءة طبيعية من التعب الذي لا تتحمله امرأة حامل مثلها. تحملق «مِيري» فيما يحدث، بينما جسدها يرتجف من الخوف عندما تشعر بـ«آيسل» تقترب لتقف بجانبها مفزوعة هي الأخرى، وخلفها «عمر الريحاني» يحمل «حسن» الصغير وهو يبكي كبقية الأطفال الذين يرتفع

صراخهم مختلطًا بالهمهمات اليائسة.

يسأل «عمر» في توتر كأنه يخشى الإجابة:

- أين السيدة «رقية»؟!

دون أن يحول «تيمور» وجهه عن «فاطمة» يجيب مقتضبًا كأنه يخشى أن تلتقي عيناه بعيني «عمر» أو «آيسل»:

- قتلها الكوميتاجي.

تشهق «آيسل» بعنف، وتضع يديها على فمها وهي تجهش ببكاء مكتوم يزلزل جسدها الصغير، فتسقط جالسة على الأرض منخرطة في نحيب طفولي تقطعت له قلوب كل من يرقبونها في أسى، بينما تقف «مِيري» تحملق فيها في ذهول! أول مرة ترى «آيسل» منهارة وضعيفة هكذا! دائمًا ما كانت تتطلع لها في إعجاب، وتحاول تقليدها في كل شيء خاصة شخصيتها القوية المتفردة التي تنكسر أمامها الآن، وتتبعثر مع دموعها وشهقاتها المكتومة. لكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من أن تشعر نحوها بشفقة تعتصر قلبها، وهي تدرك أن «آيسل» قد فقدت أمها إلى الأبد. أنهم جميعًا فقدوا خالتها

«رقية» إلى الأبد! إنها تبكي هكذا على خبر موتها، فماذا إن رأت ما رأته «مِيري» بعينيها؟! ماذا إن حكت لها ما فعله بها هذا الرجل المخيف قبل أن يقتلها؟! لكنها حتى لو أرادت أن تحكي فلن تستطيع! لا تعرف كيف يمكن أن تصيغ ما رأته في كلمات تقولها؛ لأنها عاجزة عن أن تستوعبه أو حتى تفهمه!

تجلس «مِيري» على الأرض بجانب «آيسل»، وقد أطبق عليها الصمت، بينما ينحني «عمر» ليضع «حسن» في حجرها، قبل أن يلتفت ليقترب من المطران أبوستولوس الملتصق بالباب يرهف سمعه، فلا يلتقط من السكون المخيف بالخارج بعد أن خمد الهرج والصراخ سوى صوت الأقدام الثقيلة وسنابك الخيول، وهي تحاصر الكنيسة حتى يرتفع فجأة صوت أجش يطرق الآذان والقلوب الراجفة:

- سلموا أنفسكم قبل أن نقتحم عليكم الكنيسة.

تزيغ العيون المذعورة، بينما يلتفت «عمر» نحو المطران، ويهتف غير مصدق:

- هل يمكن أن يفعلوا ذلك؟!

- لا أعرف! لا أستبعد شيئًا!

يقولها في ضيق وحيرة، ثم يصمت للحظات قبل أن يتخذ قراره في حسم:

- يجب أن أخرج لهم.

ينفتح الباب الخشبي مُصدرًا أزيزًا خافتًا، لكنه يبدو كأنه زئير عالٍ جدًا في ظل الصمت المشحون بتحفُّز الجنود البلغار الذين انتشروا واحتلوا المنطقة كلها بعد أن أنهى الكوميتاجي عملهم، ولم يتبقَّ سوى البائسين المحاصرين بالداخل. رُفِعت البنادق مستنفرَة، لكن سرعان ما يشير لهم القائد ليخفضوها بعدما يظهر أمامهم المطران أبوستولوس بلحيته البيضاء الطويلة وملابسه الكنسية، قبل أن يتوقف مستندًا على عصاه السوداء، وهو يرمقهم صامتًا بنظرة محايدة.

يشد القائد جسده وهو يقترب خطوة في احترام هاتفًا:

- أيها المطران.. باسم الملك فرديناند القائد العام للجيش البلغاري والقائد الأعلى للجيوش المتحالفة.. أناشدك تسليم

هؤلاء الأسرى.

- لا.. لن أقوم بتسليم أحد.

يقولها المطران بنبرة هادئة وحازمة يتردد صداها بين المنكمشين خلف الباب بالداخل يستمعون إلى هذا الحوار الذي سيحدد مصيرهم، بينما يتلقى القائد اعتراض المطران محملقًا في ذهول، لكنه يبتلع الإهانة، ويتمالك نفسه وهو يجيب:

- أيها المطران.. هذه أوامر عسكرية!

يتجاهل المطران نبرة التهديد، ويجيب بنفس الهدوء والحزم:

- هؤلاء احتموا بالكنيسة، وأعطيتهم الأمان.. لا أحد يحتمي بالكنيسة ويُغدَر به.

لا يستطيع القائد أن يتحمل أكثر من ذلك، فيهتف منفعلًا:

- ماذا دهاك أيها المطران؟! إنهم أعداء المسيح!

عندئذ يفقد المطران شيئًا من هدوئه، فيدقّ بعصاه دقة عصبية على الأرض، ويرفع سبابته وهو ينهاه حاسمًا:

- لا تتحدث عن المسيح أيها القائد ودماء الأبرياء لم تجفّ على أيدي عصابتك بعدُ!

يلتفت المطران ويدخل مرة أخرى قبل أن يُغلق الباب خلفه في وجه الجنود وقائدهم الغارق في غيظه وذهوله!

ينظر الجميع نحوه في امتنان حقيقي، وأولهم «عمر الريحاني» الأقرب له، لكنه لا يبادلهم النظر، بل يظل غارقًا في تفكيره وحيرته، قبل أن يرفع رأسه وينظر لـ«عمر» قائلًا في استسلام:

- لم ينته الأمر! يجب أن أخرج لهم مرة أخرى وأفاوضهم على ما يجب أن تقرروه الآن. تريدون الأمان حتى ترحلوا من هنا، أم تريدون العودة لبيوتكم والاحتماء بها حتى نرى كيف سينتهي الأمر؟!

يصمت الجميع، وقد ألجمت الحيرة ألسنتهم قبل أن تسري همهمة خافتة يتضح منها ميل البعض نحو العودة لبيوتهم،

وعدم مغادرة الأرض التي وُلِدوا وعاشوا عليها عمرهم كله. حينئذ لا يستطيع «عمر» تمالك نفسه، فيصرخ فيهم غير مصدِّق:

- تريدون البقاء؟! تظنون أن الأمر سينتهي على خير؟! هذا الأمل سيقتلكم! هؤلاء لن ينهوا حربهم قبل أن يبيدوكم من على أرضهم.. سيقتلونكم أو سيتركونكم للموت البطيء من الجوع والبرد والأمراض كما حدث لآبائكم وأجدادكم من قبل! كيف تنسون بهذه السرعة؟!

يرتفع صوت «تيمور» مؤَمّنًا في إصرار دون أن ينهض من جلسته أمام «فاطمة» الغافية:

- سأرحل معك يا «عمر».. لا أريد البقاء هنا.

ينكِّس الجميع رؤوسهم أمام توبيخ «عمر» لهم، ويصمتون تاركين أمرهم بين يديه، فيلتفت نحو المطران مقررًا في حسم:

- اطلب منهم أيها المطران أن يعطوا لنا الأمان لنرحل حتى ميناء سالونيكة، ومن هناك سنتدبر أمرنا!

يومئ المطران موافقًا على ما أراده منذ البداية، قبل أن يعاود الخروج للقائد المنتظر في تضجُّر. يمر الوقت بطيئًا كرحايا تسحق أعصاب المنتظرين بالداخل قبل أن يعود المطران مرة أخرى ليبلغهم بالاتفاق النهائي، والذي بدا من تفاصيله أن «الريحاني» كان محقًّا في كل كلمة قالها! سيخرجون في صباح اليوم التالي دون أن يتعرض لهم أحد حتى يصلوا للطريق المؤدية لسالونيكة، وقد استطاع المطران بصعوبة أن ينتزع لهم بضع عربات وخيول ضعيفة لتجرها من أجل النساء والأطفال، بعد أن أصر القائد على أن يخرج الجميع دون اصطحاب أيٍّ من أمتعتهم أو مواشيهم أو محاصيلهم التي تمت مصادرتها بالكامل!

يصيبهم الوجوم وهم يستمعون لتفاصيل الاتفاق! هذا يعني أنهم سيسيرون لمدة يومين تقريبًا دون طعام أو أغطية أو ملابس غير تلك التي يرتدونها! لكنهم لا يملكون شيئًا سوى القبول. فوسط كل ذلك، من يملك الوصول إلى مرفأ آمن وروحه لا تزال داخل جسده يكون أكثر الناس حظًّا.

ما أن تشرق شمس اليوم التالي حتى تصطفَّ العربات القليلة وأمامها خيولها وسط صفي الجنود الواقفين يرمقون

الرجال وهم يساعدون النساء والأطفال للصعود على الأسطح الخشبية الهزيلة. يحمل «تيمور» «فاطمة»، وقد بدا أن المرض قد تملك من جسدها، وألقى بها في إغماءة طويلة تفيق منها على فترات متقطعة لتنظر حولها بعينين غائمتين وعدم إدراك، قبل أن تعود لتسقط في غفوتها مرة أخرى! يضعها على سطح أول عربة في الصف، ثم يحمل «مِيري» و«حسن» و«آيسل» ويجلسهم بجانبها، قبل أن يتجه ليقف بجانب «عمر الريحاني» الممسك بلجام الفرس البائس.

تتحرك القافلة مهزومةً وسط صفي الجنود السائرين بجانبهما، وخلفهم المطران أبوستولوس؛ ليتأكد من وصولهم للطريق سالمين. يسيرون بين البيوت المحروقة والجثث المبعثرة والعيون التي يرمقهم بعضها في شماتة وبعضها الآخر في شفقة. ينظرون نحو بيوتهم وحقولهم وأمتعتهم وهم يمرون بجانبها كالأغراب بعد أن سُلِبت منهم، والقهر يعتصر أحشاءهم دون أن يعلموا أنهم أكثر حظًا من غيرهم سيسيرون مثل مسيرتهم تلك في مدن أخرى، ولكن كأسرى سيُقتلون أو يُسجنون أو يُضطرون للهروب للجبال، فيقتلهم الجوع والبرد والأمراض بعد أن مُنعت عنهم ممتلكاتهم ومحاصيلهم دون أن يكون لديهم رفاهية الوصول لمرفأ آمن قريب.

تتكسر الأفرع الصغيرة تحت قدمي «تيمور» وهو يطأ الأرض التي وطأها أبوه وأهله من قبل دخولًا وخروجًا وهروبًا وعودة عدة مرات. لكنه الآن يطأها راحلًا عنها إلى الأبد. كم أصبح يكرهها! هذه الأرض التي سلبته كل شيء، ولفظته منها هكذا فقيرًا معدمًا مجروحًا بموت ابنة خاله بعد استباحة جسدها، وتيتم ابنتها، ومهدَّدًا بفقدان زوجته وحبيبته الوحيدة. تلك الضعيفة المنهكة النائمة خلفه بما تحمله في رحمها منه.

ينتصف النهار دون أن يتوقف السير، و«مِيري» تراقب ما يحدث حولها في ذهول وعدم تصديق! أمها متكومة بجانبها، و«حسن» سقط نائمًا في حجرها بعد أن أنهكه بكاء الجوع الذي يضرب أحشاءها هي أيضًا، وبجانبها «آيسل» كما هي صامتة وشاردة! تعلم أن مصيبتها ليست هينة. هي نفسها تكاد تجنُّ كلما نظرت نحو أمها المريضة، وخطر ببالها أنها يمكن أن تفقدها. لكن لهذا السبب أيضًا هي في أشد الاحتياج لـ«آيسل»؛ لتملأ لها هذا الفراغ الموحش المحيط بها وتطمئنها وتُفهمها ما لا تفهمه كما كانت تفعل دائمًا! ولكن ماذا إذا كان الذي لا تفهمه هو بالضبط ما فعل هكذا بـ«آيسل»؟ وأنها لن تستطيع أن تخبرها بالمزيد مما رأته هي يحدث لخالتها ولا

تعرف «آيسل» عنه شيئًا؟! لكنها لا تطيق هذه الوحدة التي لم تعتدها يومًا بفضل وجود «آيسل» بجانبها! تحدثي يا «آيسل» أرجوكِ. قولي أي شيء. ها هو «عمر الريحاني» يسير أمامنا. تكلمي معي عن قوته ووسامته، وأعدك أنني سأتجاوب معكِ وأجيبكِ، حتى وإن كنت لا أفهم كل ما تفهمينه أنتِ، ولا أشعر بما تشعرين به! عيناها معلقتان بها في أمل، ولكن عيني «آيسل» كما هما شاردتان ممتلئتان بنفس الحزن الصامت.

يتلفت «تيمور» فاحصًا الطريق حوله قبل أن يهتف في استنكار:

- هذه ليست طريق سالونيكة يا «ريحاني»!

دون أن ينظر نحوه يجيبه «عمر» بنبرة تمتلئ كراهية:

- أعرف.. لن أسير بكم في طريق هم يعرفون أننا سنسلكه.. لا آمن غدر الكوميتاجي حتى وإن كنا لا نحمل ما يطمعون فيه.

ثم يلتفت نحو «تيمور» مستطردًا بنبرة مطمئنة:

- لا تقلق.. سآخذكم لميناء آخر.. آمن، ويمكن أن أدبر أمركم فيه كما كنت سأفعل في سالونيكة.

- ما هو؟!

- ميناء قولة(52).

الفصل الخامس

ميناء قولة - اليونان حاليًا - أكتوبر ١٩١٢

في أحد المخازن الكبيرة وزَّعوا عليهم أطعمة قليلة جدًا، لكنها كانت كافية لتسدَّ شيئًا من جوعهم قبل أن يستقروا وسط المئات المتكدسين نائمين في إعياء أو جالسين في انتظار موعد إبحار السفينة التي أوجد لهم فيها «عمر» مكانًا قبل أن يودِّعهم ويرحل ليحاول إنقاذ آخر مجموعة ممن يعرفهم من ذوي الأصول الشركسية، ولكن هذه المرة ليعود بهم إلى قريته الريحانية.

تجلس «مِيري» مستندةً بظهرها على الحائط، وفي حجرها «حسن» الذي وجدت نفسها فجأة مسؤولة عنه مسؤولية كاملة، بينما أمها لا تزال في غيبوبتها التي لا تفيق منها إلا لمامًا، وأبيها الجالس ملتصقًا بها عيناه مثبتتان على وجهها وقلبه معلق بأنفاسها المنتظمة في خفوت، ويده متشبثة بكفها كأنه إن أفلتها ستفلت روحها المتأرجحة على شفا موت لا يتحمل «تيمور» مجرد التفكير فيه.

تتأمل «آيسل» الجالسة مستندة على الحائط بجانبها تلصق ركبتيها بصدرها، وتدفن فيهما فمها وأنفها، بينما عيناها الشاردتان تكتسيان بطبقة من الدموع كانت قد اختفت طوال الطريق، وعادت لتظهر هنا مع اقتراب موعد الرحيل. تحاول «مِيري» طمأنة نفسها بأن الوضع لن يستمر هكذا كثيرًا، وأن الأمور ستتحسن مع بداية رحيلهم. بالتأكيد ستفيق أمها، وتسترد صحتها، وسيعود أبوها ليحتويها هي و«حسن» مرة أخرى، و«آيسل» بالتأكيد سيلهيها ركوبهما معًا هذا البحر لأول مرة عن حزنها، وستكفُّ عن صمتها، وتعود ابنة خالتها وصديقتها التي تعرفها، القريبة دائمًا والذي يُشعِر «مِيري» غيابها عنها وهي أمامها هكذا بوحشة تطغى حتى على وحشة هذا الرحيل الصعب المؤلم. لكن ما أن ينتصف النهار حتى يحدث ما يأتي على ما تبقى من آمالها، ولم يكن يتوقعه أحد منهم! عندما يلتفتون فجأة ليجدوا «قاسم أفندي» واقفًا أمامهم كأن الأرض الممتلئة بهؤلاء البؤساء قد انشقَّت عن جسده الضخم السمين الملفوف في ملابسه السوداء الأنيقة وطربوشه الأحمر المثبت بعناية فوق مقدمة رأسه بشعرها الخفيف وجبهته العريضة، ووجهه الدائري ذي الملامح المتهدلة والهالتين السوداوين المحيطتين بعينيه الحادتين.

تقفز «آيسل»، فيتلقفها بين ذراعيه، ويحملها حاضنًا إياها بشوق، بينما ينهض «تيمور»، ويقترب منه هاتفًا في دهشة:

- «قاسم أفندي»! كيف وصلت إلينا؟!

يزفر «قاسم أفندي» قبل أن يجيبه:

- الأخبار السوداء تنتشر وقت الحرب أكثر من أي وقت آخر! عرفت أن هناك قلة استطاعت الهروب من رازالق إلى قولة.. أتيت وبحثت في كل أركان الميناء كالمجنون حتى وجدتكم! أين «رقية»؟!

تبدأ «آيسل» في البكاء بصوت خافت، بينما يخفض «تيمور» رأسه في حرج، وأمام عينيه تلوح صورة جثة رقية العارية، وقد انسالت الدماء على وجهها، قبل أن يزدرد ريقه، وهو يقول في اقتضاب متحاشيًا النظر في عينيه:

- عظّم الله أجرك فيها يا «قاسم أفندي».

تتراخى يدا «قاسم أفندي» حتى يعيد «آيسل» لتقف على الأرض بجانبه، بينما يرتعش وجهه وجفناه بصدمة تخيف

«تيمور» الذي يسرع ليسند جسده المتأرجح، لكنه بدلًا من أن يساعده على تمالك نفسه والوقوف ثابتًا مرة أخرى يجد نفسه يمسك بذراعه بقوة ليبطئ هبوط جسده الضخم الذي يتهاوى جالسًا متربعًا على الأرض المتسخة، وهو يذرف دموعًا صامتة، سرعان ما تحولت إلى بكاء عنيف وشهقات متقطعة تنتقل عدواها لـ«آيسل» التي تعود لتنخرط في البكاء، وهي تزداد التصاقًا بجسده المنهار!

يتأمل «تيمور» ما يحدث أمامه مأخوذًا بالدهشة وعدم التصديق! أول مرة يرى «قاسم أفندي» الرجل الشديد المتجهم ضعيفًا هكذا! تختفي فجأة كل الحدة التي كانت تملأ عينيه، ويحل محلها دموع واهنة! لم يكن يتوقع أبدًا أن يهزمه موت «رقية» هكذا، ويحوّله من رجل صارم مرهوب إلى هذا المنكسر المنهار أمامه كأنه طفل يبكي أمه! ثم تتعاظم دهشته وحيرته عندما يفتح «قاسم أفندي» فمه متحدثًا من بين دموعه وأنفاسه المتقطعة بنبرة مقهورة:

- مِتّ يا «رقية» قبل أن تعرفي كم أحبك! لا.. كنتِ تعرفين كم أحبك.. بل مِتّ قبل أن أجعلك تحبينني كما أحبك أو حتى عُشر ما أحبك!

تراقبه «مِيري» مشدوهة، وقد بدأت الخيوط تتشابك في عقلها، والصورة تكتمل وتتضح أمام عينيها. تدرك الآن ما ظلت طوال عمرها تحاول فهمه عن خالتها الجميلة الصامتة دائمًا التي عاشت شبه منعزلة عنهم، وعن كل شيء منذ أن تزوجت هذا الغريب قبل أن تتم السادسة عشرة من عمرها. تفهم الآن نظراتها الحزينة التي تحولت في أيامها الأخيرة إلى فرحة خافتة حذرة، بينما كان هناك دائمًا شيء آخر غامض يلازم عينيها حزينتين كانتا أم فرحتين. تفهم أن خالتها عاشت عمرها القصير تعيسة في القفص الذهبي الذي وضعها فيه زوجها هذا الذي سيقت إليه كما تساق الخراف إلى مهاجعها، وأن تحول تعاستها في الأيام الأخيرة لم يكن إلا بسبب إحساسها بأنها تقف أخيرًا على أعتاب هذا القفص، وأنها ستنال حرية لم تجرؤ يومًا حتى على الحلم بها! أما هذا الشيء الغامض الذي كان ينهشها في كل أحوالها لم يكن إلا إحساسها العميق بالذنب نحو هذا الذي يعشقها بجنون، ويحاول أن يأتي لها بالدنيا كلها تحت قدميها، بينما هي تنفر منه، ولا تستطيع أن تشعر نحوه بأي شيء! إحساس بالذنب كدَّر عليها فرحتها بالحرية؛ لأنها تعلم أنه بينما هي تسعد بهروبها منه وتتوق إلى حياة جديدة من دونه سيعيش هو عمره كله يبحث عنها تحت كل حجر حتى وإن اضطر لأن يجوب الدنيا كلها وقلبه محطم بفراقها! مسكينة يا خالتي!

ربما كان الموت هو الأكثر راحة لكِ بدلًا من خيبة الأمل التي كنتِ ستشعرين بها لو كنتِ هنا الآن!

تفيق «مِيري» من أفكارها فجأة عندما يمسح «قاسم أفندي» دموعه، ويتماسك قليلًا قبل أن يقول في إصرار الجملة التي ستصفعها على وجهها وتقلب حياتها وتترك في قلبها جرحًا لن يلتئم:

- يجب أن أعود إلى إستانبول وسآخذ «آيسل» معي!

* * *

تجلسان خارج المخزن الكبير، وأمامهما تمتد الزرقة الباهرة المرهبة في نفس الوقت تشقها السفن والمراكب السائرة والواقفة لا يفصلهما عنها سوى الرصيف الضيق، حيث يمر البحارة والعاملون بخطوات معظمها سريع ومتوتر. تلتفت «مِيري» نحو «آيسل» الشاردة أمامها.. قلبها يكاد يمزقه دقُّه المجنون ومعدتها يثقلها القهر، بينما عيناها تكتسيان بطبقة دموع لامعة تحاول كبحها فتشعر بها كقطعة حجر في حلقها يعيق صوتها الذي يخرج خافتًا مبحوحًا:

- «آيسل».. هل ستذهبين حقًا مع أبيكِ؟!

تلتفت نحوها «آيسل»، وهي تمط شفتيها في استسلام قائلةً:

- نعم يا «مِيري».

تهتف «مِيري» بانفعال لا تستطيع السيطرة عليه، وقطعة الحجَر تزداد ثقلًا في حلقها:

- لماذا؟!

- لأنها بلده.. يجب أن يعود إليها، ويجب أن أكون أنا معه؛ لأنه أبي.

ثم تخفض عينيها الدامعتين، وهي تستطرد في انكسار:

- ولأن هو آخر ما تبقى لي في الحياة.

تنسال دموع «مِيري» وهي تهتف غير مصدقة:

- ونحن يا «آيسل»!

تجيب «آيسل» مسرعةً:

- أنتم الأقرب إليّ ربما حتى أكثر منه! لكنه أبي! لن أكون حملًا عليه في أي يوم من الأيام، وسنتبادل مواساة يحتاجها كلانا.

ثم تصمت للحظة قبل أن تقول بنبرة يملؤها التمني:

- ليتكم تأتون معنا.

تدير «مِيري» وجهها الباكي نحو البحر مرة أخرى، وهي تهتف في يأس:

- أنتِ سمعتِ أبي وهو يرفض ويعتذر لأبيكِ.. يقول إنه كره هذه الأرض، وإنه يريد أن يتركها، ويبدأ من جديد في أرض بعيدة.

يسود بينهما الصمت بعد ألا تجد «آيسل» ما يمكن أن تعقب به! يبدو أن مصيرهما قد تحدد على أيدي الكبار، ووفقًا

لرغباتهم، وأن عليهما أن يتحملا ذلك ويقبلا به. وبينما كان ذلك يكاد يقتل «مِيري» بالحسرة كان يجرحها أكثر إحساسها أن «آيسل» لا تشعر بنفس ما تشعر هي به من قهر وألم، وأنها لم تكد تجد أباها حتى تشبثت به، ملقيةً بكل شيء آخر خلف ظهرها.. حتى «مِيري»!

لكنها لا تلبث أن تتناسى ذلك في لحظة الوداع، حيث تلقي الشمس الغاربة بأشعتها الحمراء على الفتاتين المنخرطتين في عناق طويل، وهما تبكيان وخلفهما يقف «قاسم أفندي» و«تيمور» يرقبانهما في أسى، وشيء من الندم، وهما يحسان أنهما السبب في هذا الانكسار عندما اضطّرا تلكما الصغيرتين على أن يواجها وداعًا قاسيًا تنعدم تقريبًا بعده احتمالات اللقاء، ودفعاهما لتحمُّل فراق سينفطر له قلباهما الغضان الضعيفان قبل أوانهما!

تخفض «آيسل» عينيها، وتدفن وجهها في كتف أبيها وهو يبتعد حاملًا إياها؛ حتى لا تلتقي عيناها بعيني «ميري» المنخرطة في بكاء حاد، وهي تلتصق بساق «تيمور» الذي كان يحمل «حسن» بيد وباليد الأخرى يقربها إليه، ويربت على كتفها حتى تكف قليلًا عن نشيجها الذي يمزق قلبه، ويزيد كراهيته لهذه الحرب التي نالت منه ومن كل عزيز

لديه حتى تلك الصغيرة التي لا ذنب لها حتى تُدفع وسط كل هذه التجارب القاسية التي لا يتحملها من يفوقونها في العُمر والصلابة.

يخيم الليل عليها وهي ملتصقة بالجدار تتقلب محاولة التناوم والتغافل عن هذا الحِمل الذي يجثم على صدرها. تحتضن «حسن» النائم وتضمه أكثر إليها كأنه بجسده الصغير سيخفف الألم المتماوج بين ضلوعها. تذهب في إغفاءات قصيرة تنتبه منها على فترات متقطعة، فلا تقع عيناها في كل مرة إلا على جسد أمها الساكن في غفوته الطويلة، وبجانبها «تيمور» متسمِّرًا في جلسته بجانبها. عيناه يحتلهما الإرهاق والنعاس، بينما أذناه تلتقطان في لامبالاة أطراف حديث يدور بين رجلين يجلسان خلفه حول آخر أخبار الحرب التي وصلت مؤخرًا، وكيف أن القوات العثمانية اضطُرّت لانسحاب مروع بعد أن انهزمت في أولى معاركها الكبيرة بمدينة كومانوفو!

الفصل السادس

ميناء قولة - اليونان حاليًا - نوفمبر ١٩١٢

الدنيا غارقة في ظلمة الفجر لا تنيرها سوى إضاءات خافتة متناثرة في الميناء أو منبعثة من هذا الجسد الضخم المعتم(53) الرابض أمامهم وفوقه يتحرك البحارة في توتر يستكملون استعدادات الإبحار، يستعجلهم صف طويل يتحرك ببطء نحو وفوق الجسر الخشبي الصغير الموضوع بعناية رابطًا الرصيف بباب السفينة.

تقف «مِيري» في المنتصف تقريبًا. جفناها مثقلان بالإرهاق وقلة النوم، وجسدها يرتجف بلسعات الفجر الباردة، وذرعاها يؤلمانها من حمل حسن الصغير المستغرق في النوم على كتفها، بينما خلفها في الصف يقف «تيمور» محيطًا جسد «فاطمة» بذراعيه، وباذلًا كل جهده ليسندها في وقفتها المتراخية بعدما أفاقتها قليلًا الحركة والاضطرار للاصطفاف، وإن ظلت كما هي بصمتها، ونظراتها الغائمة التائهة وعيناها نصف المغمضتين.

بعد فترة تبدو كأنها دهر يدلفون أخيرًا من الباب، ويسيرون في دهاليز نصف مظلمة حتى يدخلوهم غرفة كبيرة يبدو من النور الخافت آثار مسحة من الفخامة على أرضها وحوائطها الخشبية، كما يبدو أنه قد تم إخلاؤها من محتوياتها؛ حفاظًا عليها وحتى تتسع لكل هؤلاء المتكدسين حول «مِيري» التي تجلس ملتصقة بالحائط كما كان حالها في المخزن الكبير. منكمشة وهي تضم «حسن» إلى صدرها بقوة، وترمق أباها الذي أرقد أمها أمامها، وعاد ليجلس ملتصقًا بها مرة أخرى.

ترى السماء عبر النافذة وهي تتحول من الأسود إلى الأبيض ثم الأزرق قبل أن تسمع صوت المحركات وهي تشتد، وتشعر بالسفينة وهي تتحرك ببطء، وتدور موليةً ظهرها للميناء، وتشق الأمواج مبتعدة بهم عنه. تتراخى الأعصاب تدريجيًا ويبدأ الناس حولها في التحرك بشيء من الحرية والتآلف مع المكان والاعتدال في جلساتهم أو نوماتهم؛ ليجدوا أفضل وضع يريحهم خلال رحلة لا يعلمون كم ستطول بهم.

يتحرك البحارة بينهم في سرعة يوزعون عليهم أطعمة قليلة، فتنبه حركتهم «حسن» الصغير الذي يستيقظ باكيًا، ثم

يكف عن بكائه مستغرقًا في تأمل طعامه وتناوله، بينما تظل «مِيري» ثابتة مكانها محاولة التغلب على الدوار الخفيف الذي يتلاعب برأسها، وهي تمضغ وتزدرد الطعام ببطء، وعيناها تتنقلان بين أمها وأبيها تارة ومتابعة «حسن» تارة أخرى. لكنها لا تستطيع أن تتحمَّل تلك الوحدة المقيتة التي لم تعتدها أبدًا، فتضج بها، وتبدأ في التلفت حولها؛ علّها تجد من يؤنس وحشتها تلك، ويكسر هذا الصمت الذي يكاد يخنقها. تقع عيناها على طفل صغير في مثل عمرها تقريبًا يجلس بجانبها شاردًا وهو يتناول طعامه، وأمامه تجلس أمه متربعة والحزن والبؤس يكسوان ملامحها وجسدها. يكاد خجل «مِيري» أن يمنعها عما تريد فعله، لكنها لا تلبث أن تتجاوزه، وتدفع نفسها لتهتف نحو هذا الولد في صوت خفيض متردد: «مرحبًا»! يلتفت الطفل ويتأملها في بلادة دون أن يجيب، فتظن هي أنه لم يسمعها جيدًا، فتدفع نفسها لتتحدث مرة أخرى والخجل يعتصرها:

- اسمي «مِيري».. ما اسمك؟!

ولدهشتها يظل الفتى على حاله! صامت بوجه بليد وعينان تنظران نحوها كأنها فراغ يمر بصره عبرها ناظرًا نحو شيء مستقر خلفها! تتحول دهشتها لضيق وندم؛ لأنها تسرعت

وتحدثت معه، وأنها لم تسمح لخجلها بمنعها عن هذه الحماقة، لكن يقطع عليها تفكيرها صوت أمه وهي تجيبها في نبرة يختلط فيها الاعتذار بالحسرة:

- اعذريه يا ابنتي.. أصبح لا يتحدث.. لو كان تحدث ونحن في قريتنا ربما استطعنا أن ننقذ أباه قبل أن يقتلوه.. لكنه لم يتحدث!

لا تفهم «مِيري» ما تقصده هذه المرأة البائسة، لكنها تستطيع أن تتخيل ما يمكن أن يكون قد حدث لهم بعد ما شهدته هي بعينيها قبل الرحيل! أليس تصرفها السريع وإرشادها لأبيها هو ما مكّنه من إنقاذ أمها؟! ربما تعرّض هذا الولد لموقف مشابه، لكنه لم يستطع أن يفعل ما فعلته هي، ففقد أباه بسبب ذلك! مهما كان ما حدث فقد أغلق صمته الباب في وجهها لتعود إلى وحدتها مرة أخرى صاغرةً مستسلمةً دون أي أمل في شخص يلهيها أو يؤنسها!

تنتبه عندما تجد أباها يحمل «حسن» الذي كان قد سار نحوه دون أن تلتفت هي في الدقائق القليلة الماضية، فيناولها إياه دون أن ينظر نحوها، بينما عيناه تنظران في اهتمام بالغ نحو أول الغرفة! تتلقفه «مِيري» وعيناها تتجهان

لا إراديًا نحو هذا الذي يشد انتباه أباها، فتقع عيناها على رجل تدرك أنه طبيب يمر على المستلقين في إعياء فيفحصهم، ويحاول علاجهم قدر المستطاع، ويصاحبه في ذلك أحد الضباط البحريين؛ ليترجم ما يقوله إلى اللغة التركية التي كان الكل تقريبًا يعرف مبادئها على الأقل.

يتابع «تيمور» الطبيب، وهو يتحرك بين المرضى مقتربًا منه في بطء يكاد يقضى على أعصابه المحطمة بالفعل، حتى يصل عنده أخيرًا، وينحني ليفحص «فاطمة» في لحظات تبدو كأنها سنوات طويلة، قبل أن يفضي ببضع كلمات للضابط الذي يلتفت نحو «تيمور» مترجمًا:

- يقول الطبيب إنه لا خطر في حالة زوجتك.. ينتابها ضعف عام لا يليق بحملها لكنه ليس خطيرًا.. احرص فقط على إطعامها حتى نصل، حيث سيعتنون بها بشكل أفضل. هناك أيضًا احتمال أن تتحسن حالتها خلال الأيام القليلة القادمة، ولكنه ليس احتمالًا كبيرًا.

يتساءل «تيمور» في حيرة وقلق:

- طالما أن حالتها ليست خطيرة.. لماذا هي نائمة هكذا

طوال الوقت كأنها فاقدة لوعيها؟!

يتوجه الضابط للطبيب مترجمًا السؤال قبل أن يعود إليه بالإجابة:

- يقول الطبيب إن ما يجعلها هكذا ليس شيئًا في جسدها، ولكنه شيء في نفسها.

يقطب «تيمور» حاجبيه في عدم فهم، فيستطرد الضابط محاولًا إيجاد الألفاظ المناسبة التي يمكن أن يفهمها هذا المزارع البسيط الواقف أمامه:

- إنه يقول إن زوجتك تهرب لشبه حالة الإغماء تلك طوال الوقت؛ لأنها أصبحت ترفض الحياة وتكرهها!

يذهب الضابط والطبيب، بينما يعود «تيمور» ليجلس بجانب «فاطمة» مذهولًا، والكلمات ترن في أذنيه تكاد تصيبه بالجنون! ينظر نحو وجهها الغارق في نومته الهادئة غير مصدق! هل حقًا أصبحتِ تكرهين الحياة يا «فاطمة» وترفضينها حتى وأنا ما زلت معكِ فيها؟! هل هنت عليكِ لهذا الحد حتى إنكِ لا تبذلين أي مجهود لتبقي معي!

لم تر «مِيري» أباها مهمومًا كما هو اليوم. يظل شاردًا مقطبًا حتى يحجب ملامحه عنها هبوط الليل، حيث سرعان ما يثقل جفونها إرهاق الأيام الماضية، فتأخذ «حسن» بين ذراعيها، وتستغرق في نوم عميق تنتبه منه عند منتصف الليل تقريبًا على صوت همس بجانبها! تفتح عينيها الثقيلتين ببطء، وتجتهد لتحملق بهما حتى تستطيع خرق الظلام الدامس الساكن المحيط بها، واستيعاب تلك الحركة الخفيفة التي أيقظتها. أخيرًا تستطيع تمييز جسد «تيمور» وهو ملتصق بجسد «فاطمة». يضع يده على بطنها المنتفخ، ويلصق جبهته بجانب رأسها، بينما يهمس في أذنها راجيًا ودموعه تغرق وجهه وجانب وجهها:

- أنتِ عمري كله يا «فاطمة».. لا تتركيني أرجوكِ.. تمسكي بالحياة من أجلي.. أنا تحمَّلت فقدان كل شيء، لكنني لن أستطيع تحمُّل فقدانك.. عودي من أجلي.. من أجل «تيمور» الذي لم يعرف أي حياة بدونك.. لا تتركيني في منتصف الطريق هكذا!

تكتم «مِيري» أنفاسها في انبهار، وهي ترى أباها هكذا، وتسمع منه هذا الكلام، وأيضًا حتى لا يعرف أنها رأته وسمعته. لا تعلم ما الذي أشعرها بذلك، لكنها كانت شبه

متأكدة من أنه لن يكون سعيدًا إن علم أنها رأته في خيبته وضعفه هكذا!

ترغم نفسها على إغماض عينيها، محاولةً الاستغراق في النوم مرة أخرى وقلبها بداخلها يرقُّ بشفقته على أبيها، ويتزلزل بخوفها على أمها بعدما أشعرها كلامه بخطر يفوق ما كانت تشعر به قبل أن تراه هكذا!

تستيقظ مِيري في الصباح على حركة وهرج يدوران حولها! تجلس مسرعة وهي تفرك عينيها؛ لتبصر بهما أمها التي أفاقت أخيرًا من غيبوبتها، ولكن بجسد يغمره العرق ويضطرب بألم تتأوه بسببه «فاطمة»، وهي تصرخ صرخات خافتة متقطعة، بينما يجلس تيمور ملتصقًا بها وهو يراقبها والرعب يكاد يفتك به! يفسح الجميع للطبيب الذي يدخل مسرعًا، ويفحصها في توتر تزداد وتيرته عندما يفاجأ الجميع بالمياه وهي تنسال من بين ساقيها مبشرة ومنذرة باقتراب خروج ما تحمله في رحمها! يشير الطبيب لـ«تيمور» إشارات يفهم منها أنه يريد نقلها لغرفة أخرى أكثر صلاحية لعملية الولادة. دون أن يضيع «تيمور» ثانية واحدة ينحني ليحمل «فاطمة» بين ذراعيه، ويصرخ في الجميع؛ ليفسحوا له الطريق نحو الخارج، حيث يسرع راكضًا وخلفه الطبيب

يحاول اللحاق به؛ ليرشده عبر الدهاليز نحو غرفته.

لا تتحمل «مِيري» اختفاء أبيها وأمها فجأة بهذه الطريقة، فتسرع دون تفكير بوضع «حسن» النائم في حِجر المرأة البائسة أم الطفل الأخرس الجالس بجانبها يراقب كل شيء بنفس التبلد، ثم تسرع راكضةً نحو خارج القاعة متخبطةً بأنفاس متقطعة بين الدهاليز، وهي تبحث عنهما بعينين محمومتين حتى تتوقف فجأة عندما تجد أباها واقفًا بين مجموعة من الرجال يتأملونه في إشفاق، وهو يلصق جبهته بالحائط منخرطًا في البكاء أمام باب غرفة صغيرة ترتفع من خلف بابها المغلق صرخات أمها الواهنة. ينكمش جسدها النحيل المرتجف وهي تراقب ما يحدث، ويد الخوف تعتصر قلبها ومعدتها أكثر كلما ازداد نشيج أبيها أو ارتفعت صرخات أمها!

أخيرًا يخفت صوت صراخ «فاطمة» ليحل محله صوت صراخ نحيل ينتبه له الجميع بعيون فرحة يشوبها القلق. يمسح «تيمور» دموعه عندما يفتح الباب، وتبرز منه امرأة كانت قد دخلت مع الطبيب لتساعده. يتلقاها «تيمور» متلهفًا محاولًا استشفاف ما تحمله ملامحها المرتبكة التي سرعان ما يتبين سبب ارتباكها بين الفرح والحزن! «فاطمة» بخير..

استطاعت أن تمرَّ بسلام من عملية ولادة عسيرة. يتنفس «تيمور» الصعداء، ويربت الرجال على كتفه مهنئين، لكنه لا يلتفت لهم عندما يبدو على وجه المرأة ما ينذر بأن ما ستعقّب به ليس مبشرًا! تزدرد المرأة ريقها في حرج قبل أن تلقي بما في داخلها بنبرة خافتة سريعة:

- كانت زوجتك تحمل طفلين.. عاشت البنت ومات الولد فور خروجه.

يهبط صمت ثقيل على الجميع، وينتابهم الوجوم خاصة «تيمور» الذي ما أن يسمع هذه الكلمات حتى يشد انتباهه خروج الطبيب من غرفته، وهو يحمل بين يديه لفافة بيضاء ملطخة بالدماء لم يكن من العسير فهم أنها تخفي بداخلها جثمان الرضيع!

ملامح الطبيب تمتلئ بالأسى وهو يمد يديه نحو «تيمور» الذي يتلقف منه اللفافة، ويحدق فيها مذهولًا، والجميع حوله يرمقونه في شفقة فاقت شفقتهم السابقة عليه، بينما يتغلب أحدهم على حالة الصمت هذه ويتطوع لتنبيهه، وهو يشير إلى الدرج الصاعد نحو سطح السفينة هامسًا بكلمات مقتضبة.

يزداد انكماش «مِيري» في ركنها المظلم وهي تراقب أباها يمر من أمامها حاملًا بين يديه تلك اللفافة البيضاء المقبضة، ويصعد بها الدرج وخلفه يسير باقي الرجال واجمين في موكب جنائزي لا يستطيع أن يفهمه عقلها الصغير المتعب. وما أن يختفي آخرهم حتى تسرع بالصعود خلفهم قبل أن تتوقف عند آخر درجة حيث تتسمر مكانها وعيناها معلقتان بأبيها الذي يقف مادًا يديه باللفافة البيضاء نحو أحد البحارة المنهمك في تثبيت قطعة من الحديد بحبل قصير لجسد الرضيع البارد حتى يغطس بسهولة في القاع، ولا يسهل جرفه نحو الشاطئ وما أن ينتهي حتى ينسحب بخطوات هادئة حزينة في اللحظة التي يلتفت فيها «تيمور»، ويقترب من السور الحديدي، فيتوقف عنده للحظات قبل أن يمد يده، ويلقي باللفافة بما يثقلها في البحر! تشهق «مِيري» مصدومةً قبل أن يباغتها صوت ثلاث طلقات يطلقها ثلاثة بحارة من بنادقهم في نفس الوقت، قبل أن يقوموا بتجهيزهن بسرعة لإعادة الإطلاق مرتين أخريين حدادًا واحترامًا لهذا الجسد الذي اضطرتهم الظروف للتخلص منه بهذه الطريقة؛ خوفًا من عواقب الاحتفاظ به على متن سفينة لن تصل في القريب العاجل ليابسة يمكن دفنه بها.

يستدير «تيمور» موليًا ظهره للعملاق الأزرق وهو يلتهم جسد ابنه الذي سُلِب الحياة قبل حتى أن يُمنَحها، ثم ينهار جالسًا على ركبتيه خائر القوى منخرطًا في بكاء من يشفق على نفسه، وقد تكالبت عليها كل أحزان ومتاعب الأيام الماضية!

لا تتحمل «مِيري» أكثر من ذلك، فتصعد آخر درجة وتنطلق راكضة كالسهم وسط العيون المحدقة بها في دهشة، قبل أن تلقي بنفسها في حضن أبيها الذي يتلقاها مندهشًا قبل أن تزول دهشته، ويزداد ضمه لها، وقد أصبح حضنها الآن هو الشيء الوحيد الذي يطمئن به نفسه بأن كل شيء قد أضحى أخيرًا على ما يرام.

* * *

«فاطمة» نصف جالسة في فراش الطبيب، وبجانبها تنام الرضيعة في اطمئنان ملفوفة في أقمطتها(54) بينما يجلس بجانبها «حسن» مستغرقًا في تأملها بنظرات مستغربة! عيناها لا تزالان واهنتين، لكن الحياة عادت تنبض فيهما أخيرًا، كما تنبض على شفتيها الصفراوين بابتسامة خافتة ضعيفة ويدها النحيلة مستقرة بين كفي «تيمور»

الجالس مواجهًا لها على حافة الفراش، بينما «مِيري» تقف بينهما ملتصقة بركبته.

يتأمل «تيمور» «فاطمة» بعينين تفيضان بالراحة والحب وشيء من اللوم يتضح أكثر في نبرته وهو يؤنبها برقة:

- هنتُ عليكِ يا «فاطمة»، حتى تكرهي الحياة وأنا فيها، وتريدي أن تتركيها وتتركيني معها؟!

تضغط «فاطمة» شفتيها قبل أن تجيبه في ندم وخجل، وعيناها تغرورقان بالدموع:

- اعذرني يا «تيمور».. ما رأيته لم يكن هينًا أبدًا.. وبعدها كاد الإحساس بالذنب أن يقتلني.. ربما لو كنت فعلت شيئًا أو صرخت كان يمكن إنقاذ رقية!

يزداد التصاق «تيمور» بها وهو يقول مسرعًا:

- لا تقولي ذلك يا «فاطمة».. لا ذنب لكِ فيما حدث.. الحمد لله الذي ألهمك الصمت والاختباء.. الله وحده يعلم لو لم تفعلي ذلك ماذا كان يمكن أن يحدث لكِ أو لـ«ميري»!

يمد يده ليمسح دموعها وهو يقول مُعيدًا السكينة إلى قلبها:

- هوِّني على نفسك يا «فاطمة».. الحمد لله أننا ما زلنا نحتفظ ببعضنا البعض.

تتسع ابتسامتها وهي ترمقه في حب وامتنان بعينيها المبللتين، بينما تعود نبرة اللوم لصوت «تيمور» وهو يقول راجيًا كأنه يتوسلها بكل قطرة من دمه:

- أرجوكِ يا «فاطمة».. مهما حدث لنا بعد ذلك.. تمسَّكي بالحياة من أجلي.. لا تكرهيها.. أحبيها.. أحبيها حتى وإن اضطررت أن تأخذي من مكاني في قلبك لتفسحي لها.. حتى وإن أحببتني أقل.. حتى وإن لم تحبيني بالمرة.. سأكون راضيًا طالما أنكِ ستظلين بجانبي.

يختنق صوت «تيمور» بالدموع، فتتحامل «فاطمة» على نفسها، وتعتدل في جلستها لتضمه إلى صدرها، وتحيطه بذراعيها الواهنتين، ودموعها تنهمر بعد أن أشعرتها كلماته ودموعه بالندم الشديد.

تعود «فاطمة» لتستند بظهرها على الحائط خلفها، بينما يمسح «تيمور» دموعه وهو ينظر نحو الرضيعة مبتسمًا قبل أن يعود لينظر نحو «فاطمة»، وهو يقول في محاولة لإسعادها:

- ما رأيكِ.. نسميها «رقية»؟

تومئ «فاطمة» مبتسمةً والدموع تنسال على وجنتيها، بينما لا تعرف «مِيري» لماذا أيقظتها كلمة أبيها هذه من حالة التأثر التي كانت غارقة فيها، وهي تتأملهما في لحظات حبهما كأنها صفعة تلقتها على وجهها! تفيق وهي تنظر نحو أبيها متعجبة! لم يمر بخاطرها من قبل أمر تسمية الصغيرة، لكن ما أن نطق «تيمور» باسم «رقية» حتى شعرت كأن شيئًا يتلوى بداخلها! هي تفهم أن أباها يحاول تعويض أمها عن فقدان خالتها «رقية». ولكن لماذا «رقية» فقط؟! ألم تفقد هي أيضًا «آيسل» التي كانت لها كما كانت «رقية» لأمها وربما أكثر؟! هل لأن «فاطمة» فقدت «رقية» بالموت، بينما فقدت هي «آيسل» بالفراق؟! هل فراق الأموات أشد وطأة من فراق الأحياء؟! ما الفرق وهي أيضًا لن ترى «آيسل» أبدًا مرة أخرى، كما لن ترى «فاطمة» «رقية» مرة أخرى؟!

أسئلة تدور بخلدها وشيء من اللوم تشعر به نحو أبيها وأمها، وهما مندمجان في لعق جراحهما دون الالتفات لجرحها المختبئ بداخلها. لكنها تقرر الصمت، ليس بسبب صغرها أو خجلها، لكن لأنه في هذه اللحظة بالذات شعرت بأنها مدينة لأبيها بعودة أمها للحياة. شيء بداخلها ينبئها بأن ما فعله أبوها أثناء الليلة الماضية عندما استيقظت لتراه وهو ملتصق بأمها يبكي ويرجوها هو ما أعادها للحياة. هذه الكلمات التي ألقاها في أذنها سقطت في وعيها الغائب، وأنبتت جذورًا كثيرة تشعبت وتشابكت لتعيد ربطها بالحياة، وتعيدها إليهم. فليفعل أبوها ما يشاء حتى وإن لم يلتفت لجرح قلبها الصغير بفقدان «آيسل»؛ لأن هذا القلب نفسه مدين له بحمايته من جرح فقدان أمها.

* * *

تستيقظ «مِيري» في هذا اليوم، وتتأمل ما حولها محاولة إدراكه. تتذكر فجأة أنها تنام هنا على أرض هذه الغرفة؛ لأن الطبيب قد سمح لهم بقضاء ما تبقى من الرحلة في حجرته؛ ليكونوا أسرةً واحدة بجانب أمها المستغرقة في النوم على الفراش، وبجانبها «حسن» و«رقية» الصغيرة. تنظر بجانبها لتجد مكان أبيها خاليًا فتنهض وتتجه نحو الخارج على

أطراف أصابعها؛ حتى لا توقظ أمها أو «حسن». ما أن تصبح في الدهليز حتى يشد انتباهها صوت جلبة على سطح السفينة. جلبة خفيفة رائقة من أحاديث هادئة يتخللها ضحكات خافتة. ضحكات كانت «مِيري» قد نسيت وقع رنينها في أذنها، ويبدو لها أنها لم تسمعها منذ أمد بعيد!

تقترب من الدرج وتصعده بهدوء، فيتضح لها ببطء أقدام الواقفين على السطح ثم سيقانهم وأجسادهم، حتى تتطلع لوجوههم وهم يتبادلون الأحاديث مبتسمين وعيونهم معلقة بشيء أمامهم في الأفق لا تستطيع «مِيري» أن تراه لقِصر قامتها. تمضي مخترقةً الأجساد الكثيرة المتقاربة فوق السطح وهي تتخبط في سيقانهم، فيخفضون نحوها عيونًا تمتلئ بالدهشة سرعان ما تتحول لابتسامات عريضة لتلك الطفلة التي تبدو الآن لهم رقيقة جميلة بعد أن انقشعت غيوم المأساة من أمام عيونهم، لكن «مِيري» لا تلتفت لهم، وتستمر في اختراق الأجساد باحثةً عن أبيها حتى يلوح لها أخيرًا جسده الواقف قريبًا من السور، ووجهه المبتسم وهو منهمك في الحديث مع بعض الرجال المحيطين به.

تركض «مِيري» نحوه مسرعةً دون أن تعبأ بالأجساد التي ترتطم بها حتى تتوقف أمامه مباشرة، فترفع يدها الصغيرة

وتدق بكفها دقات رقيقة على فخذه، لكنها كانت كافية لتجذب انتباهه، فيخفض رأسه مندهشًا قبل أن تقع عيناه عليها، فتتسع ابتسامته وهو ينحني ليحملها، ويعود ليقف بها فيصبح وجهها في نفس مستوى وجوه الجميع حولها.

تمدُّ يدها لتزيح خصلات شعرها المتراقصة أمام عينيها فيبدو الأفق أمامها كبيرًا واضحًا، وفي نهايته نقطة صغيرة من اليابسة تقترب منها السفينة في سرعة وثبات.

- لقد عبرنا البحر كله يا «مِيري»، ووصلنا إلى الناحية الأخرى منه!

يقولها «تيمور» بنبرة سعيدة متحمسة، بينما لا تحرك «مِيري» عينيها عن نقطة اليابسة وهي تتساءل في حيرة:

- أين وصلنا يا أبي؟!

- يقولون اسمها الإسكندرية(55).

للحكاية بقية

نوران خالد

١ أغسطس ٢٠١٥ - ١٥ يوليو ٢٠١٩

تنويه تاريخي

أثناء حرب البلقان الأولى كانت التقارير الدقيقة عما حدث في كل قرية أو مدينة بشكل مفصل شحيحة، وكان من الصعب على المراقبين الغربيين -الذين كانوا المصدر الرئيسي للمعلومات- أن يقوموا بزيارة كل القرى والمدن بشكل سريع وكتابة تقارير مفصلة لكل على حدة. لذا، فإن ما تم ذكره عما حدث في رازالق ربما لا يعكس بدقة ما حدث في هذه المدينة وقراها بالفعل، غير أنه دقيق جدًا عما حدث بشكل عام من أعمال وحشية في معظم قرى ومدن البلقان في هذا الوقت كما ذُكِر في المصادر التي سيتم توضيحها لاحقًا.

ولكن يجب التنويه إلى أن شخصية المطران أبوستولوس هي شخصية حقيقية، ولكنه كان مقيمًا في مدينة سريس (اليونان حاليًا) حيث وقف هذا المطران أمام القيادة البلغارية، واستطاع حماية المسلمين الذين لجأوا له، والدفاع عن ميثاق حماية كان زعماء أحياء المدينة قد وقّعوه سويًا بأن يقوم المسلمون بحماية المسيحيين في حالة تعرضهم لهجوم من الجيش العثماني، وأن يقوم المسيحيون بحماية

المسلمين في حالة تعرضهم لهجوم من أي من الجيوش البلقانية (الطرد والإبادة - المصدر الأول - ص ١٦٦) كما قام أساقفة آخرون بذلك في مدن أخرى قدر استطاعتهم.

شكر وامتنان

إلى أمي «نشوى صلاح»، وأبي «خالد إسماعيل»، وأختي «أريج خالد»، وأسرتي الكبيرة، لولاكم ما أنجزتُ شيئًا.

إلى «يوسف منيع» و«حور مجدي» و«لميس شريف» و«ندى مأمون» و«نهى حسن» و«مريم رزق» و«جولي صلاح» و«راما ماهر» و«حنين شاهين» على الدعم الدائم وتحمل إلحاحي أثناء قراءة ومراجعة ومناقشة مخطوطة الرواية.

إلى كل من ساعدني أو أبدى استعدادًا للمساعدة أثناء رحلة كتابة ونشر هذه الرواية.

شكر خاص

إلى الأستاذة «ناهد الخطيب» مدير متحف السكة الحديد على استقبالها واحتفائها وصبرها على أسئلتي ودأبها في مساعدتي للحصول على معلومات دقيقة؛ للحفاظ على وصف واقعي في جزء صغير جدًا من الرواية. كما أتوجه بالشكر للأستاذ «أحمد حنفي» والمهندس «أحمد محمد أبوضياء» على المساعدة والمعلومات القيمة.



المصادر

١. كتاب «الطرد والإبادة - مصير المسلمين العثمانيين (١٨٢١ – ١٩٢٢)» - جستن مكارثي - ترجمة: فريد الغزي Death and Exile – The ethnic cleansing of Ottoman Muslims (1821 – 1922) by Jusitn McCarthy. The Darwin Press، Inc. Princeton، New Jersey.

٢. كتاب «تاريخ القوقاز: نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي» - محمود عبد الرحمن - دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.

٣. كتاب «تفكيك أوروبا العثمانية: إنشاء دول البلقان القومية ١٨٠٤-١٩٢٠» - تشارلز ييلافيتش - بربارا ييلافيتش - ترجمة: د. عاصم الدسوقي - دار العالم الثالث.

٤. كتاب «تاريخ الحرب البلقانية (١٩١٢ – ١٩١٣)» - توفيق طنوس - دار جداول للنشر والترجمة والتوزيع.

٥. كتاب «المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ – الجزء الأول» – الدكتور محمد على البار – دار الشروق.

٦. كتاب «المسلمون في الإمبراطورية الروسية» – محمود شاكر – الطبعة الثانية ١٩٩٤ – المكتب الإسلامي.

٧. موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» لعبد الوهاب المسيري – المجلد الرابع: الجماعات اليهودية – الجزء الثالث (الجزئية المتعلقة بالقوزاق) – دار الشروق.

٨. المجموعة الروائية «ملحمة القفقاس» للكاتب الأمريكي ذي الأصول الشركسية «محيي الدين قندور» خاصة أجزاءها الأربعة الأولى «سيوف الشيشان» و«كازبك القبرطاي» و«المؤامرة الثلاثية» و«قصة البلقان». مرجع متميز لتاريخ الشراكسة وتفاصيل حياتهم اليومية وعاداتهم وتقاليدهم.

٩. رواية «صقور القوقاز» – سلجوق قللي – ترجمة: الدكتور محمد حرب – دار المنارة.

١٠. فيلم وثائقي «سلسلة براري روسيا – جبال القوقاز – الحد العظيم».

١١. الفيلم الروائي الطويل «الشراكسة» تأليف وإخراج «محيي الدين قندور».

١٢. الموقع الرسمي لمدينة رازالق

Razlog : http://www.razlog.bg/

١٣. صفحات ويكيبديا الخاصة بـ:

13.1 Razlog

13.2 Razlog Valley

13.3 Razlog Municipality

13.4 Blagoevard Province

13.5 Thessaloniki

13.6 Salonica Vilayet

13.7 Sanjak of Salonica

13.8 Sanjak of Siroz

13.9 Ilinden – Preobrazhenie Uprising

13.10 Kresna – Razlog Uprising

13.11 Kavala



13.12 Rumelia

13.13 Three Volley Salute

1) حقيقته

2) سالونيك أو سلانيك هي إحدى ولايات الدولة العثمانية والتي تشمل أراضيها الآن أجزاء من بلغاريا ومقدونيا واليونان. يطلق الاسم حاليًا على مدينة سالونيك أو Thessaloniki اليونانية والتي كانت جزءًا من الولاية.

٣) قوقاز أو قفقاس أو كافكاز أو قبق: مسميات مختلفة لنفس البقعة الواقعة بين آسيا وأوروبا، والتي تعد أجزاؤها الشمالية الآن أراضي روسية، بينما تحتل أجزاءها الجنوبية جورجيا والأجزاء الشمالية من أذربيجان وأرمينيا.

٤) بحر آزوف هو بحر صغير متصل بالبحر الأسود ويعتبر جزءًا منه أو امتدادًا له.

٥) إيفان الرابع (الرهيب): حاكم روسيا من عام ١٥٤٧ وحتى عام ١٥٨٤.

٦) بطرس الأكبر: قيصر روسيا من عام ١٧٢١ إلى عام ١٧٢٥.

٧) القوزاق: شعب من الجنود المنحدرين من عدة أنساب تترية ومغولية وروسية وغيرها. عاشوا على التجول وزراعة السهول في أنحاء الإمبراطورية الروسية، وحول أوكرانيا وبولندا التي استفادت منهم في حماية حدودها حتى استخدمهم القياصرة الروس كجنود مرتزقة في غزواتهم؛ لقمع وإخضاع المناطق المجاورة، قبل تسكينهم فيها مع الجماعات الأخرى الموالية لروسيا.

٨) كاثرين الثانية: إمبراطورة روسيا من عام ١٧٦٢ وحتى عام ١٧٩٦.

٩) البوركا هي معطف سميك مصنوع من جلد الخراف.

10) تحمادا: لقب يخاطب به صغار السن الكبار من الأديغة.

11) قاما = خنجر.

12) سنابك = أطراف الحوافر.

13) كان عام ١٨٦٤ هو عام النكبة الشركسية حيث أحكمت السيطرة الروسية على القوقاز المستسلم، وشهدت السنوات التالية اشتداد موجات الإبادة والترويح القسري الذي كان قد بدأ قبل ذلك بفترة طويلة.

14) يدفعه ويحثه.

15) أعماق نفسه البعيدة.

16) فودين: جانبي الرأس.

17) المسكوفيين أو المسكوفي أو المسكوبيين: أسماء كانت تطلق على الروس في بعض المناطق في الماضي نسبة إلى موسكو.

18) موائد الطعام.

19) أغطية.

20) التخريم: قماش الدانتيل.

21) المتجعدة.

22) لطم

23) روسيا حاليًا - الساحل الشرقي للبحر الأسود.

24) فضلات الحيوانات.

25) العباب: الموج، وتمخر العباب أي تشق الموج مع إحداث صوت.

26) تقهرها.

27) مجاورة.

28) الفساد.

(29) متعبة ومرهقة بشدة.

(30) نهر ماريتسا Maritsa.

(31) محض خيال: خيال خالص لا تخالطه الحقيقة

(32) يزيل اعوجاج جسدهم من الجوع.

(33) المشتعل.

(34) يتخطى.

(35) سوداء ومظلمة.

(36) هذا الجزء مقتبس بالحرف تقريبًا من تقرير مفصل شكّل جزءًا من تحقيق تم تقديمه في مؤتمر برلين للقوى الأوروبية الكبرى والدولة العثمانية عام ١٨٧٨ عن وضع اللاجئين في منطقة رهودوبة. (كتاب الطرد والإبادة – المصادر).

(37) مؤلم وموجع

(38) أحد خطابات إدمند كلفرت قنصل بريطانيا بالنيابة.

(39) مرحلة.

(40) لفَّته.

(41) فقر شديد.

(42) نشطه وقواه.

(43) كلمة «الروميليا» بشكل عام ترمز إلى الأراضي العثمانية في أوروبا.

(44) مجروح.

(45) عروق في العنق.

(46) سعادة وبهجة.

47) أضلاعها.

48) تراجعهم.

49) غفوات قصيرة.

50) ظل وحضن.

51) عقله.

52) مدينة قولة تقع على ساحل بحر إيجة، أحد أفرع البحر المتوسط، ضمن الأراضي اليونانية الحالية. وهي المدينة التي وُلِد بها محمد علي باشا حاكم مصر من عام ١٨٠٥ إلى عام ١٨٤٨.

53) مظلم

54) أقمشة يُلَف بها الصغار.

55) نظم خديوي مصر مرور ٥٠٠٠ شخص إلى مصر على متن مركبه الخاص خلال حرب البلقان الأولى عام ١٩١٢ - كتاب «الطرد والإبادة» -ص١٧٩

(المصادر).